سورة الملك

وقال في فضل سورة الملك:

(ويدل على ذلك ما رواه أهل السنن عن النبي ﷺ أنه قال: «إن سورة من القرآن ثلاثين آية شفعت لرجل حتى غفر له وهي: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾[1]») ا.هـ[2].

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾.

وقال رحمه الله: (وقد قال تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ وهو كما قال الفضيل بن عياض رحمه الله: «أخلصه وأصوبه فإن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً والخالص أن يكون لله والصواب أن يكون على السنة»، فالعمل الصالح لا بد أن يراد به وجه الله [تعالى]؛ فإن الله [تعالى] لا يقبل من العمل إلا ما أريد به وجهه وحده) ا.هـ[3].

وقال رحمه الله: (ولهذا كان أئمة السلف رحمهم الله يجمعون هذين الأصلين، كقول الفضيل بن عياض في قوله [تعالى]: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ قال: أخلصه وأصوبه، فقيل له: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ فقال: إن العمل إذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل وإذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص: أن يكون لله، والصواب: أن يكون على السنة.

وقد روى ابن شاهين واللالكائي عن سعيد بن جبير قال: «لا يقبل قول إلا بعمل، ولا يقبل قول وعمل إلا بنية، ولا يقبل قول وعمل ونية إلا بموافقة السنة»[4]

---

(١) مرّ تخريجه في سورة الفاتحة وهو صحيح. (٢) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٤٣٩) (٢٢/ ٣٥٢).

(٣) الاستقامة (٢/ ٢٢٦ ـ ٢٢٧).

(٤) اللالكائي (٢٠)، وقريباً منه عن الحسن وقتادة في حلية الأولياء (٢/ ٣٣٥) وكذا عن سفيان الثوري وعبد الرحمن بن مهدي في حلية الأولياء (٧/ ٣٢) (٩/ ٨).

ورويا عن الحسن البصري[١] مثله، ولفظ ما روى عن الحسن: «لا يصلح» مكان «لا يقبل») ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (كان عمر بن الخطاب يقول في دعائه: «اللهم اجعل عملي كله صالحاً، واجعله لوجهك خالصاً، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً») ا.هـ[٣].

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾﴾.

(وقال تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ وليس في السماء إلا أجسام ما هو متشابه ـ فأما التثليث، والتربيع، والتخميس، والتسديس، وغير ذلك: ففيها تفاوت واختلاف، بالزوايا والأضلاع ـ لا خلاف فيه، ولا تفاوت، إذ الاستدارة التي هي الجوانب) ا.هـ[٤].

﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾.

(قوله تعالى: ﴿ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ يراد به: مطلق العدد، كما تقول: قلت له مرة بعد مرة تريد: جنس العدد وتقول: هو يقول كذا ويقول كذا وإن كان قد قال مرات، كقول حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه: «جعل يقول بين السجدتين: رب اغفر لي رب اغفر لي»[٥] لم يرد: أن هذا قاله مرتين فقط، كما يظنه بعض الناس الغالطين بل يريد: أنه جعل يثني هذا القول ويردده ويكرره كما كان يثنى لفظ التسبيح) ا.هـ[٦].

﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾﴾.

(وقال تعالى عن أهل النار: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾﴾ فأخبر أنه كلما ألقي في النار فوج أقروا بأنهم جاءهم النذير فكذبوه، فدل ذلك على أنه لا يلقى فيها فوج إلا من كذب النذير) ا.هـ[٧].

---

(١) اللالكائي (٢٠).
(٢) الاستقامة (٢/٣٠٨ ـ ٣٠٩).
(٣) مجموع الفتاوى (١١/٥٠٩).
(٤) مجموع الفتاوى (٦/٥٥٨).
(٥) مرّ تخريجه.
(٦) مجموع الفتاوى (١٤/٤٠٧)، جامع المسائل (١/٢٨٣) فقط قوله: مرة بعد مرة.
(٧) مجموع الفتاوى (١١/١٨٧).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ فقد كذبوا بوجوده وكذبوا بتنزيله وأما في الآخرة فعرفوا الجميع) ا.هـ[1].

﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠﴾.

(والله تعالى قد أخبر عن أهل النار أنهم قالوا: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠﴾ فالضلال وقع في السمع والعقل) ا.هـ[2].

﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝١٣﴾.

(وأما قوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝١٣﴾ فالمراد به القول الذي تارة يسر به فلا يسمعه الإنسان وتارة يجهر به فيسمعونه كما يقال: أسر القراءة وجهر بها، وصلاة السر وصلاة الجهر ولهذا لم يقل: قولوه بألسنتكم أو بقلوبكم، وما في النفس لا يتصور الجهر به، وإنما يجهر بما في اللسان وقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ من باب التنبيه يقول: إنه يعلم ما في الصدور فكيف لا يعلم القول كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧﴾ [طه] فنبه بذلك على أنه يعلم الجهر ويدل على ذلك أنه قال: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝١٣﴾ فلو أراد بالقول ما في النفس لكونه ذكر علمه بذات الصدور، لم يكن قد ذكر علمه بالنوع الآخر وهو الجهر) ا.هـ[3].

وقال رحمه الله: (وقد احتج بعض هؤلاء بقوله: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝١٣﴾ وجعلوا القول المسر في القلب دون اللسان؛ لقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ وهذه حجة ضعيفة جداً؛ لأن قوله: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ﴾ يبين أن القول يسر به تارة ويجهر به أخرى، وهذا إنما هو فيما يكون في القول الذي هو بحروف مسموعة، وقوله بعد ذلك: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى فإنه إذا كان عليماً بذات الصدور فعلمه بالقول المسر والمجهور به أولى) ا.هـ[4].

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝١٣ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٤﴾ وقد استدل طوائف من أهل السنة بهذه الآية على

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ١٥١).
(٢) درء تعارض العقل والنقل (٨/ ٢٧٧).
(٣) مجموع الفتاوى (٧/ ١٣٦).
(٤) مجموع الفتاوى (١٥/ ٣٥ ـ ٣٦).

أنه خالق أقوال العباد وما في صدورهم، وهذه الآية تدل على كونه عالماً بالجزئيات من طرق:

«أحدها»: من جهة كون الخلق يستلزم العلم بالمخلوق.

«والثاني»: من جهة كونه في نفسه لطيفاً خبيراً، وذلك يوجب علمه بدقيق الأشياء وحفيها.

ثم يقال: اللطيف الخبير علمه بنفسه أولى من علمه بغيره، وعلمه بنفسه، مستلزم لعلمه بلوازم ذاته كما تقدم، فقد تضمنت الآية هذه الطرق الثلاثة) ا.هـ[1].

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾.

(كما دل عليه قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ فإنه في نفسه لطيف خبير يمتنع أن يخفى عليه شيء) ا.هـ[2].

وقال رحمه الله: (وقد قال في سورة الملك ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ وهو بيان ما في المخلوقات من لطف الحكمة التي تتضمن إيصال الأمور إلى غاياتها بألطف الوجوه) ا.هـ[3].

وقال رحمه الله: (﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ فقد دلت هذه الآية، على وجوب علمه بالأشياء، من وجوه انتظمت البراهين المذكورة، لأهل النظر والاستدلال القياسي العقلي، من أهل الكلام والفلسفة وغيرهم:

«**أحدها**»: أنه خالق لها، والخلق هو الإبداع بتقدير، وذلك يتضمن تقديرها في العلم قبل تكوينها في الخارج.

«**الثاني**»: أن ذلك مستلزم للإرادة والمشيئة، والإرادة مستلزمة لتصور المراد والشعور به، وهذه الطريقة المشهورة عند أكثر أهل الكلام.

«**الثالث**»: أنها صادرة عنه، وهو سببها التام، والعلم بأصل الأمر وسببه يوجب العلم بالفرع المسبب، فعلمه بنفسه مستلزم العلم بكل ما يصدر عنه.

«**الرابع**»: أنه في نفسه لطيف يدرك الدقيق، خبير يدرك الخفي، وهذا هو مقتضى العلم بالأشياء، فيجب وجود المقتضى لوجود السبب التام، فهو في علمه بالأشياء

---

(١) درء تعارض العقل (١٠/ ١١٧).
(٢) درء تعارض العقل (١٠/ ١٢٤).
(٣) مجموع الفتاوى (١٦/ ٣٥٤).

مستغن بنفسه عنها، كما هو غني بنفسه في جميع صفاته، ثم إذا رأى الأشياء بعد وجودها، وسمع كلام عباده ونحو ذلك، فإنما يدرك ما أبدع وما خلق، وما هو مفتقر إليه، ومحتاج من جميع وجوهه، لم يحتج في علمه وإدراكه إلى غيره ألبتة، فلا يجوز القول بأن علمه بالأشياء استفاده من نفس الأشياء الثابتة، الغنية في ثبوتها عنه) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (قال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ فالعلم بها شرط في وجودها لكن ليس هو وحده العلة في وجودها بل لا بد من القدرة والمشيئة) ا.هـ[2].

وقال رحمه الله: (والمقصود هنا أنه إذا كان عالماً بنفسه لزم أن يكون عالماً بخلقه، وهذه قضية صحيحة، ويمكن تقريرها بطرق:

«أحدها»: أنه لا يكون عالماً بنفسه علماً تاماً إلا إذا كان عالماً بلوازمها، والخلق من لوازم مشيئته، التي هي من لوازم نفسه، فإنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ومشيئته من لوازم نفسه.

والفلاسفة يعبرون عن أصلهم بقولهم: إنه علة تامة والعلم بالعلة التامة يقتضي العلم بالمعلول.

ومن سلم منهم أنه يفعل باختياره وسماه مع ذلك علة فالنزاع معه لفظي والمعنى صحيح؛ فإنه حينئذ مع قدرته على الشيء إذا شاءه وجب وجوده، فما شاء كان فهو بمشيئته وقدرته موجب لوجود ما شاءه والعلم بالموجب التام يوجب العلم بموجبه.

وأما من لم يسلم أنه يفعل باختياره، فهذا القول باطل من جهة نفيه لاختياره، لا من جهة أن كونه فاعلاً يوجب العلم بالمفعول، فإذا قدر أنه فاعل على هذا الوجه، كان علمه بنفسه يوجب علمه بمفعولاته؛ لأن العلم بالموجب التام يوجب العلم بالموجب.

ففي الجملة لا يكون عالماً بنفسه إن لم يكن عالماً بلوازمها، وقدرته وإرادته من لوازمها، ومراده من لوازم الإرادة، فالمفعولات لازمة للإرادة اللازمة لذاته، ولازم اللازم لازم، ومجرد النظر إلى كونه مستلزماً لمفعوله يوجب العلم مع قطع النظر عن توسط الإرادة، لكن هي ثابتة في نفس الأمر وإن لم يستحضر المستدل ثبوته، وهذا الدليل يستقيم على أصول أهل السنة الذين يقولون: إرادته من صفاته التي هي من لوازم ذاته.

---

(١) مجموع الفتاوى (٢/ ٢١١).
(٢) درء تعارض العقل (٩/ ٣٩١).

وأما القدرية الذين ينكرون قيام إرادة به فينفونها، أو يقولون: أحدث إرادة لا في محل، فهؤلاء يقولون: القادر المختار يرجح أحد مقدوريه بلا مرجح، وهؤلاء لا يسلكون هذه الطريق.

وهذا الدليل مأخوذ من معنى قوله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ ودلالة الآية تقرر بطريق ثان، وهو أن يقال: خلق الخالق مشروط بتصوره للمخلوق قبل أن يخلقه؛ فإن الخلق إنما يخلق بالإرادة، والإرادة مشروطة بالعلم، فإرادة ما لا يشعر به محال، وإذا كان إنما يخلق بإرادته، وإنما يريد ما يصوره لزم من ذلك أن يعلم كل ما خلقه.

وهذه الطريقة هي طريقة مشهورة لنظار المسلمين، والقرآن قد دل عليها، والعقل الصريح يدرك صحتها، وطرد هذه الدلالة على أصول أهل السنة أن من سوى الله لا يخلق شيئاً، لأنه لا يحيط علماً بجزئيات أفعاله، فلا يكون خالقاً لها، وإن كان شاعراً بها من بعض الوجوه، ومريداً لها من بعض الوجوه، فهو فاعل لها من ذلك الوجه) ا.هـ[1].

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾﴾.

وقال رحمه الله فيما نقله عن البيهقي: (﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أراد فوق السماء كما قال: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] وقال): ﴿فَسِيحُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [التوبة: ٢] يعني على الأرض، وكل ما علا فهو سماء، والعرش على السماوات، فمعنى الآية: أأمنتم من على العرش كما صرح به في سائر الآيات. وقال: فيما كتبنا من الآيات دلالة على إبطال قول من زعم من الجهمية بأن الله بذاته في كل مكان) ا.هـ[2].

وقال رحمه الله فيما نقله عن أبي الحسن الأشعري: (وقال ﷻ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾﴾ والسموات فوقها العرش وإنما أراد العرش الذي هو على السموات ألا ترى أن الله ذكر السموات فقال: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح: ١٦] ولم يرد أن القمر يملؤهن جميعاً وأنه فيهن جميعاً) ا.هـ[3].

وقال رحمه الله: (وقال في قوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي من فوق السماء، واحتج البيهقي لذلك بقول النبي ﷺ (لسعد بن معاذ حين حكم في بني قريظة): «لقد حكمت فيهم بحكم الله الذي حكم به فوق سبع سماوات»[4].

---

(١) درء تعارض العقل (١٠/ ١١٣ ـ ١١٤).
(٢) بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٥٣٠).
(٣) بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٤٣٤).
(٤) مرّ تخريجه.

وبقول ابن عباس: إن بين السماء السابعة إلى كرسيه سبعة آلاف نور وهو فوق ذلك[١]) ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (قال أبو الحسن بن مهدي الطبري[٣]: فإن قيل: فما تقولون في قوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾؟ قيل له: معنى ذلك أنه فوق السماء على العرش كما قال: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [التوبة: ٢] بمعنى على الأرض وقال: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] أي على جذوع النخل فكذلك قوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾.

قال: فإن قيل: فما تقولون في قوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام: ٢] قيل له: إن بعض القراء يجعل الوقف في السماوات ثم يبتدي: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ وكيف ما كان فلو أن قائلاً قال: فلان بالشام والعراق مَلِكٌ لدل على الملك بالشام والعراق لا أن ذاته فيهما، قال: فإن قيل: ما تقول في قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧] قيل له: كون الشيء مع الشيء على وجوه: منها بالنصر، ومنها بالصحبة، ومنها بالمماسة، ومنها بالعلم، فمعنى هذا عندنا أن الله تعالى مع كل الخلق بالعلم.

قال: قال البلخي[٤]: فإن قيل لنا: ما معنى رفع أيدينا إلى السماء؟ وقوله: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠] قلنا: تأويل ذلك أن أرزاق العباد لما كانت تأتي من السماء جاز أن نرفع أيدينا إلى السماء عند الدعاء وجاز أن يقال: أعمالنا ترفع إلى الله لما كانت حفظة الأعمال إنما مساكنهم في السماء، قيل له: إن كانت العلة في رفع أيدينا إلى السماء أن الأرزاق فيها وأن الحفظة مساكنهم في السماء جاز أن نخفض أيدينا في الدعاء نحو الأرض من أجل أن الله يحدث فيها النبات والأقوات والمعاش وأنها قرارهم ومنها خلقوا أو لأن الملائكة معهم في الأرض، فلم تكن العلة في السماء بما وصفه، وإنما أمرنا الله تعالى برفع أيدينا قاصدين إليه لرفعها نحو العرش الذي هو مستو عليه) ا.هـ[٥].

---

(١) مرّ تخريجه. (٢) بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٣٣٦ ـ ٣٣٧).

(٣) هو أحد تلامذة الأشعري واسمه علي بن محمّد بن مهدي الطبري، وفاته سنة ٣٨٠هـ.

(٤) هو أبو القاسم عبد الله بن أحمد بن محمود الكعبي، وهو من المعتزلة، توفي سنة ٣١٩هـ.

(٥) بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٣٣٦ ـ ٣٣٧)، وكلام الطبري من كتابه «تأويل الأحاديث المشكلة» وهو مخطوط قد نقل أكثر هذه العبارات التي نقلها شيخ الإسلام الدكتور الفاضل عبد الرحمن المحمود في رسالته القيمة «موقف ابن تيمية من الأشاعرة» (٢/ ٥١٨ ـ ٥١٩) من المخطوطة الأصلية لأبي الحسن.

وقال رحمه الله: (وما في الكتاب والسنة من قوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ ونحو ذلك قد يفهم منه بعضهم أن (السماء) هي نفس المخلوق العالي العرش فما دونه فيقولون: قوله: ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ بمعنى على السماء كما قال: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] أي على جذوع النخل وكما قال: ﴿فَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٣٧] أي على الأرض ولا حاجة إلى هذا بل السماء اسم جنس للعالي لا يخص شيئاً فقوله في السماء أي في العلو دون السفل وهو العلي الأعلى فله أعلى العلو وهو ما فوق العرش وليس هناك غيره العلي الأعلى ﷻ) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (وكذلك قوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾﴾ من توهم أن مقتضى هذه الآية أن يكون الله في داخل السماوات فهو جاهل ضال بالاتفاق، وإن كنا إذا قلنا: إن الشمس والقمر في السماء يقتضي ذلك فإن حرف (في) متعلق بما قبله وبما بعده، فهو بحسب المضاف إليه) ا.هـ[2].

وقال رحمه الله: (وكذلك قوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ إن كان قد قال أحد: إنه في جوف السماء فهو شر قولاً من هؤلاء ولكن هذا ما علمت به قائلاً معيناً منسوباً إلى علم حتى أحكيه[3] قولاً.

ومن قال: «إنه في السماء» فمراده أنه في العلو ليس مراده أنه في جوف الأفلاك إلا [أن بعض] الجهال يتوهم ذلك، وقد ظن طائفة أن هذا ظاهر اللفظ.

(الظاهر)، ولا ريب، أنه محمول على خلاف هذا بالاتفاق، لكن[4] هذا هو الذي يظهر لعامة المسلمين الذين يطلقون هذا القول ويسمعونه، أو هو مدلول اللفظ في اللغة، هو مما لا يسلم لهم كما قد يبسط في مواضع) ا.هـ[5].

وقال رحمه الله: (قال الشيخ في قوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾﴾ من توهم أن مقتضى هذه الآية أن يكون الله في داخل السماوات فهو جاهل ضال بالاتفاق وإن كنا إذا قلنا إن الشمس والقمر في السماء يقتضي ذلك، فإن حرف (في) متعلق بما قبله وبما بعده فهو بحسب المضاف إليه ولهذا يفرق بين كون الشيء في المكان وكون الجسم في الحيز وكون العرض في الجسم وكون الوجه في المرآة وكون

---

(١) مجموع الفتاوى (١٦/ ١٠١).
(٢) مجموع الفتاوى (٣/ ٥٢).
(٣) في الأصل: أحيكه، وهو تحريف.
(٤) لعله سقط لفظ «كون».
(٥) مجموع الفتاوى (١٦/ ١٠٨ ـ ١٠٩).

الكلام في الورق فإن لكل نوع من هذه الأنواع خاصة يتميز بها عن غيره وإن كان حرف (في) مستعملاً في ذلك فلو قال قائل: العرش في السماء أو في الأرض لقيل في السماء ولو قيل الجنة في السماء أم في الأرض؟ لقيل: الجنة في السماء، ولا يلزم من ذلك أن يكون العرش داخل السماوات، بل ولا الجنة، فقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة، وأوسط، الجنة وسقفها عرش الرحمن»[1] فهذه الجنة سقفها الذي هو العرش فوق الأفلاك مع أن الجنة في السماء يراد به العلو، سواء كان فوق الأفلاك أو تحتها، قال تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الحج: ١٥] وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨].

ولما كان قد استقر في نفوس المخاطبين أن الله هو العلي الأعلى وأنه فوق كل شيء: كان المفهوم من قوله إنه في السماء أنه في العلو، وأنه فوق كل شيء، وكذلك الجارية لما قال لها: أين الله؟ قالت في السماء، إنما أرادت العلو، مع عدم تخصيصه بالأجسام المخلوقة وحلوله فيها، وإذا قيل: العلو فإنه يتناول ما فوق المخلوقات كلها، فما فوقها كلها هو في السماء ولا يقتضي هذا أن يكون هناك ظرف وجودي يحيط به إذ ليس فوق العالم شيء موجود إلا الله كما لو قيل العرش في السماء: فإنه لا يقتضي أن يكون العرش في شيء آخر موجود مخلوق وإن قدر أن «السماء» المراد بها الأفلاك كان المراد أنه عليها كما قال: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] وكما قال: ﴿فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٣٧] وكما قال: ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [التوبة: ٢] ويقال: فلان في الجبل، وفي السطح وإن كان على أعلى شيء فيه.

ثم من توهم أن كون الله في السماء بمعنى أن السماء تحيط به وتحويه فهو كاذب إن نقله عن غيره وضال إن اعتقده في ربه، وما سمعنا أحد يفهمه من اللفظ ولا رأينا نقله عن واحد، ولو سئل سائر المسلمين هل يفهمون من قوله سبحانه ورسوله إن الله في السماء أن السماء تحويه لبادر كل أحد منهم إلى أن يقول: هذا شيء لعله لم يخطر ببالنا، وإذا كان الأمر هكذا فمن التكلف أن يجعل ظاهر اللفظ شيئاً محالاً لا يفهمه الناس منه ثم يريد أن يتأوله، بل عند المسلمين: «إن الله في السماء» و«هو على العرش» واحد؛ إذ السماء إنما يراد به العلو، فالمعنى إن الله في العلو لا في السفل، وقد علم المسلمون أن كرسيه ﷻ وسع السماوات والأرض، وأن الكرسي في العرش

---

(١) البخاري (٢٧٩٠).

كحلقة ملقاة بأرض فلاة وأن العرش خلق من مخلوقات الله لا نسبة له إلى قدرة الله وعظمته، فكيف يتوهم بعد هذا أن خلقاً يحصره ويحويه؟!.

وما في الكتاب والسنة من قوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ ونحو ذلك قد يفهم منه بعضهم أن السماء هي نفس المخلوق العالي العرش فما دونه فيقولون قوله في السماء بمعنى على السماء كما قال: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] أي على جذوع النخل وكما قال: ﴿فَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٣٧] أي على الأرض، ولا حاجة إلى هذا، بل السماء اسم جنس للعالي لا يخص شيئاً فقوله: ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي في العلو دون السفل وهو العلي الأعلى فله العلو وهو ما فوق العرش، وليس هناك غيره العلي الأعلى ﷻ) ا.هـ[1].

﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾﴾.

(والرسل صلوات الله عليهم أخبروا بأن الله فوق العالم بعبارات متنوعة تارة يقولون: هو العلي وهو الأعلى وتارة يقولون: هو في السماء كقوله: ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ وليس مرادهم بذلك أن الله في جوف السماوات، أو أن الله يحصره شيء من المخلوقات، بل كلام الرسل كله يصدق بعضه بعضاً، كما قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الصافات]، وقد قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحديد].

وثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء»[2] فأخبر أنه لا يكون شيء فوقه.

ولهذا قال غير واحد من أئمة السلف: إنه ينزل إلى السماء الدنيا ولا يخلو العرش منه فلا يصير تحت المخلوقات وفي جوفها قط، بل العلو عليها صفة لازمة له، حيث وجد مخلوق، فلا يكون الرب إلا عالياً عليه.

وقول الرسل في السماء أي في العلو، ليس مرادهم أنه في جوف الأفلاك بل السماء العلو، وهو إذا كان فوق العرش فهو العلي الأعلى وليس هناك مخلوق حتى يكون الرب محصوراً في شيء من المخلوقات ولا هو في جهة موجودة بل ليس موجوداً

(١) بيان تلبيس الجهمية (١/ ٥٥٨ ـ ٥٦٠). (٢) مرّ تخريجه.

إلا الخالق والمخلوق والخالق بائن عن مخلوقاته، عالٍ عليها، فليس هو في مخلوق أصلاً، سواء سمي ذلك المخلوق جهة أو لم يسم جهة) ا.هـ[١].

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾.

(ثم إذا احتجت إليه في جلب رزق أو دفع ضرر: فهو الذي يأتي بالرزق لا يأتي به غيره، وهو الذي يدفع الضرر لا يدفعه غيره كما قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾) ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (قال الله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾ والنصر يتضمن دفع الضرر والرزق يتضمن حصول المنفعة قال الله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ ﴿٤﴾﴾ [قريش] وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧] وقال الخليل عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٢٦] وقال النبي ﷺ: «هل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم»[٣]: بدعائهم وصلاتهم وإخلاصهم؟) ا.هـ[٤].

وقال رحمه الله: (وهو الذي يرزقهم ويعافيهم وينصرهم ويهديهم؛ لا أحد غيره يفعل ذلك قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾) ا.هـ[٥].

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

(يسمى الموعود وعداً في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً﴾ وإنما رأوا ما وعدوه من العذاب) ا.هـ[٦].

وقال رحمه الله: (وهؤلاء ومن وافقهم على بعض أقوالهم التي تنفي حقيقة اللقاء

---

(١) الجواب الصحيح (٤/ ٣١٦ ـ ٣١٧).
(٢) مجموع الفتاوى (١/ ٣٧).
(٣) مرّ تخريجه.
(٤) مجموع الفتاوى (١/ ٣١ ـ ٣٢).
(٥) مجموع الفتاوى (٣٥/ ٣٧١ ـ ٣٧٢).
(٦) مجموع الفتاوى (١٩/ ٢٥٣).

يتأولون اللقاء على أن المراد به لقاء جزاء ربهم ويقولون إن الجزاء قد يرى كما في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾﴾ فإن ضمير المفعول في رأوه عائد إلى الوعد، والمراد به الموعود أي فلما رأوا ما وعدوا سيئت وجوه الذين كفروا.

ومن قال إن الضمير عائد هنا إلى الله فقوله ضعيف) ا.هـ[1].

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

(فقد تمسك بعضهم بقوله ﷻ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً﴾ واعتقدوا أن الضمير عائد إلى الله وهذا غلط فإن الله ﷻ قال: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾﴾ فهذا يبين أن الذي رأوه هو الوعد أي الموعود به من العذاب، ألا تراه يقول: ﴿وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾؟ وتمسكوا بأشياء باردة فهموها من القرآن ليس فيها دلالة بحال) ا.هـ[2].

(١) مجموع الفتاوى (٦/ ٤٧٠ ـ ٤٧١).
(٢) مجموع الفتاوى (٦/ ٤٩٨).

سورة القلم

وقال في عموم سورة (ن):

(إن الله سبحانه أخبر عن أهل الجنة الذين بلاهم بما بلاهم به في سورة نون وهم قوم كان للمساكين حق في أموالهم إذا جذوا نهاراً بأن يلتقط المساكين ما يتساقط من الثمر فأرادوا أن يجذوا ليلاً ليسقط ذلك الحق ولئلا يأتيهم مسكين فأرسل الله على جنتهم طائفاً وهم نائمون فأصبحت كالصريم عقوبة على احتيالهم لمنع الحق الذي كان للمساكين في أموالهم فكان في ذلك عبرة لكل من احتال لمنع حق لله أو لعباده من زكاة أو شفعة وقصد هؤلاء معروف كما ذكرناه، على أن في التنزيل ما يكفي في الدلالة فإن هؤلاء لو لم يكونوا أرادوا منع واجب لم يعاقبوا بمنع التطوع؛ فإن الذم والعقوبة إنما يكون على فعل محرم أو ترك واجب، وهذه خاصة الواجب والحرام التي تفصل بينهما وبين المستحب والمكروه، ثم إن كان عوقبوا على الاحتيال على ترك المستحب ففيه تنبيه على العقوبة على ترك الواجب، ولا يجوز أن تكون العقوبة على ترك الاستثناء وحده فإن هذا إنما يعاقب صاحبه بمنع الفعل بأن يبتلى بما يشغله عنه أما عقوبته بإهلاك المال فلا، لأن الله قال: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [القلم: ١٧] بعد أن قال: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ [القلم] فعلم أنها عبرة لمن منع الخير ولأن الله قص عنهم أنهم أقسموا ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون فإنهم انطلقوا وهم يتخافتون أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين فعلم أن جميع هذه الأمور لها تأثير في العقوبة فعلم أنها محرمة لأن ذكر ما لا تأثير له في الحكم مع المؤثر غير جائز كما لو ذكر مع هذا أنهم أكلوا أو شربوا فإن كان هؤلاء عوقبوا على قصد منع الخير المستحب فكيف بمن قصد منع الواجب وإن كانوا إنما قصدوا منع واجب وهو الصواب كما قررناه فهم لم يمنعوه بعد وجوبه لأنه لو كان قد وجب لم يكن فرق بين صرمه بالليل وصرمه بالنهار وإنما قصدوا بالصرم ليلاً الفرار مما كان للمساكين فيه من اللقاط فعلم أن الأمر كما ذكره المفسرون من أن

حق المساكين كان فيما يساقط ولم يكن شيئاً موقتاً ووجوب هذا مشروط بسقوطه وحضور من يأخذه من المساكين كان الساقط عفو المال وفضله وحضور أهل الحاجة بمنزلة السؤال والفاقة ومثل هذه الحال يجب فيها ما لا يجب في غيرها كما يجب قرى الضيف وإطعام المضطر ونفقة الأقارب وحمل العقل ونحو ذلك فيكون هذا فراراً من حق قد انعقد سبب وجوبه قبل وقت وجوبه فهو مثل الفرار من الزكاة قبل حلول الحول بعد ملك النصاب والفرار من الشفعة بعد إرادة البيع قبل تمامه والفرار من قرى الضيف قبل حضوره ونحو ذلك ولولا أن قصدنا هنا الإشارة فقط لبسطنا القول في ذلك) ا.هـ[1].

وقال شيخ الإسلام رحمه الله:

(سورة ﴿نٓ﴾ هي سورة «الخُلُق» الذي هو جماع الدين الذي بعث الله به محمداً ﷺ قال الله تعالى فيها: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ قال ابن عباس: على دين عظيم، وقاله ابن عيينة، وأخذه أحمد عن ابن عيينة، فإن الدين والعادة والخلق ألفاظ متقاربة المعنى في الذات وإن تنوعت في الصفات كما قيل في لفظ الدين.

فهذا دينه أبداً وديني.

وجمع بعض الزنادقة بينهما في قوله:

ما الأمر إلا نسق واحد ... ما فيه من مدح ولا ذم

وإنما العادة قد خصصت ... والطبع والشارع بالحكم

﴿نٓ﴾ أقسم سبحانه بالقلم وما يسطرون، فإن القلم به يكون الكتاب الساطر للكلام: المتضمن للأمر والنهي والإرادة، والعلم المحيط بكل شيء، فالإقسام وقع بقلم التقدير ومسطوره، فتضمن أمرين عظيمين تناسب المقسم عليه:

«أحدهما»: الإحاطة بالحوادث قبل كونها، وأن من علم بالشيء قبل كونه أبلغ ممن علمه بعد كونه فإخباره عنه أحكم وأصدق.

«الثاني» أن حصوله في الكتابة والتقدير يتضمن حصوله في الكلام والقول والعلم من غير عكس، فإقسامه بآخر المراتب العلمية يتضمن أولها من غير عكس، وذلك غاية المعرفة واستقرار العلم إذا صار مكتوباً فليس كل معلوم مقولاً، ولا كل مقول مكتوباً،

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ١٦ ـ ١٧).

وهذا يبين لك حكمة الإخبار عن القدر السابق بالكتاب دون الكلام فقط أو دون العلم فقط.

والمقسم عليه ثلاث جمل: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ سلب عنه النقص الذي يقدح فيه، وأثبت له الكمال المطلوب في الدنيا والآخرة، وذلك أن الذي أتى به إما أن يكون حقاً أو باطلاً، وإذا كان باطلاً فإما أن يكون مع العقل أو عدمه فهذه الأقسام الممكنة في نظائر هذا:

«**الأول**» أن يكون باطلاً ولا عقل له فهذا مجنون لا ذم عليه ولا يتبع.

«**الثاني**» أن يكون باطلاً وله عقل فهذا يستحق الذم والعقاب.

«**الثالث**» أن يكون حقاً مع العقل فنفى عنه الجنون أولاً، ثم أثبت له الأمر الدائم الذي هو ضد العقاب ثم بين أنه على خلق عظيم، وذلك يبين عظم الحق الذي هو عليه بعد أن نفى عنه البطلان.

وأيضاً: فالناس نوعان: إما معذب، وإما سليم منه، والسليم ثلاثة أقسام: إما غير مكلف، وإما مكلف قد عمل صالحاً: مقتصداً، وإما سابق بالخيرات. فجعل القسم مرتباً على الأحوال الثلاثة ليبين أنه أفضل قسم السعداء، وهذا غاية كمال السابقين بالخيرات، وهذا تركيب بديع في غاية الإحكام.

ثم قال: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨﴾ [القلم] فتضمن أصلين:

«**أحدهما**» أنه نهاه عن طاعة هذين الضربين فكان فيه فوائد:

«منها» أن النهي عن طاعة المرء نهي عن التشبه به بالأولى، فلا يطاع المكذب والحلاف، ولا يعمل بمثل عملهما كقوله: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١] وأمثاله، فإن النهي عن قبول قول من يأمر بالخلق الناقص أبلغ في الزجر من النهي عن التخلق به.

و«منها» أن ذلك أبلغ في الإكرام، والاحترام، فإن قوله: لا تكذب، ولا تحلف، ولا تشتم، ولا تهمز، ليس هو مثل قوله لا تطع من يكون متلبساً بهذه الأخلاق، لما فيه من تشريفه وبراءته.

و«منها» أن الأخلاق مكتسبة بالمعاشرة، ففيه تحذير عن اكتساب شيء من أخلاقهم بالمخالطة لهم فليأخذ حذره، فإنه محتاج إلى مخالفتهم لأجل دعوتهم إلى الله تعالى.

و«منها» أنهم يبدون مصالح فيما يأمرون به، فلا تطع من كان هكذا ولو أبداها، فإن الباعث لهم على ما يأمرون به هو ما في نفوسهم من الجهل والظلم، وإذا كان الأصل المقتضي للأمر فاسداً لم يقبل من الأمر، فإن الأمر مداره على العلم بالمصلحة وإرادتها، فإذا كان جاهلاً لم يعلم المصلحة، وإذا كان الخلق فاسداً لم يردها وهذا معنى بليغ.

«الأصل الثاني»: أنه ذكر قسمين المكذبين وذوي الأخلاق الفاسدة وذلك لوجوه:

«أحدها»: أن المأمور به هو الإيمان والعمل الصالح فضده التكذيب والعمل الفاسد.

«الثاني»: أن المؤمنين مأمورون بالتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، فكما أنا مأمورون بقبول هذه الوصية والإيصاء بها، فقد نهينا عن قبول ضدها وهو التكذيب بالحق والترك للصبر فإن هذه الأخلاق إنما تحصل لعدم الصبر، والصبر ضابط الأخلاق المأمور بها، ولهذا ختم السورة به وقال: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ [فصلت: ٣٥] فكان في سورة العصر ما بين هنا فنهاه عن طاعة الذي في خسر ضد الذي للمؤمنين الآمرين بالحق والصبر، والذي في خسر هو الكذاب المهين، فهو تارك للحق والصبر.

«الأصل الثالث»: أن صلاح الإنسان في العلم النافع والعمل الصالح، وهو الكلم الطيب الذي يصعد إلى الله، والعمل الصالح جماع العدل، وجماع ما نهى الله عنه الناس: هو الظلم، كما قرر في غير هذا قال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] والتكذيب بالحق صادر، إما عن جهل وإما عن ظلم وهو الجاحد المعاند، وصاحب الأخلاق الفاسدة إنما يوقعه فيها أحد أمرين: إما الجهل بما فيها وما في ضدها فهذا جاهل وإما الميل والعدوان وهو الظلم.

فلا يفعل السيئات إلا جاهل بها أو محتاج إليها متلذذ بها وهو الظالم، فنهاه عن طاعة الجاهلين والظالمين.

وقوله: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ﴾ [القلم: ٩] أخبر أنهم يحبون إدهانه ليدهنوا، فهم لا يأمرونه نصحاً، بل يريدون منه الإدهان ويتوسلون بإدهانه إلى إدهانهم ويستعملونه لأغراضهم في صورة الناصح وذلك لما نشأ من تكذيبهم بالحق، فإنه لم يبق في قلوبهم غاية ينتهون إليها من الحق، لا في الحق المقصود ولا الحق الموجود، لا خبراً عنه، ولا أمراً به، ولا اعتقاداً، ولا اقتصاداً.

ثم قال: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾﴾ [القلم] ذكر أربع آيات كل آيتين جمعت نوعاً من الأخلاق الفاسدة المذمومة وجمع في كل آية بين النوع المتشابه خبراً وطلباً فالحلاف مقرون بالمهين، لأن الحلاف هو كثير الحلف وإنما يكون على الخبر أو الطلب، فهو إما تصديق أو تكذيب، أو حض أو منع، وإنما يكثر الرجل ذلك في خبره إذا احتاج أن يصدق ويوثق بخبره، ومن كان كثير الحلف كان كثير الكذب في العهد محتاجاً إلى الناس فهو من أذل الناس: ﴿حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ حلاف في أقواله مهين في أفعاله.

وأما الهماز المشاء بنميم: فالهمز أقوى من اللمز وأشد سواء كان همز الصوت أو همز حركة ومنه «الهمزة» وهي نبرة من الحلق مثل التهوع ومنه الهمز بالعقب، كما في حديث زمزم: «إنه همز جبريل بعقبه»[1].

والفعال: مبالغة في الفاعل، فالهماز المبالغ في العيب نوعاً وقدراً، القدرة من صورة اللفظ، وهو الفعال، والنوع من مادة اللفظ وهو الهمزة، والمشاء بنميم هو من العيب، ولكنه عيب في القفا فهو عيب الضعيف العاجز، فذكر العياب بالقوة، والعياب بالضعف، والعياب في مشهد، والعياب في مغيب.

وأما ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾﴾ [القلم] فإن الظلم نوعان: ترك الواجب وهو منع الخير، وتعد على الغير وهو المعتدي، وأما الأثيم مع المعتدي فكقوله: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

وأما العتل الزنيم: فهو الجبار الفظ الغليظ الذي قد صار من شدة تجبره وغلظه معروفاً بالشر، مشهوراً به، له زنمة كزنمة الشاة ويشبه والله أعلم أن يكون الحلاف المهين الهماز المشاء بنميم من جنس واحد وهو في الأقوال وما يتبعها، والمناع المعتدي الأثيم العتل الزنيم من جنس وهو في الأفعال وما يتبعها من الأقوال، فالأول الغالب على جانب الأعراض، والثاني الغالب على جانب الحقوق في الأحوال والمنافع ونحو ذلك، ووصفه بالظلم والبخل والكبر كما في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ [النساء].

وقوله: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾ [القلم] فيه إطلاق يتضمن الوسم في الآخرة وفي الدنيا أيضاً، فإن الله جعل للصالحين سيما وجعل للفاجرين سيما قال تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ

(١) البخاري (٣٣٦٥) وهو في قصة هاجر وإسماعيل في مكة.

فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩] وقال يظهر: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ [محمد: ٣٠] فجعل الإرادة والتعريف بالسيما الذي يدرك بالبصر معلقاً على المشيئة، وأقسم على التعريف في لحن القول وهو الصوت الذي يدرك بالسمع، فدل على أن المنافقين لا بد أن يعرفوا في أصواتهم وكلامهم الذي يظهر فيه لحن قولهم، وهذا ظاهر بين لمن تأمله في الناس، من أهل الفراسة في الأقوال وغيرها مما يظهر فيها من النواقص والفحش وغير ذلك.

وأما ظهور ما في قلوبهم على وجوههم فقد يكون، وقد لا يكون، ودل على أن ظهور ما في باطن الإنسان على فلتات لسانه أقوى من ظهوره على صفحات وجهه، لأن اللسان ترجمان القلب، فإظهاره لما أكنه أوكد، ولأن دلالة اللسان قالية، ودلالة الوجه حالية، والقول أجمع وأوسع للمعاني التي في القلب من الحال، ولهذا فضل من فضل كابن قتيبة وغيره السمع على البصر.

والتحقيق: أن السمع أوسع، والبصر أخص وأرفع، وإن كان إدراك السمع أكثر فإدراك البصر أكمل، ولهذا أقسم أنه لا بد أن يدركهم بسمعه، وأما إداركه إياهم بالبصر بسيماهم فقد يكون، وقد لا يكون، فأخبر سبحانه أنه لا بد أن يوسم صاحب هذه الأخلاق الخبيثة على خرطومه، وهو أنفه الذي هو عضوه البارز، الذي يسبق البصر إليه عند مشاهدته، لتكون السيما ظاهرة من أول ما يرى وهذا ظاهر في الفجرة الظلمة، الذين ودعهم الناس اتقاء شرهم وفحشهم فإن لهم سيما من شر يعرفون بها، وكذلك الفسقة وأهل الريب وقوله: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾ [القلم: ١٧] فيه بيان حال البخلاء، وما يعاقبون به في الدنيا قبل الآخرة من تلف الأموال إما إغراقاً، وإما إحراقاً، وإما نهباً، وإما مصادرة، وإما في شهوات الغي وإما في غير ذلك مما يعاقب به البخلاء، الذين يمنعون الحق، وليس إقدام في صنائع المعروف، وهو قوله: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ [القلم: ١٢] وهو أحد نوعي الظلم كما أخبروا به عن نفوسهم في قولهم: ﴿يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾ [القلم: ٣١] وكما قال: «مطل الغني ظلم»[1].

وتضمن عقوبة الظالم المانع للحق، أو متعدي الحق، كما يعاقب الله مانع الزكاة وهو مناع الخير، وآكل الربا والميسر: الذي هو أكل المال بالباطل، وكل منهما أخبر الله في كتابه أنه يعاقبه بنقيض قصده، فهنا أخبر بعقوبة تارك الحقوق، وفي البقرة بعقوبة

(١) البخاري (٥/ ١٦٠)، ومسلم (١٦٢٢).

المرابي، وهذه العقوبة تتناول من يترك هذا الواجب، وفعل هذا المحرم من المحتالين، كما أخبر في هذه السورة، وكما هو المشاهد في أهل منع الحقوق المالية، والحيل الربوية، من العقوبات والمثلات.

فإنه سبحانه إذا أنعم على عبد بباب من الخير وأمره بالإنفاق فيه فبخل عاقبه بباب من الشر يذهب فيه أضعاف ما بخل به، وعقوبته في الآخرة مدخرة، ثم أتبع ذلك بعقوبة المتكبر الذي هو من نوع العتل الزنيم، الذي يدعى إلى السجود والطاعة فيأبى، ففيها عقوبة تارك الصلاة، وتارك الزكاة، فتارك الصلاة هو المعتدي الأثيم العتل الزنيم وتارك الزكاة الظالم البخيل.

وختمها بالأمر بالصبر الذي هو جماع الخلق العظيم في قوله: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [القلم: ٤٨] وذلك نص في الصبر على ما يناله من أذى الخلق وعلى المصائب السماوية والصبر على الأول أشد، وصاحب الحوت ذهب مغاضباً لربه لأجل الأمر السماوي ولهذا قال: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾ [القلم: ٥١] فآخرها منعطف على أول ما في قوله: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾﴾ [القلم] وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ [القلم: ٥١] والإزلاق بالبصر هو الغاية في البغض، والغضب، والأذى، فالصبر على ذلك نوع من الحلم، وهو احتمال أذى الخلق وفي ذلك ما يدفع كيدهم وشرهم.

وما ذكره في قصة أهل الجنة من أمر السخاء والجود، وما ذكره هنا من الحلم والصبر: هو جماع الخلق الحسن كما جمع بينهما في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [آل عمران: ١٣٤] كما قيل:

بحلم وبذل ساد في قومه الفتى ... وكونك إياه عليك يسير

فالإحسان إلى الناس بالمال والمنفعة واحتمال أذاهم، كالسخاء المحمود كما جمع بينهما في قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف] ففي أخذه العفو من أخلاقهم احتمال أذاهم وهو نوعان: ترك مالك من الحق عليهم فأخذ العفو أن لا تطلب ما تركوه من حقك وأن لا تنهاهم فيما تعدوا فيه الحد فيك)[1].

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾.

(وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ قال ابن عباس[2]، ومن وافقه

(١) مجموع الفتاوى (١٦/ ٦١ ـ ٧١). (٢) ابن جرير (٢٩/ ١٨).

كابن عيينة وأحمد بن حنبل: «على دين عظيم» والدين فعل ما أمر به.

وقالت عائشة: «كان خلقه القرآن» رواه مسلم[١] وقد أخبرت أنه لم يكن يعاقب لنفسه ولا ينتقم لنفسه لكن يعاقب لله وينتقم لله أخبرت أنه كان يعفو عن حظوظه[٢]) ا.هـ[٣].

﴿بِأَيِّيكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦﴾.

وقال رحمه الله: (قوله تعالى: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَيِّيكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦﴾ [القلم: ٥، ٦]، حار فيها كثير من الناس، والصواب فيها التفسير المأثور عن السلف: روى ابن أبي حاتم وغيره بالأسانيد الصحيحة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد[٤]: ﴿بِأَيِّيكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦﴾، قال: «الشيطان»، وفي رواية قال: «هو إبليس». وقال الحسن[٥]: «أيكم أولى بالشيطان. قال فهم أولى بالشيطان من نبي الله ﷺ».

فبين الحسن المعنى المراد وإن لم يتكلم على اللفظ كعادة السلف في اختصار الكلام مع البلاغة وفهم المعنى. وقال الضحاك[٦]: ﴿بِأَيِّيكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦﴾ قال: «المجنون، فإن من كان به الشيطان ففيه الجنون».

وذكر أبو الفرج[٧] عنهم أربعة أقوال:

«أحدها» قال: الضال قاله الحسن.

و«الثاني» الشيطان، قاله مجاهد.

و«الثالث» المجنون، قاله الضحاك، قال: والمعنى قد [فتن] بالجنون.

وكذلك رواه العوفي[٨] عن ابن عباس.

و«الرابع» المعذب، حكاه الماوردي[٩].

فهذا الرابع ليس مأثوراً عن السلف، وإنما المأثور ما قدمناه [عن السلف]: عن مجاهد، وعن الحسن، وعن الضحاك، وما ذكره عن الحسن: من أنه الضال، فهو لفظ

---

(١) مسلم (١٧٠) جزء من حديث طويل.

(٢) وهذا أيضاً ثابت بعدة روايات في مسلم وغيره.

(٣) جامع الرسائل (٢/ ١٣١ ـ ١٣٢، ٢١٨) والاستقامة (١/ ٤٤٣) ومجموع الفتاوى (١٠/ ١٢٧، ٥٠٣).

(٤) ابن جرير (٢٩/ ٢٠).

(٥) ابن المنذر كما في الدر المنثور.

(٦) ابن جرير (٢٩/ ٢٠).

(٧) زاد المسير (٨/ ٣٢٩).

(٨) ابن جرير (٢٩/ ٢٠).

(٩) النكت والعيون (٦/ ٢٨٥).

آخر عنه، وهو يوافق ما قدمناه، فإن الضال به المفتون الذي هو شيطان، وإنما ذكر الحسن لفظ الضال؛ لأنهم لم يريدوا بالمجنون الذي يخرق ثيابه، ويقذف بالحجارة، ويتكلم بالهذيان.

وهم إنما نسبوا الأنبياء إلى الجنون لمخالفتهم ما عليه أهل العقل في نظرهم، كما يقال: «ما لفلان عقل معيشي». فإن الأنبياء أتوا بخلاف ما يعرفونه، وهو عندهم يضر صاحبه في عقله ويفارق به دينه الذي هم [عليه]، وكما قال تعالى في آخر هذه السورة: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾﴾ [القلم]، وقد ذكر أنهم رموه بالجنون في غير موضع من كتابه، وكذلك الأنبياء قبله فرد الله ذلك على المشركين، وأخبر أنه ليس بمجنون، ثم قال: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَيِّىٰكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾﴾ أي أيكم هو المجنون الذي به المفتون، وهو الشيطان؟

وهذا الأمر قد رمي به أتباع الرسل [من] مثل هؤلاء. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾﴾ [المطففين]، ومثل هؤلاء في هذه الأمة كثير يسخرون من المؤمنين، ويضحكون منهم، ويرمونهم بالجنون والعظائم التي هم أولى بها منهم.

قال الحسن: «لقد رأيت رجالاً لو رأيتموهم لقلتم مجانين، ولو رأوكم لقالوا هؤلاء شياطين، ولو رأوا خياركم لقالوا هؤلاء قوم لا خلاق لهم، ولو رأوا شراركم لقالوا هؤلاء [قوم] لا يؤمنون بيوم الحساب»[1].

وهذا كثير في كلام السلف، يصفون أهل زمانهم وما هم عليه من مخالفة من تقدمهم من خيار هذه الأمة، فما الظن بأهل زماننا؟.

---

(١) وممن أخرجه بنحوه:
- علقمة بن مرثد في كتاب زهد الثمانية من التابعين، رواية ابن أبي حاتم (٦٤ ـ ٦٦).
- أبو نعيم في حلية الأولياء (٢/ ١٣٤).
وأورده الذهبي في سير أعلام النبلاء مختصراً (٤/ ٥٨٥) عن علقمة بن مرثد في ذكر الثمانية من التابعين.
وأورده كذلك في سير أعلام النبلاء (٦/ ٢٩٧) عن صدقة بن خالد، حدثنا زيد بن واقد، حدثني رجل من أهل البصرة، يقال له الحسن، قال: «لقد أدركت أقواماً، لو رأوا خياركم، لقالوا: ما لهم من خلاق، ولو رأوا شراركم، لقالوا: أما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب؟».

ويدل أيضاً على هذا المعنى في الآية أن في قراءة أبي بن كعب، والجوني، وابن أبي عبلة: «في أييكم المفتون»[١]، والشيطان مفتون بلا ريب.

والذين لم يفهموا هذا قالوا: الباء زائدة، كما قاله أبو عبيدة، وابن قتيبة، وأبو بكر، وكذلك نحاة البصرة والكوفة، ثم ذكروا قولين:

«أحدهما» أن المفتون مصدر، كما زعموا أن المعقور[٢]، والمعقود، والمجلود يكون مصدراً.

ومنهم من قال: ﴿بِأَيِّيكُمُ﴾ أي بأي الفريقين، [أي المجنون، أبالفريق الذي أنت فيهم أم بفريق الكفار؟»].

وهذه أقوال ضعيفة، وكون المفتون] بمعنى الفتنة لا أصل له في اللغة البتة، وجعل المصدر على زنة «مفعول» لو صح لم يكن قياساً. بل مقصوراً على السماع، كيف وفيما ذكروه كلام ليس هذا موضعه؟ وكذلك قول من يقول: «بأي الفريقين؟».

والمقصود أن جميع الكفار مفتونون بالشيطان، وفيهم الشيطان [المفتون]، ليس المقصود أن يعاب الفريق بواحد منهم.

(وقد كان بعض الكفار يقول: إن الذي يأتي محمداً شيطان لا مَلَكٌ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [التكوير]، وقال: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ [الشعراء])، (وقال فيمن كذب رسوله: ﴿لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [العلق]. فهذا الكاذب الفاجر هو الذي فيه الشيطان الذي إنما يقترن بكل أفاك أثيم).

وقال قوم صالح: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ [القمر: ٢٥] قال تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾ [القمر] وكذلك [قال] قوم نوح: ﴿إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ [هود] وهذا كثير) ا.هـ[٣].

﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾﴾.

(وكذلك قوله: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾﴾ تقديره ودوا أن تدهن، وقال بعضهم:

---

(١) هذه القراءة شاذة، وممن ذكرها، الكرماني ونسبها إلى ابن أبي عبلة، وأما ابن الجوزي فنسبها إلى أبي بن كعب، وأبي عمران، وابن أبي عبلة.

(٢) السيوطي ذكر هذا عن ابن أبي حاتم من زيد. (٣) تفسير آيات أشكلت (١/ ١٤٧ ـ ١٥٩).

بل هي لو شرطية وجوابها محذوف، والمعنى على التقديرين: معلوم، وهو محبة ذلك الفعل وإرادته، ومحبة الخير وإرادته محمود، والحزن والجزع وترك الصبر مذموم، والله أعلم) ا.هـ[1].

﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾.

(وقال في حق الكافر: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ أي له زنمة من الشر، أي علامة يعرف بها، وقد روي عن عثمان بن عفان ﷺ: «ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه») ا.هـ[2].

﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

(وقوله: ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ إلى قوله ﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا﴾ الآية [٣٢] قال أبو الفرج[3]: وفي قوله قادرين ثلاثة أقوال:

«أحدها»: قادرين على جنتهم عند أنفسهم، قاله قتادة[4] قلت: وهو قول مجاهد وقتادة[5] رواه ابن أبي حاتم عنهما، قال مجاهد: قادرين في أنفسهم، وهذا الذي ذكره البغوي[6]: قادرين عند أنفسهم على جنتهم وثمارها لا يحول بينهم وبينها أحد، وعن قتادة قال: غدا القوم وهم يحدون[7] إلى جنتهم قادرين على ذلك في أنفسهم[8].

قال أبو الفرج: **والثاني**: قادرين على المساكين، قاله الشعبي[9]: أي على منعهم، وقيل: على إعطائهم لكن البخل منعهم من الإعطاء والله أعلم.

والثالث: غدوا وهم قادرين: أي واجدين، قاله ابن قتيبة[10].

قلت: الآية وصفتهم بأنهم غدوا على حرد قادرين، فالحرد يرجع إلى القصد فغدوا بإرادة جازمة وقدرة ولكن الله أعجزهم، وقول من قال: قادرين عند أنفسهم: أي ظنوا أن الأمر يبقى كما كان، ولو كان كذلك لتمت قدرتهم، لكن سلبوا القدرة بإهلاك جنتهم.

قال البغوي: الحرد في اللغة يكون بمعنى القصد والمنع والغضب. قال الحسن

---

(١) مجموع الفتاوى (١٨/ ٤٢٩).
(٢) الجواب الصحيح (٦/ ٤٨٦ ـ ٤٨٧).
(٣) زاد المسير (٨/ ٣٣٨) إلى هنا القول الثاني.
(٤) إلى هنا القول الأول في زاد المسير (٨/ ٣٣٨).
(٥) ابن جرير (٢٩/ ٣٢).
(٦) البغوي (٤/ ٣٥٠).
(٧) في ابن جرير (محردون).
(٨) ابن جرير (٢٩/ ٣٢) وفيه.
(٩) زاد المسير (٨/ ٣٣٨) إلى هنا القول الثاني.
(١٠) زاد المسير (٨/ ٣٣٨).

وقتادة وأبو العالية: على جد وجهد. وقال القرطبي ومجاهد وعكرمة على أمر مجتمع قد أسسوه بينهم. قال: وهذا على معنى القصد؛ لأن القاصد إلى الشيء جاد مجمع على الأمر. وقال أبو عبيدة والقتيبي: غدوا من أنفسهم[١] [على حرد][٢] على منع المساكين، يقول[٣]: حاردت السنة إذا لم يكن لها مطر، وحاردت الناقة علي إذا لم يكن لها لبن وقال الشعبي وسفيان: على حنق وغضب من المساكين وفي [تفسير الوالبي][٤] عن ابن عباس: على قدرة[٥].

قلت: الحرد فيه معنى العزم الشديد؛ فإن هذا اللفظ يقتضي هذا وحرد السنة والناقة لما فيه من معنى الشدة وكذلك الحنق والغضب فيه شدة فكان لهم عزم شديد على أخذها وعلى حرمان المساكين، وغدوا بهذا العزم قادرين ليس هناك ما يعجزهم وما يمنعهم لكن جاءها أمر من السماء فأبطل ذلك كله، وقيل الحرد هو الغيظ والغضب، والله أعلم.

ونظير هذا وهو صريح في المطلوب أن القدرة تكون على الأعيان قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ إلى قوله ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ الآية [يونس: ٢٤]. وقوله: ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ [يونس: ٢٤] يبين أنه لولا الجائحة لكان ظنهم صادقاً، وكانوا قادرين عليها؛ لكن لما أتاها أمر الله تبين خطأ الظن ولو لم يكونوا قادرين عليها لا في حال سلامتها ولا في حال عطبها لم يكن الله أبطل ظنهم بما أحدثه من الإهلاك وهؤلاء لم يكونوا ذهبوا ليحصدوا بل سلبوا القدرة عليها ـ وهي القدرة التامة ـ فانتفت لانتفاء المحل القابل، لا لضعف من الفاعل وفي تلك قال: ﴿عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ﴾ ولم يقل قادرين عند أنفسهم، فإن كان كما قاله من قال عند أنفسهم فالمعنى واحد، وإن أريد بكونهم قادرين أي ليس في أنفسهم ما ينافي القدرة: كالمرض والضعف، ولكن بطل محل القدرة كالذي يقدر على النقد والرزق ولا شيء عنده) ا.هـ[٦].

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

(وقال تعالى عن أهل الجنة التي أصبحت كالصريم: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ

(١) في المطبوع (من بيتهم).
(٢) ما بين [] غير موجودة في المطبوع.
(٣) في المطبوع يقال.
(٤) ما بين [] غير موجودة في المطبوع.
(٥) البغوي (٤/ ٣٥٠).
(٦) مجموع الفتاوى (٨/ ١٣ ـ ١٥).

يَتَلَوَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ أي يلوم بعضهم بعضاً) ا.هـ[١].

﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

(وكذلك في سورة ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ﴾ ذكر قصة أهل البستان الذين منعوا حق أموالهم وما عاقبهم به ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾) ا.هـ[٢].

﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

(وأيضاً فقوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص] وقال: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية]، إلى غير ذلك.

فدل على أن التسوية بين هذين المختلفين من الحكم السيء الذي ينزه عنه، وأن ذلك منكر لا يجوز نسبته إلى الله تعالى، وأن من جوَّز ذلك فقد جوز منكراً لا يصلح أن يضاف إلى الله تعالى، فإن قوله: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ استفهام إنكار، فعلم أن جعل هؤلاء مثل هؤلاء منكر لا يجوز أن يظن بالله أنه يفعله، فلو كان هذا وضده بالنسبة إليه سواء جاز أن يفعل هذا وهذا) ا.هـ[٣].

وقال رحمه الله: (قال: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ وهذا استفهام إنكار على من ظن ذلك وهو يتضمن تقرير المخاطبين واعترافهم بأن هذا لا يجوز عليه وأن ذلك بين معروف يجب اعترافهم به وإقرارهم به كما يقال لمن ادعى أمراً ممتنعاً مثل نعم كثيرة في موضع صغير فيقال له: أههنا كانت هذه النعم أي هذا ممتنع فاعترف بالحق وإذا ادعى على من هو معروف بالصدق والأمانة أنه نقب داره وأخذ ماله قيل له: أهذا فعل هذا، ومنه قوله: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦] وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [سبأ] ونظائره كثيرة) ا.هـ[٤].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/١٢٨).
(٢) مجموع الفتاوى (٢٨/١٤١) الاستقامة (٢/٢٣٩).
(٣) منهاج السنة (٥/١٠٦ ـ ١٠٧).
(٤) النبوات (٢٣٣).

وقال رحمه الله: (وقوله: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ أي، هذا حكم جائر، لا عادل، فإن فيه تسوية بين المختلفين) ا.هـ[1].

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

(وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الأعراف] ومن الثاني قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ لم يقل يوم يكشف الساق وهذا يبين خطأ من قال المراد بهذه كشف الشدة وأن الشدة تسمى ساقاً، وأنه لو أريد ذلك لقيل يوم يكشف [عن الشدة] أو يكشف الشدة) ا.هـ[2].

وقال رحمه الله: (وقد ثبت في الصحاح[3] من غير وجه حديث تجلى الله لعباده في الموقف إذا قيل: «ليتبع كل قوم ما كانوا يعبدون؛ فيتبع المشركون آلهتهم ويبقى المؤمنون فيتجلى لهم الرب في غير الصورة التي يعرفون فينكرونه ثم يتجلى لهم في الصورة التي يعرفونها فيسجد له المؤمنون وتبقى ظهور المنافقين كقرون البقر يريدون السجود فلا يستطيعون» وذكر قوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ والكلام على هذه الأمور مبسوط في غير هذا الموضع، والله أعلم) ا.هـ[4].

وقال رحمه الله: (وكذلك من قال: تكليف العاجز واقع محتماً بقوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ فإنه يناقض هذا الإجماع ومضمون الإجماع نفي وقوع ذلك في الشريعة، و«أيضاً» فإن مثل هذا الخطاب إنما هو خطاب تعجيز على وجه العقوبة لهم لتركهم السجود وهم سالمون، يعاقبون على ترك العبادة في حال قدرتهم بأن أمروا بها حال عجزهم على سبيل العقوبة لهم، وخطاب العقوبة والجزاء من جنس خطاب التكوين لا يشترط فيه قدرة المخاطب إذ ليس المطلوب فعله، وإذا تبينت الأنواع والأقسام زال الاشتباه والابهام) ا.هـ[5].

وقال رحمه الله: (إن الله تعالى قال: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة: «أنه إذا تجلى لهم يوم القيامة سجد له المؤمنون، ومن كان يسجد في الدنيا رياء يصير ظهره مثل الطبق»[6].

---

(١) الرد على المنطقيين (٣٨٢ ـ ٣٨٣).
(٢) الاستغاثة (٢٨٧).
(٣) البخاري (٦/ ٥٦)، ومسلم (١/ ١١٢).
(٤) مجموع الفتاوى (٤/ ٣٠٤).
(٥) مجموع الفتاوى (٨/ ٣٠٢).
(٦) وهو الحديث السابق.

فقد أمروا بالسجود في عرصات القيامة، دون غيره من أجزاء الصلاة، فعلم أنه أفضل من غيره) ا.هـ[١].

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ وقد ثبت في الصحيح من غير وجه عن النبي ﷺ أنه قال: «يتجلى الله لعباده في الموقف إذا قيل: ليتبع كل قوم ما كانوا يعبدون، فيتبع المشركون آلهتهم ويبقى المؤمنون فيتجلى لهم الرب الحق في غير الصورة التي كانوا يعرفون فينكرونه ثم يتجلى لهم في الصورة التي يعرفون، فيسجد له المؤمنون، وتبقى ظهور المنافقين كقرون البقر فيريدون أن يسجدوا فلا يستطيعون وذلك قوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ الآية والكلام على هذه الأمور مبسوط في غير هذا الموضع») ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (وتمام هذا أني لم أجدهم تنازعوا إلا في مثل قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ فروي عن ابن عباس[٣] وطائفة أن المراد به الشدة إن الله يكشف عن الشدة في الآخرة، وعن أبي سعيد وطائفة أنهم عدوها في الصفات، للحديث الذي رواه أبو سعيد في الصحيحين[٤].

ولا ريب أن ظاهر القرآن [لا] يدل على أن هذه من الصفات فإنه قال: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ نكرة في الإثبات لم يضفها إلى الله ولم يقل عن ساقه فمع عدم التعريف بالإضافة لا يظهر أنه من الصفات إلا بدليل آخر، ومثل هذا ليس بتأويل، إنما التأويل صرف الآية عن مدلولها ومفهومها ومعناها المعروف، ولكن كثير من هؤلاء يجعلون اللفظ على ما ليس مدلولاً له، ثم يريدون صرفه عنه، ويجعلون هذا تأويلاً، وهذا خطأ من وجهين كما قدمناه غير مرة) ا.هـ[٥].

وقال رحمه الله: (نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ أنه قال: عن شدة، وثبت في الصحيحين من حديث أبي سعيد رضي الله عنه في حديثه الطويل الذي فيه تجلي الله تعالى لعباده يوم القيامة «وأنه يحتجب ثم يتجلى قال: فيكشف عن ساقه فينظرون إليه».

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٣/ ٧٦).
(٢) مجموع الفتاوى (٢٤/ ٣٧٣).
(٣) ابن جرير (٢٩/ ٣٨).
(٤) الذي مرّ تخريجه.
(٥) مجموع الفتاوى (٦/ ٣٩٤ ـ ٣٩٥).

والذي في القرآن (ساق) ليست مضافة، فلهذا وقع النزاع، هل هو من الصفات أم لا؟

قال شيخ الإسلام رحمه الله عليه: ولا أعلم خلافاً عن الصحابة في شيء مما يعد من الصفات المذكورة في القرآن إلا هذه الآية، لعدم الإضافة فيها، والذي يجعلها من الصفات يقول فيها كقوله في قوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] وقوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٧] ونحو ذلك فإنه مع الصفات تثبت ويجب تنزيه الرب تعالى عن التمثيل لأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]) ا.هـ[١].

﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

(قوله تعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ﴾، وقوله: ﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ﴾ [الشورى: ٤٥]، وهو الانخفاض والسكون) ا.هـ[٢].

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾﴾.

(والمقصود هنا قوله: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ فإن ما فعلوه من الأذى هو مما حكم به عليك قدراً، فاصبر لحكمه وإن كانوا ظالمين في ذلك، وهذا الصبر أعظم من الصبر على ما جرى وفعل بالأنبياء، وقوله: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾﴾) ا.هـ[٣].

وقال رحمه الله: (وقد نهى النبي ﷺ أن يفضِّل أحدٌ منا نفسه على يونس بن متى مع قوله: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ وقوله: ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصافات: ١٤٢] تنبيهاً على أن غيره أولى أن لا يفضل أحد نفسه عليه، ففي صحيح البخاري عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «لا يقولن أحدكم إني خير من يونس بن متى»[٤] وفي صحيح البخاري أيضاً عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ينبغي لعبد أن يكون خيراً من يونس بن متى»[٥] وفي لفظ: «أن يقول: أنا خير من يونس بن متى»[٦] وفي البخاري أيضاً عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «من قال أنا خير من يونس بن متى فقد كذب»[٧] وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي (أنه قال ـ يعني رسول الله ـ «لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير

---

(١) مختصر الفتاوى المصرية (٢٠١ ـ ٢٠٢).
(٢) تفسير آيات أشكلت (١/ ٤٢٧).
(٣) مجموع الفتاوى (٨/ ٣٢٦).
(٤) مرّ تخريجه.
(٥) مرّ تخريجه.
(٦) مرّ تخريجه.
(٧) مرّ تخريجه.

من يونس بن متى»[١] وفي الصحيحين عن ابن عباس عن النبي ﷺ وفي لفظ: فيما يرويه عن ربه: «لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى»[٢] وهذا فيه نهي عام.

وأما ما يرويه بعض الناس أنه قال: «لا تفضلوني على يونس بن متى» ويفسره باستواء حال صاحب المعراج، وحال صاحب الحوت فنقل باطل وتفسير باطل، وقد قال النبي ﷺ: «اثبت أحد فما عليك إلا نبي أو صِدِّيق أو شهيد»[٣] وأبو بكر أفضل الصديقين) ا.هـ[٤].

وفي قصة صاحب الحوت يونس عليه الصلاة والسلام قال:

(والمقصود هنا أن ما تضمنته قصة «ذي النون» مما يلام عليه كله مغفور، بَدَّلَهُ الله به حسنات ورفع درجاته وكان بعد خروجه من بطن الحوت وتوبته أعظم درجة منه قبل أن يقع ما وقع، قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾ وهذا بخلاف حال التقام الحوت فإنه قال: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾ [الصافات: ١٤٢] فأخبر أنه في تلك الحال مليم و(المليم) الذي فعل ما يلام عليه فالملام في تلك الحال لا في حال نبذه بالعراء وهو سقيم فكانت حاله بعد قوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] أرفع من حاله قبل أن يكون ما كان، والاعتبار بكمال النهاية لا بما جرى في البداية، والأعمال بخواتيمها) ا.هـ[٥].

---

(١) مرّ تخريجه.
(٢) مرّ تخريجه.
(٣) البخاري (٣٦٨٦).
(٤) مجموع الفتاوى (٢/ ٢٢٣ ـ ٢٢٤).
(٥) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٩٩).

سورة الحاقة

وقال في عموم سورة الحاقة:

(وكذلك في (سورة الحاقة) ذكر قصص الأمم كثمود وعاد وفرعون ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾﴾ [الحاقة]؛ إلى تمام ما ذكره من أمر الجنة والنار) ا.هـ[1].

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾.

(وكذلك عاد لما أهلكهم أرسل الريح الصرصر سبع ليال وثمانية أيام حسوماً كما قال تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾) ا.هـ[2].

وقال راداً على الرافضة:

﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾.

(أن قوله: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِي ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ لم يرد به أذن واحد من الناس فقط، فإن هذا خطاب لبني آدم.

وحملهم في السفينة من أعظم الآيات، قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [يس]) ا.هـ[3].

وقال راداً على قول الرافضي:

(وفيه[4] نزل قوله تعالى: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾، والجواب: أنه حديث موضوع[5]

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ١٤٠ ـ ١٤١).
(٢) الجواب الصحيح (٦/ ٤٠٢ ـ ٤٠٣).
(٣) منهاج السنة (٧/ ١٧١).
(٤) أي في علي بن أبي طالب رضي الله عنه.
(٥) الحديث رواه أبو نعيم في الحلية (١/ ٦٧)، والطبري (٢٩/ ٢٦) وابن المغازلي (٣١٢)، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير، والحديث ضعفه أهل العلم ومنه من حكم عليه بالوضع، وذكره ابن تيمية في مقدمة في أصول التفسير مثالاً لما في كتب التفسير من الموضوعات، راجع الفتاوى (١٣/ ٣٥٤).

باتفاق أهل العلم، ومعلوم بالاضطرار أن الله تعالى لم يرد بذلك أن لا تعيها إلا أذن واعية واحدة من الآذان ولا أذن شخص معين لكن المقصود النوع فيدخل في ذلك كل أذن واعية) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (قال الرافضي: «البرهان العشرون: قوله تعالى: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ في تفسير الثعلبي، قال رسول الله ﷺ: سألت الله ﷻ أن يجعلها أذنك يا علي. ومن طريق أبي نعيم، قال: قال رسول الله ﷺ: [يا علي] إن الله أمرني أن أُدنيك وأعلمك، يا علي إن الله أمرني أن أدنيك وأعلمك لتعي، وأنزلت علي هذه الآية ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ فأنت أذن واعية وهذه الفضيلة لم تحصل لغيره، فيكون هو الإمام».

والجواب من وجوه: أحدها: بيان صحة الإسناد. والثعلبي وأبو نعيم يرويان ما لا يحتج به بالإجماع.

الثاني: أن هذا موضوع باتفاق أهل العلم.

الثالث: أن قوله: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ لم يرد به أذن واحد من الناس فقط، فإن هذا خطاب لبني آدم.

وحملهم في السفينة من أعظم الآيات. قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [يس] وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾ [لقمان] فكيف يكون ذلك كله ليعي ذلك واحد من الناس؟.

نعم أذن عليّ من الآذان الواعية، كأذن أبي بكر وعمر وعثمان وغيرهم. وحينئذ فلا اختصاص لعلي بذلك. وهذا مما يعلم بالاضطرار: أن الآذان الواعية ليست أذن علي وحدها. أترى أذن رسول الله ﷺ ليست واعية؟ ولا أذن الحسن والحسين وعمار وأبي ذر والمقداد وسلمان الفارسي وسهل بن حنيف وغيرهم ممن يوافقون على فضيلتهم وإيمانهم؟ وإذا كانت الأذن الواعية له ولغيره، لم يجز أن يقال: هذه الأفضلية لم تحصل لغيره) ا.هـ[2].

﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾.

(وقوله: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ يوجب أن لله عرشاً يحمل ويوجب أن

---

(١) منهاج السنة (٧/ ٥٢٢).
(٢) منهاج السنة (٧/ ١٧٠ ـ ١٧٣).

ذلك العرش ليس هو الملك كما تقوله طائفة من الجهمية فإن الملك هو مجموع الخلق فهنا دلت الآية على أن لله ملائكة من جملة خلقه يحملون عرشه وآخرون يكونون حوله وعلى أنه يوم القيامة يحمله ثمانية: إما ثمانية أملاك وإما ثمانية أصناف وصفوف وهذا إلى مذهب المثبتة أقرب منه إلى قول النافية بلا ريب) ا.هـ[١].

وقال رحمه الله: (إن إضافة العرش مخصوصة إلى الله؛ لقوله: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ يقتضي أنه مضاف إلى الله إضافة تخصه كما في سائر المضافات إلى الله كقوله بيت الله، وناقة الله، ونحو ذلك. وإذا كان العرش مضافاً إلى الله في هذه الآية إضافة اختصاص، وذلك يوجب أن يكون بينه وبين الله من النسبة ما ليس لغيره، فما يذكره الجهمية من الاستيلاء والقدرة وغير ذلك أمر مشترك بين العرش وسائر المخلوقات وهذه الآية التي احتج بها تنفي أن يكون الثابت من الإضافة هو القدر المشترك، وتوجب اختصاصاً للعرش بالله ليس لغيره كقوله: ﴿عَرْشَ رَبِّكَ﴾ وهذا إنما يدل على قول المثبتة، أو هو إلى الدلالة عليه أقرب وأيهما كان فقد دلت الآية على نقيض مطلوبه، وهو الذي ألزمناه، فلم يذكر آية من كتاب الله على مطلوبه إلا وهي لا دلالة فيها؛ بل دلالتها على نقيض مطلوبه أقوى) ا.هـ[٢].

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾﴾.

(وفي الصحيحين عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «يدنو أحدكم من ربه، حتى يضع كنفه عليه، فيقول: عملت كذا وكذا؟ فيقول: نعم يا رب، فيقرره، ثم يقول: قد سترت عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، قال: ثم يعطي كتاب حسناته وهو قوله: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ وأما الكفار والمنافقون فينادون: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم، ألا لعنة الله على الظالمين»[٣]) ا.هـ[٤].

وقال رحمه الله: (وفي الصحيحين عن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «ليدنو أحدكم من ربه حتى ليقفه عليه فيقول: عملت كذا وكذا فيقول: نعم يا رب فيقرره ثم يقول: قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ثم يعطى كتاب حسناته وهو قوله تعالى: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ وأما الكافر والمنافق فينادَوْن: هؤلاء الذين كذبوا على

---

(١) بيان تلبيس الجهمية (١/ ٥٧٦).
(٢) بيان تلبيس الجهمية (١/ ٥٧٦ ـ ٥٧٧).
(٣) البخاري (٦٠٧٠)، ومسلم (٢٧٦٨).
(٤) درء تعارض العقل (٢/ ١٤٣).

ربهم ألا لعنة الله على الظالمين» فأخبر ﷺ أنه سبحانه يقول قولاً ثم يقول العبد ثم يقول الرب تعالى قولاً آخر، وهذا الأصل العظيم دلت عليه الكتب المنزلة من الله القرآن والتوراة والإنجيل وكان عليه سلف الأمة وأئمتها بل وعليه جماهير العقلاء وأكابرهم من جميع الطوائف حتى من الفلاسفة) ا.هـ[1].

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾.

(وثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «لن يدخل الجنة أحد بعمله قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»[2] وهذا لا ينافي قوله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ فإن الرسول نفى باء المقابلة والمعادلة والقرآن أثبت باء السبب) ا.هـ[3].

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾﴾.

(وعن الفراء في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾﴾ وذلك أن القضاء هو الإكمال والإتمام، والأمر المقتضي هو الذي قد مضى وفرغ) ا.هـ[4].

﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾.

(الحرص إنما ذم لأنه يفسد الدين الذي هو الإيمان والعمل الصالح، فكان ترك هذا الحرص لصالح العمل، وهذان هما المذكوران في قوله تعالى: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾﴾ وهما اللذان ذكرهما الله في سورة القصص حيث افتتحها بأمر فرعون، وذكر علوه في الأرض، وهو الرياسة والشرف والسلطان، ثم ذكر في آخرها قارون وما أوتيه من الأموال، وذكر عاقبة سلطان هذا وعاقبة مال هذا، ثم قال: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣] كحال فرعون وقارون فإن جمع الأموال من غير إنفاقها في مواضعها المأمور بها وأخذها من غير وجهها هو من نوع الفساد) ا.هـ[5].

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

---

(١) الفتاوى (شرح الأصفهانية) (٥/ ٤٢).
(٢) مرّ تخريجه.
(٣) مجموع الفتاوى (١١/ ٢٥٦).
(٤) الرد على من قال بفناء النار (٧٣).
(٥) مجموع الفتاوى (٢٠/ ١٤٣).

(وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾ فهذا قد ذكره في موضعين فقال في الحاقة: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ فالرسول هنا محمد ﷺ وقال في التكوير: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾ [التكوير] فالرسول هنا جبريل فأضافه إلى الرسول من البشر تارة، باسم الرسول، ولم يقل: إنه لقول ملك ولا نبي، لأن لفظ الرسول يبين أنه مبلغ عن غيره لا منشئ له من عنده ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤] فكان قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾ [الحاقة] بمنزلة قوله لتبليغ رسول، أو مبلغ من رسول كريم، أو جاء به رسول كريم، أو مسموع عن رسول كريم؛ وليس معناه أنه أنشأه أو أحدثه أو أنشأ شيئاً منه أو أحدثه رسول كريم إذ لو كان منشأً لم يكن رسولاً فيما أنشأه وابتدأه وإنما يكون رسولاً فيما بلغه وأداه، ومعلوم أن الضمير عائد إلى القرآن مطلقاً.

و(أيضاً) فلو كان أحد الرسولين أنشأ حروفه ونظمه امتنع أن يكون الرسول الآخر هو المنشئ المؤلف لها، فبطل أن تكون إضافته إلى الرسول لأجل إحداث لفظه ونظمه ولو جاز أن تكون الإضافة هنا لأجل إحداث الرسول له أو لشيء منه لجاز أن نقول أنه قول البشر، وهذا قول الوحيد الذي أصلاه الله سقر.

فإن قال قائل: فالوحيد جعل الجميع قول البشر، ونحن نقول إن الكلام العربي قول البشر، وأما معناه فهو كلام الله.

فيقال لهم: هذا نصف قول الوحيد، ثم هذا باطل من وجوه أخرى.

وهو أن معاني هذا النظم معان متعددة متنوعة، وأنتم تجعلون ذلك المعنى معنى واحداً هو الأمر والنهي والخبر والاستخبار وتجعلون ذلك المعنى إذا عبر عنه بالعربية كان قرآناً، وإذا عبر عنه بالعبرانية كان توراة، وإذا عبر عنه بالسريانية كان إنجيلاً، وهذا مما يعلم بطلانه بالضرورة من العقل والدين؛ فإن التوراة إذا عربناها لم يكن معناها معنى القرآن والقرآن إذا ترجمناه بالعبرانية لم يكن معناه معنى التوراة.

وأيضاً فإن معنى آية الكرسي ليس هو معنى آية الدين وإنما يشتركان في مسمى الكلام، ومسمى كلام الله، كما تشترك الأعيان في مسمى النوع، فهذا الكلام وهذا الكلام وهذا الكلام كله يشترك في أنه كلام الله اشتراك الأشخاص في أنواعها، كما أن

الإنسان وهذا الإنسان يشتركون في مسمى الإنسان وليس في الخارج شخص بعينه هو هذا وهذا وهذا، وكذلك ليس في الخارج كلام واحد هو معنى التوراة والإنجيل والقرآن وهو معنى آية الدين وآية الكرسي) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (فإن قيل: فقد قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾ وهذا يدل على أن الرسول أحدث الكلام العربي قيل: هذا باطل؛ وذلك لأن الله ذكر هذا في القرآن في موضعين، والرسول في أحد الموضعين محمد، والرسول في الآية الأخرى جبريل. قال تعالى في سورة الحاقة: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾ فالرسول هنا محمد ﷺ وقال في سورة التكوير: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [التكوير] فالرسول هنا جبريل فلو كان أضافه إلى الرسول لكونه أحدث حروفه أو أحدث منه شيئاً لكان الخبران متناقضين، فإنه إن كان أحدهما هو الذي أحدثها امتنع أن يكون الآخر هو الذي أحدثها.

وأيضاً فإنه قال: ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ ولم يقل: لقول ملك ولا نبي، ولفظ «الرسول» يستلزم مرسلاً له، فدل ذلك على أن الرسول مبلغ له عن مرسله؛ لا أنه أنشأ منه شيئاً من جهة نفسه. وهذا يدل على أنه أضافه إلى الرسول، لأنه بلغه وأداه، لا لأنه أنشأ منه شيئاً وابتداه.

وأيضاً فإن الله قد كَفَّرَ من جعله قول البشر، بقوله: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ [المدثر] ومحمد بشر فمن قال: إنه قول محمد فقد كفر، ولا فرق بين أن يقول: هو قول بشر أو جني أو ملك، فمن جعله قولاً لأحد من هؤلاء فقد كفر، ومع هذا فقد قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ فجعله قول الرسول البشري مع تكفيره من يقول إنه قول البشر، فعلم أن المراد بذلك أن الرسول بلغه عن مرسله، لا أنه قول له من تلقاء نفسه، وهو كلام الله الذي أرسله كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] فالذي بلغه الرسول هو كلام الله لا كلام الرسول) ا.هـ[2].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٢/ ٢٦٥ ـ ٢٦٧).
(٢) مجموع الفتاوى (١٥/ ١٣٥ ـ ١٣٦).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾ وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾﴾ [الشعراء] إلى آخر السورة.

فذكر في هذه السورة علامة الكهان الكاذبين، والشعراء الغاوين، ونزهه عن هذين الصنفين، كما في سورة الحاقة) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (وربما استدل بعضهم بأنه مضاف إلى الرسول فيكون هو أحدث حروفه ولم يتأمل هذا القائل فيرى أنه أضافه تارة إلى رسول هو جبريل، وتارة إلى رسول هو محمد بقوله في الآية الأولى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [التكوير] فهذا جبريل وقال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ وهذا محمد فلو كانت إضافته إليه لأنه ابتدأ حروفه؛ وأحدثها لم يصلح أن يضاف إلى كل منهما؛ لامتناع أن يكون كل منهما هو أحدث حروفه ولأنه قال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ وهذا إخبار عن القرآن الذي هو بالمعنى أحق عندهم وعند أهل السنة أيضاً فلو كان الرسول ابتدأه لكان القرآن من عنده لا من عند الله، وإنما أضافه الله إلى الرسول لأنه بلغه وأداه وجاء به من عند الله، ولهذا قال: ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ ولم يقل لقول ملك ولا نبي بل جاء باسم الرسول ليتبين أنه واسطة فيه وسفير، والكلام كلام لمن اتصف به مبتدئاً منشأً، لا لمن تكلم به مبلغاً مؤدياً، كما يقال مثل ذلك في جميع كلام الناس فكيف بكلام الله؟ وهذا على القول المشهور في التفسير المطابق لظاهر القرآن: أن الرسول في أحد الموضعين محمد ﷺ، وفي الآخر جبريل عليه السلام) ا.هـ[2].

وقال رحمه الله: مبيناً أنه عنى بالرسول (رسول الله وليس جبريل):

وقال رحمه الله: (وقال في سورة الحاقة: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ فهذا محمد كما يدل عليه الكلام كله،

---

(١) مجموع الفتاوى (٢/ ١٣٦ ـ ١٣٧).
(٢) مجموع الفتاوى (١٢/ ٣٧٧ ـ ٣٧٨).

وهذا قول عامة العلماء. وقد غلط بعض من شذ فزعم أن جبريل غلط، كما غلط من هو أعظم غلطاً منه فزعم أن التي في التكوير في محمد ﷺ، وهو ﷻ إنما أضافه إلى هذا تارة وإلى هذا تارة بلفظ الرسول ﷺ ليبين أنه قول رسول بلغه عن مرسله، لم يحدث منه شيئاً من تلقاء نفسه) ا.هـ[1].

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

(وقد قيل آية الحاقة وآية الشورى[2] تبين أنه لو افترى عليه لعاقبه، فهذه سنته في الكاذبين. وحقيقة الاستدلال بسنته وعادته هو اعتبار الشيء بنظيره وهو التسوية بين المتماثلين والتفريق بين المختلفين وهو الاعتبار المأمور به في القرآن كقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران]) ا.هـ[3].

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ﴾ [الشورى: ٢٤] فأخبر: أنه بتقدير الافتراء لا بد أن يعاقب من افترى عليه) ا.هـ[4].

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ ليبين سبحانه أنه ينتقم ممن يكذب في الرسالة كائناً من كان، وأنه لو قدر أنه غَيَّر الرسالة لانتقم منه، والمقصود نفي هذا التقدير لانتفاء لازمه) ا.هـ[5].

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٦﴾﴾.

(فإن الذكر مأمور به فيهما بقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٦﴾﴾ و﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ [الأعلى] قال النبي ﷺ: «اجعلوها في ركوعكم» والثانية: «اجعلوها في سجودكم»[6]) ا.هـ[7].

---

(١) الرد على الأخنائي (٢٠٩).
(٢) آية الشورى هي (٢٤).
(٣) النبوات (٢٤٩).
(٤) مجموع الفتاوى (١٤/ ٢٦٩ ـ ٢٧٠).
(٥) الاستغاثة (٢/ ٤٦٤ ـ المحقق).
(٦) مرّ تخريجه.
(٧) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٣٧٨).

وقال رحمه الله: (فعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: «لما نزلت ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾ قال رسول الله ﷺ: اجعلوها في ركوعكم ولما نزلت: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ [الأعلى] قال: اجعلوها في سجودكم» رواه أبو داود وابن ماجه فأمر النبي ﷺ بجعل هذين التسبيحين في الركوع والسجود، وأمره على الوجوب، وذلك يقتضي وجوب ركوع وسجود تبعاً لهذا التسبيح، وذلك هو الطمأنينة) ا.هـ[1].

(١) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٥٥٠).

سورة المعارج

وقال في نزول سورة المعارج:

(وأيضاً فإن هذه السورة ـ سورة سأل سائل ـ مكية باتفاق أهل العلم، نزلت بمكة قبل الهجرة فهذه نزلت قبل غدير خم بعشر سنين أو أكثر من ذلك، فكيف [تكون] نزلت بعده؟) ا.هـ[1].

﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾.

(وقد قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾ قال الجوهري: الهلع أفحش الجزع، وقال غيره: هو في اللغة أشد الحرص وأسوأ الجزع ومنه قول النبي ﷺ: «شر ما في المرء شح هالع وجبن خالع»[2] وناقة هلوع إذا كانت سريعة السير خفيفة، وذئب هلع بلع، والهلع من الحرص، والبلع من الابتلاع، ولهذا كان كلام السلف في تفسيره يتضمن هذه المعاني. فروي عن ابن عباس[3] قال: هو الذي إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً وروي عنه أنه قال: هو الحريص[4] على ما لا يحل له، وعن سعيد بن جبير: شحيحاً[5] وعن عكرمة: ضجوراً[6] وعن جعفر[7]: حريصاً. وعن الحسن والضحاك: بخيلاً[8] وعن مجاهد: شرها[9] وعن الضحاك[10] أيضاً: الهلوع الذي لا يشبع وعن مقاتل[11]: ضيق القلب

---

(١) منهاج السنة (٧/ ٤٥) والكلام رداً على الروافض.

(٢) مرّ تخريجه.

(٣) ذكره صاحب الدر (٦/ ٢٦٥) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة أنه سأل ابن عباس والحقيقة أني لم أجده عند ابن جرير.

(٤) ابن جرير (٢٩/ ٨٠).

(٥) ابن جرير (٢٩/ ٨٠).

(٦) البغوي (٤/ ٣٦٣) زاد المسير (٨/ ٣٦٣).

(٧) لم أجده.

(٨) البغوي (٤/ ٣٦٣) زاد المسير (٨/ ٣٦٣).

(٩) زاد المسير (٨/ ٣٦٣).

(١٠) ابن المنذر كما في الدر (٦/ ٢٦٦).

(١١) البغوي (٤/ ٣٦٣).

وعن عطاء[١]: عجولاً وهذه المعاني كلها تنافي الثبات والقوة والاجتماع والإمساك والصبر وقد قال تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة: ١١٠] وهذا وإن كان قد قيل إن المراد به أنها تنصدع فيموتون، فإنه كما قيل في مثل ذلك: قد انصدع قلبه وقد تفرق قلبي، وقد تشتت قلبي، وقد تَقَسَّم قلبي، ومنه يقال للخوف: قد فرق قلبه، ويقال بإزاء ذلك: هو ثابت القلب، مجتمع القلب، مجموع القلب) ا.هـ[٢].

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾﴾.

(فإن الله ﷻ ذم عموم الإنسان واستثنى (إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون) قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾، والسلف من الصحابة ومن بعدهم قد فسروا الدائم على الصلاة بالمحافظ على أوقاتها وبالدائم على أفعالها بالإقبال عليها، والآية تعم هذا وهذا فإنه قال: ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ والدائم على الفعل هو المديم له الذي يفعله دائماً فإذا كان هذا فيما يفعل في الأوقات المتفرقة: هو أن يفعله كل يوم، بحيث لا يفعله تارة ويتركه أخرى وسمى ذلك دواماً عليه فالدوام على الفعل الواحد المتصل أولى أن يكون دواماً وأن تتناول الآية ذلك وذلك يدل على وجوب إدامة أفعالها؛ لأن الله ﷻ ذم عموم الإنسان واستثنى المداوم على هذه الصفة فتارك إدامة أفعالها يكون مذموماً من الشارع، والشارع لا يذم إلا على ترك واجب أو فعل محرم.

وأيضاً: فإنه ﷻ قال: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ فدل ذلك على أن المصلي قد يكون دائماً على صلاته، وقد لا يكون دائماً عليها، وأن المصلي الذي ليس بدائم مذموم. وهذا يوجب ذم من لا يديم أفعالها المتصلة والمنفصلة. وإذا وجب دوام أفعالها فذلك هو نفس الطمأنينة فإنه يدل على وجوب إدامة الركوع والسجود وغيرهما ولو كان المجزئ أقل مما ذكر من الخفض وهو نقر الغراب لم يكن ذلك دواماً ولم يجب الدوام على الركوع والسجود وهما أصل أفعال الصلاة) ا.هـ[٣].

---

(١) لم أجده.

(٢) مجموع الفتاوى (١٧/ ٢٣٣ ـ ٢٣٤).

(٣) القواعد النورانية (٦٣ ـ ٦٤).

وقال رحمه الله: (وروى أبو بكر بن المنذر في تفسيره من حديث أبي عبد الرحمن عن عبد الله قال: «قيل لعبد الله: إن الله أكثر ذكر الصلاة في القرآن: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ و﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ [المؤمنون] و﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾﴾ فقال عبد الله: ذلك على مواقيتها فقالوا: ما كنا نرى ذلك يا أبا عبد الرحمن إلا الترك قال: تركها كفر» وروى سعيد بن منصور، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش عن مسلم عن مسروق: «في قول الله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾﴾ قال: على مواقيتها فقالوا: ما كنا نرى ذلك يا أبا عبد الرحمن، إلا الترك قال: تركها كفر» وروي من حديث سعيد بن أبي مريم «﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾ [الماعون] بتضييع ميقاتها» وروي عن أبي ثور عن ابن جريج في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾﴾ المكتوبة والتي في سأل سائل: التطوع. وهذا قول ضعيف) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (فكل بني آدم ظلوم جهول إلّا من تاب الله عليه قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ الآيات وقد وصف الله الإنسان بأنه ﴿لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ١٠] ﴿لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾ [هود: ٩] و﴿لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦] و﴿لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤] جبار إلى غير ذلك مما يدل على أنه لا بد أن تقع منه الذنوب) ا.هـ[2].

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

(وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ في سورتي المؤمنون والمعارج، وهذا من صفة المستثنين من الهلع المذموم بقوله: ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ وهذا يقتضي وجوب ذلك لأنه لم يستثن من المذموم إلا من

---

(١) كل الكتب التي ذكرها شيخ الإسلام هي في عداد المخطوط والمفقود ولكن ثبت ذلك عن ابن مسعود من غير وجه كما في ابن كثير (٤/ ٤٢١) والدر المنثور (٦/ ٢١٦) والنص هذا في القواعد النورانية (٧٧).

(٢) نظرية العقد (٣٤).

اتصف بجميع ذلك ولهذا لم يذكر فيها إلا ما هو واجب) ا.هـ[١].

﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

(وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ وفي القراءة الأخرى[٢] (خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ) وفي هاتين الآيتين وصف أجسادهم بالحركة السريعة حيث لم يصف بالخشوع إلا أبصارهم بخلاف آية الصلاة) ا.هـ[٣].

(١) مجموع الفتاوى (٢٩/ ١٤١ ـ ١٤٢).
(٢) لم أجد هذه القراءة ولا في موسوعة القراءات.
(٣) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٥٥٧).

سورة نوح

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١﴾.

(وقال: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ٣ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾ فدل على أنها كانت ذنوباً قبل إنذاره إياهم) ا.هـ[1].

﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ٣﴾.

(قال نوح عليه السلام: ﴿إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ٣﴾ فجعل العبادة والتقوى لله وحده وجعل الطاعة للرسول؛ فإنه من يطع الرسول فقد أطاع الله) ا.هـ[2].

﴿وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ١٦﴾.

(وقد قال بعضهم: إن الأفلاك غير السموات لكن رد عليه غيره هذا القول بأن الله تعالى قال: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ١٥ وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ١٦﴾ فأخبر أنه جعل القمر فيهن، وقد أخبر أنه في الفلك وليس هذا موضع بسط الكلام في هذا) ا.هـ[3].

﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ٢٣﴾.

وقال رحمه الله: (وأما القبور فقد ورد نهيه ﷺ عن اتخاذها مساجد ولعن من يفعل ذلك وقد ذكره غير واحد من الصحابة والتابعين، كما ذكره البخاري في صحيحه، والطبراني، وغيره في تفاسيرهم، وذكره وثيمة وغيره في «قصص الأنبياء» في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ٢٣﴾ قالوا: هذه أسماء قوم صالحين كانوا من قوم نوح، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم طال عليهم

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/٦٧٩).
(٢) مجموع الفتاوى (٣/١٠٨).
(٣) مجموع الفتاوى (٦/٥٥٧).

الأمد فاتخذوا تماثيلهم أصناماً؟ وكان العكوف على القبور والتمسح بها وتقبيلها والدعاء عندها وفيها ونحو ذلك هو أصل الشرك وعبادة الأوثان، ولهذا قال النبي ﷺ: «اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبد»[(١)] ا.هـ[(٢)].

وقال رحمه الله: (قال الله تعالى عن قوم نوح: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾ قال ابن عباس وغيره: هؤلاء قوم صالحون كانوا في قوم نوح، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم فعبدوهم، وهذا مشهور في كتب التفسير والحديث وغيرها كالبخاري وغيره، وهذه أبطلها النبي ﷺ وحسم مادتها وسد ذريعتها، حتى لعن من اتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد يصلى فيها وإن كان المصلي فيها لا يستشفع بهم، ونهى عن الصلاة إلى القبور وأرسل علي ابن أبي طالب فأمره أن لا يدع قبراً مشرفاً إلا سواه، ولا تمثالاً إلا طمسه ومحاه ولعن المصورين وعن أبي الهياج الأسدي: قال لي علي بن أبي طالب: «لأبعثك على ما بعثني رسول الله ﷺ ألا تدع تمثالاً إلا طمسته ولا قبراً مشرفاً إلا سويته» وفي لفظ: «ولا صورة إلا طمستها»[(٣)] أخرجه مسلم) ا.هـ[(٤)].

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾ وهذه أسماء قوم صالحين كانوا في قوم نوح فلما ماتوا جعلوا الأصنام على صورهم ثم ذهبت هذه الأصنام لما أغرق الله أهل الأرض ثم صارت إلى العرب كما ذكر ذلك ابن عباس وغيره إن لم تكن أعيانها وإلا فهي نظائرها) ا.هـ[(٥)].

وقال رحمه الله: (فإن الله قال في كتابه عن قوم نوح: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾.

وقد روى البخاري في صحيحه بإسناده عن ابن عباس قال: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب تعبد؛ أما (وُدّ): فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما (سواع) فكانت لهذيل، وأما (يغوث) فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ، وأما (يعوق) فكانت لهمدان، وأما (نسر): فكانت لحمير لآل ذي الكلاع وكانت أسماء

---

(١) مالك (٨٨)، أحمد (٢/ ٢٤٦) والحديث صحيح.
(٢) مجموع الفتاوى (٢٧/ ٧٨ ـ ٧٩).
(٣) البخاري (٣١١٣)، ومسلم (٢٧٢٧).
(٤) مجموع الفتاوى (١/ ١٥١ ـ ١٥٢).
(٥) مجموع الفتاوى (١/ ١٦٧، ٣٢١) (١٤/ ٣٦٣)، جامع المسائل (٤/ ١٦٥).

رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا: أوحى الشيطان إلى قومهم: أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً، وسموها بأسمائهم، ففعلوا ولم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عبدت.

وقد ذكر قريباً من هذا المعنى طوائف من السلف، في «كتب التفسير» و«قصص الأنبياء» وغيرها: أن هؤلاء كانوا قوماً صالحين ثم منهم من ذكر أنهم كانوا يعكفون على قبورهم ثم صوَّروا تماثيلهم، ومنهم من ذكر أنهم كانوا يصحبون تماثيلهم معهم في السفر يدعون عندها ولا يعبدونها ثم بعد ذلك: عبدت الأوثان) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (وقد قال الله تعالى في كتابه عن المشركين من قوم نوح عليه السلام: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ قال ابن عباس وغيره من السلف: هؤلاء قوم كانوا صالحين من قوم نوح، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم، فعبدوهم فكان هذا مبدأ عبادة الأوثان، فنهى النبي ﷺ عن اتخاذ القبور مساجد ليسد باب الشرك، كما نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس ووقت غروبها؛ لأن المشركين يسجدون للشمس حينئذ، والشيطان يقارنها وقت الطلوع ووقت الغروب، فتكون في الصلاة حينئذ مشابهة لصلاة المشركين، فسد هذا الباب) ا.هـ[2].

﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾﴾.

(قلت: يقال في العمد: خطأ كما يقال في غير العمد على قراءة ابن عامر، فيقال لغير المتعمد: أخطأت كما يقال له: خطيت، ولفظ الخطيئة من هذا، ومنه قوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟﴾ وقول السحرة: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الشعراء]) ا.هـ[3].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٧/ ٤٥٤ ـ ٤٥٥) (٢٧/ ١٥٦ ـ ١٥٧) (٢٧/ ٢٢٣ ـ ٢٢٤).

(٢) مجموع الفتاوى (١١/ ٢٩٢).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٠/ ٢١).

سورة الجن

قال في عموم سورة الجن:

(ومن آياته الظاهرة التي في القرآن ما ذكره من أن السماء ملئت حرساً شديداً وشهباً، بخلاف ما كانت العادة جارية به قال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝٢﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾ [الجن].

وقال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ۝٢١٠ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٢١١ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ۝٢١٢﴾ [الشعراء].

وهذا كان النبي ﷺ يقرؤه على الناس، وهم يقرءونه، ولم ينكره أحد، ولا ارتاب به مؤمن، ولا احتج به عليه كافر فدل أن الناس علموا صدق ما أخبرت به الجن، من أن السماء ملئت حرساً شديداً وشهباً وأنهم لم يتمكنوا حينئذ مما كانوا يتمكنون منه قبل ذلك من الاستماع.

ومعلوم أن هذا أمر يراه الناس بأبصارهم، فإن امتلاء السماء بالشهب، أمر يراه الناس كلهم، فلو لم يكن كذلك لكان الناس يكذبون بهذا، مؤمنهم وكافرهم، فإن الجماعة العظيمة الذين لم يتواطؤا، يمتنع اتفاقهم على الكذب، وعلى التصديق بما يعلمون أنه كذب، وعلى كتمان ما يعلمونه، وعلى ترك إنكار ما يعلمون أنه كذب.

وقد سمع القرآن ألوف مؤلفة أدركوا مبعثه وشاهدوا أحوال السماء، فلو لم يكن هذا كان موجوداً ـ مع أن عامتهم كانوا مكذبين له. وَلَمَّا آمنوا كانوا طوائف متباينين يمتنع اتفاقهم على كذب أو كتمان أو سكوت ـ فلما لم ينكر ذلك أحد بل تظاهرت الأخبار بمثل ما أخبر به القرآن من الرمي العظيم بالشهب الذي لم يعهد مثله، حتى صاروا يشكون: هل ذلك في الكواكب التي في الفلك أو في غيرها؟ قالوا: إن كان في

سورة الجن

قال في عموم سورة الجن:

(ومن آياته الظاهرة التي في القرآن ما ذكره من أن السماء ملئت حرساً شديداً وشهباً، بخلاف ما كانت العادة جارية به قال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝٢﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾ [الجن].

وقال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ۝٢١٠ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٢١١ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ۝٢١٢﴾ [الشعراء].

وهذا كان النبي ﷺ يقرؤه على الناس، وهم يقرءونه، ولم ينكره أحد، ولا ارتاب به مؤمن، ولا احتج به عليه كافر فدل أن الناس علموا صدق ما أخبرت به الجن، من أن السماء ملئت حرساً شديداً وشهباً وأنهم لم يتمكنوا حينئذ مما كانوا يتمكنون منه قبل ذلك من الاستماع.

ومعلوم أن هذا أمر يراه الناس بأبصارهم، فإن امتلاء السماء بالشهب، أمر يراه الناس كلهم، فلو لم يكن كذلك لكان الناس يكذبون بهذا، مؤمنهم وكافرهم، فإن الجماعة العظيمة الذين لم يتواطؤا، يمتنع اتفاقهم على الكذب، وعلى التصديق بما يعلمون أنه كذب، وعلى كتمان ما يعلمونه، وعلى ترك إنكار ما يعلمون أنه كذب.

وقد سمع القرآن ألوف مؤلفة أدركوا مبعثه وشاهدوا أحوال السماء، فلو لم يكن هذا كان موجوداً ـ مع أن عامتهم كانوا مكذبين له. وَلَمَّا آمنوا كانوا طوائف متباينين يمتنع اتفاقهم على كذب أو كتمان أو سكوت ـ فلما لم ينكر ذلك أحد بل تظاهرت الأخبار بمثل ما أخبر به القرآن من الرمي العظيم بالشهب الذي لم يعهد مثله، حتى صاروا يشكون: هل ذلك في الكواكب التي في الفلك أو في غيرها؟ قالوا: إن كان في

كواكب الأفلاك فهو خراب العالم فلما رأوه فيما دونها علموا أنه لأمر حدث، ففي الصحيحين من حديث ابن عباس قال: انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: ما لكم؟ قالوا: حيل بيننا وبين السماء أرسلت علينا الشهب قالوا: ما ذاك إلا من شيء حدث فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا: ما هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء؟ فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها فمر النفر الذين أخذوا نحو تهامة وهي بنخل عامدين إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر فلما سمعوا القرآن استمعوا له وقالوا: هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء فرجعوا إلى قومهم فقالوا: يا قومنا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِى إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢﴾ [الجن]، فأنزل الله ﷻ على نبيه محمد ﷺ ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن: ١]، وفي لفظ البخاري بنخلة قريباً من مكة وهو الصواب.

وقد ظن بعض الناس أن الشهب لم يكن يرمى بها قبل ذلك بحال، والصواب: أنه كان الرمي بها كما هو الآن أحياناً كما ثبت في صحيح مسلم عن ابن عباس ورواه أيضاً أحمد في مسنده، أن رسول الله ﷺ بينما هو في نفر من الأنصار إذ رمي بنجم فاستنار، فقال لهم: ما كنتم تقولون في هذا النجم الذي يرمى به في الجاهلية؟ قالوا: كنا نقول حين رأيناها يرمى بها: مات مَلِكٌ، وُلِدَ مولود. فقال رسول الله ﷺ: «ليس ذلك كذلك ولكن الله إذا قضى في خلقه أمراً يسمعه أهل العرش فيسبحون فيسبح من تحتهم بتسبيحهم، فيسبح من تحت ذلك، فلم يزل التسبيح يهبط حتى ينتهي إلى السماء الدنيا حتى يقول بعضهم لبعض: لم سبَّحتم؟ فيقولون سبح من فوقنا فسبحنا بتسبيحهم فيقولون: ألا تسألون من فوقكم مِمَّ سبحوا؟ فيسألونهم فيقولون: قضى الله في خلقه كذا وكذا: الأمر الذي كان فيهبط به الخبر من سماء إلى سماء حتى ينتهي إلى سماء الدنيا فيتحدثون به فتسترقه الشياطين بالسمع على توهم منهم واختلاف، ثم يأتون به الكهان من أهل الأرض، فيحدثونهم فيخطئون ويصيبون فيحدث الكهان»[1].

وفي الصحيحين عن عائشة قالت: قلت: يا رسول الله إن الكهان قد كانوا يحدثوننا بالشيء فيكون حقاً، قال: «تلك الكلمة من الحق، يخطفها الجني، فيقذفها في أذن وليه، فيزيد فيها أكثر من مائة كذبة»[2].

---

(١) مرّ تخريجه.

(٢) مرّ تخريجه.

وروى البخاري في صحيحه عن عائشة أنها سمعت النبي ﷺ يقول: «إن الملائكة تنزل في العنان وهو السحاب فتذكر الأمر قضي في السماء فتسترق الشياطين السمع فتسمعه فتوحيه إلى الكهان فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم»[(١)].

وفي صحيح البخاري أيضاً عن أبي هريرة قال: إن نبي الله ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان فإذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: ﴿ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣] فيسمعها مسترقو السمع ومسترقو السمع هكذا بعضهم فوق بعض فيسمع الكلمة فيلقيها على لسان الساحر أو الكاهن فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا الكلمة التي سمعت من السماء فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء»[(٢)].

ورواه محمد بن إسحاق عن الزهري وقال في آخره: «ثم إن الله ﷻ حجب الشياطين عن السمع بهذه النجوم فانقطعت الكهانة فلا كهانة» ورواه معمر عن الزهري وقال: «فقلت للزهري: أو كان يرمى بها في الجاهلية؟ قال نعم قلت: يقول الله: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ الآية [الجن: ٩]».

قال: غلظت واشتد أمرها حين بعث النبي ﷺ وروى الطبري عن داود ثنا عاصم بن علي بن عاصم عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان للجن مقاعد في السماء يستمعون الوحي وكان الوحي إذا أوحي، سمعت الملائكة كهيئة الحديدة رمى بها على الصفوان فإذا سمعت الملائكة صلصلة الوحي، خر لجباههم من في السماء من الملائكة، فإذا نزل عليهم أصحاب الوحي قالوا: ماذا قال ربكم؟ قال: فينادون قال ربكم: ﴿ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾.

قال: فإذا نزل إلى السماء الدنيا قالوا: يكون في الأرض كذا وكذا موتاً، وكذا وكذا حياة، وكذا وكذا جدوبة وكذا وكذا خصباً، وما يريد أن يصنع، وما يريد أن يبتدئ تبارك وتعالى فنزلت الجن فأوحوا إلى أوليائهم من الإنس ما يكون في الأرض فبينما هم كذلك إذ بعث النبي ﷺ فزجرت الشياطين ورموهم بالكواكب فمنعوا فجعل لا يصعد أحد إلا احترق وفزع أهل الأرض لما رأوا في الكواكب ولم يكن قبل ذلك

---

(١) مرّ تخريجه.
(٢) مرّ تخريجه.

فقالوا: هلك من في السماء وكان أهل الطائف أول من فزع فينطلق الرجل إلى إبله فينحر فيذبح كل يوم بعيراً لآلهتهم فينطلق صاحب الغنم يذبح كل يوم شاة فينطلق صاحب البقر فيذبح كل يوم بقرة فقال لهم رجل: ويلكم لا تهلكوا أموالكم فإن معالمكم من الكواكب التي تهتدون بها، ولم يسقط منها شيء فأقلعوا وقد أسرعوا في أموالهم وقال إبليس: حدث في الأرض حدث فأتوني من كل مكان في الأرض بتربة فجعل لا يؤتى بتربة أرض إلا شمها فلما أتى بتربة تهامة قال: «ههنا حدث الحدث» فصرف الله إليه نفراً من الجن وهو يقرأ القرآن فقالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ [الجن: ١] حتى ختم الآية فولوا: ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩] ورواه أبو زرعة عن موسى بن إسماعيل عن حماد بن سلمة عن عطاء بنحوه ورواه البيهقي من طرق عن حماد بن سلمة عن عطاء أيضاً.

فقد تبين أنه لما كان في زمن المبعث ملئت السماء حرساً شديداً وشهباً وقبل ذلك لم يكن الحرس شديداً ولا كانت السماء مملؤة حرساً وشهباً كما هي الآن يرمى بها أحياناً وكانوا يقعدون بها مقاعد للسمع: أي يسترق أحدهم ما يسمعه كما يستمع المستمع إلى حديث غيره مختفياً بسماعه مسترقاً له فكانت الشياطين تسترق (أي تستمع) ما تقوله الملائكة: فلما بعث محمد ﷺ صار أحدهم إذا سمع وجد الشهاب قد أرصد له فلم يستطع أن يقعد ويستمع كما كان قبل ذلك) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (وأنزل الله تعالى بعد ذلك: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝٢ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ۝٤ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۝٥ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾ [الجن] أي السفيه منا في أظهر قولي العلماء.

وقال غير واحد من السلف[2]: كان الرجل من الإنس إذا نزل بالوادي قال: أعوذ بعظيم هذا الوادي من شر سفهاء قومه فلما استغاثت الإنس بالجن ازدادت الجن طغياناً وكفراً كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ۝٧ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا

(١) الجواب الصحيح (٦/ ٥٧ ـ ٦٧).

(٢) ابن جرير (٢٩/ ١٠٨) عن ابن عباس والحسن وغيرهم.

مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾﴾ [الجن] وكانت الشياطين ترمى بالشهب قبل أن ينزل القرآن لكن كانوا أحياناً يسترقون السمع قبل أن يصل الشهاب إلى أحدهم فلما بعث محمد ﷺ ملئت السماء حرساً شديداً وشهباً وصارت الشهب مرصدة لهم قبل أن يسمعوا كما قالوا: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾﴾ [الجن] وقال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾ [الشعراء] قالوا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾﴾ [الجن] أي على مذاهب شتى كما قال العلماء منهم المسلم والمشرك والنصراني والسني والبدعي ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾﴾ [الجن] أخبروا أنهم لا يعجزونه: لا إن أقاموا في الأرض ولا إن هربوا منه ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾ أي الظالمون يقال أقسط إذ عدل وقسط جار وظلم ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ أي ملجأ ومعاذاً ﴿إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾﴾ [الجن]) ا. هـ[1].

وقال رحمه الله: (إن هذه الأخبار الغيبية التي لا يعلمها إلا نبي أعلمه الله بها أو من تعلَّمها من نبي: هي مما أنبأه الله به ولم يعلمه ذلك بشر وهذا من الغيب الذي قال الله فيه في السورة التي فيها استماع الجن للقرآن وإنذار قومهم به حيث قال: ﴿أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾﴾ [الجن].

إلى قوله: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٣٠٤ ـ ٣٠٥).

أَحَدٍ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾﴾ [الجن]، فقوله تعالى: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢٦]، يبين أنه غيب يضاف إليه يختص به لا يعلمه أحد إلا من جهته بخلاف ما يغيب عن بعض الناس ويعلمه بعضهم فإن هذا قد يتعلمه بعضهم من بعض) ا.هـ[1].

﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾﴾.

(وقد قالت الجن المؤمنون: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾﴾ فنزهوه عن هذا وهذا وهؤلاء الجن المؤمنون أكمل عقلاً وديناً من هؤلاء النصارى) ا.هـ[2].

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾﴾.

(وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾﴾ كان أحدهم إذا نزل بواد يقول: أعوذ بعظيم هذا الوادي من سفهائه فقالت الجن: الإنس تستعيذ بنا فزادوهم رهقاً. وقد نص الأئمة كأحمد وغيره على أنه لا تجوز الاستعاذة بمخلوق، وهذا مما استدلوا به على أن كلام الله غير مخلوق لما ثبت عنه ﷺ: أنه استعاذ بكلمات الله وأمر بذلك، فإذا كان لا يجوز ذلك فلأن لا يجوز أن يقول: أنت خير مستعاذ يستعاذ به أولى، فالاستعاذة، والاستجارة، والاستغاثة: كلها من نوع الدعاء، أو الطلب، وهي ألفاظ متقاربة) ا.هـ[3].

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾﴾ كان الإنس إذا نزل أحدهم بواد يخاف أهله قال: أعوذ بعظيم هذا الوادي من سفهائه وكانت الإنس تستعيذ بالجن فصار ذلك سبباً لطغيان الجن وقالت: الإنس تستعيذ بنا) ا.هـ[4].

وقال رحمه الله: (قال في السورة: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾﴾، كان الرجل من الإنس ينزل بالوادي، والأودية مظان الجن؛ فإنهم يكونون بالأودية أكثر مما يكونون بأعالي الأرض فكان الإنسي يقول: أعوذ بعظيم هذا

---

(١) الجواب الصحيح (٥/ ٣٩٥ ـ ٣٩٦).
(٢) الجواب الصحيح (٤/ ٢٨٢ ـ ٢٨٣).
(٣) مجموع الفتاوى (١٥/ ٢٧٧).
(٤) مجموع الفتاوى (١/ ٣٦٢).

الوادي من سفهائه فلما رأت الجن أن الإنس تستعيذ بها، زاد طغيانهم وغيَّرهم[١]، وبهذا يجيبون المعزم والراقي بأسمائهم وأسماء ملوكهم فإنه يقسم عليهم بأسماء من يعظمونه فيحصل لهم بذلك من الرئاسة والشرف على الإنس ما يحملهم على أن يعطوهم بعض سؤلهم لا سيما وهم يعلمون أن الإنس أشرف منهم وأعظم قدراً فإذا خضعت الإنس لهم واستعاذت بهم؛ كان بمنزلة أكابر الناس إذا خضع لأصاغرهم ليقضي له حاجته) ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (وكتب السحر مملوءة من الإقسام والعزائم على الجن بساداتهم الذين يعظمونهم ولذلك كانت الإنس تستعيذ بالجن كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾ كانوا إذا نزل الرجل منهم بواد يقول: أعوذ بعظيم هذا الوادي من سفهائه فأنزل الله هذه الآية) ا.هـ[٣].

وقال رحمه الله: (قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾ والإنس سموا إنساً لأنهم يؤنسون أي يرون كما قال تعالى: ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ [طه: ١٠] أي رأيتها، والجن سموا جناً لاجتنانهم، يجتنون عن الأبصار أي يستترون كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ [الأنعام: ٧٦] أي استولى عليه فغطاه وستره) ا.هـ[٤].

وقال رحمه الله: (وإنما هناك رجال من الجن فالجن رجال كما أن الإنس رجال قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾) ا.هـ[٥].

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٰٔنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾.

(فكان معروفاً عندهم إخبار الكهان عن الشياطين التي تسترق السمع، فلما رأوا أن السماء قد حرست حرساً شديداً خلاف العادة علموا أن الشياطين منعوا استراق السمع وعلمت الجن ذلك كما تقدم وقد قالت الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٰٔنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾.

---

(١) كذا في الأصل، ولعلها: وتجبّرهم.
(٢) مجموع الفتاوى (١٩/ ٣٣ ـ ٣٤).
(٣) الصفدية (١/ ١٦٩) الاستغاثة (٢٨٧).
(٤) مجموع الفتاوى (١٧/ ٤٦٥).
(٥) مجموع الفتاوى (١١/ ٢٩٤).

وقد تواترت الأخبار بأنه حين المبعث كثر الرمي بالشهب وهذا أمر خارق للعادة حتى خاف بعض الناس أن يكون ذلك لخراب العالم، حتى نظروا: هل الرمي بالكواكب التي في الفلك أم الرمي بالشهب؟ فلما رأوا أنه بالشهب علموا أنه لأمر حدث وأرسلت الجن تطلب سبب ذلك حتى سمعت القرآن فعلموا أنه كان لأجل ذلك.

وهذا من أعلام النبوة ودلائلها.

وقبل زمان البعث وبعده كان الرمي خفيفاً لم تمتلئ به السماء كما ملئت حين نزول القرآن وقال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾ [الشعراء] والأفاك: الكذاب والأثيم: الفاجر كما قال: ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [العلق].

قال في الحديث المتفق على صحته: «عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يدعو إلى النار، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً»[1].

فالشياطين تنزل على من يحصل مقصودها بنزولها عليه وهو المناسب لها في الكذب والفجور فأما الصادق البار فلا يحصل به مقصود الشياطين؛ فإن الشيطان لا يطلب الصدق والبر وإنما يطلب الكذب والفجور.

ومحمد ﷺ ما زال قومه يعرفونه بينهم بالصادق الأمين لم تجرب عليه كذبة واحدة ولما جاءه الروح بالوحي لم يخبر بخبر واحد كذب لا عمداً ولا خطأ.

ومن تنزلت عليه الشياطين لا بد أن يخبر بالكذب فإن الشياطين يلقون إليهم السمع ولا يلقون إليهم ما سمعوه على وجهه بل يكذبون فيه كثيراً إذ كان أكثر الشياطين الذين ينزلون عليهم كاذبين فيما ينزلون به عليهم والشياطين وإن كان كلهم كاذباً، فليس كل من ألقى السمع يكذب فيما يلقيه، بل قد يصدق أحدهم فيما يلقيه من السمع ويسترقه، ولكن أكثرهم يكذبون، والذي يصدق منهم مرة يكذب مرات، والذي ينزل عليه الشياطين أفاك أثيم.

فالفرق بين الصادق البار الذي يأتيه الملك والكاذب الأثيم الذي يأتيه الشيطان

---

(١) مرّ تخريجه.

الرجيم فرق بين يعرف بأدنى معرفة بحال الاثنين ولمَّا كان الكاهن الذي يأتيه شيطان قد يخبر ببعض الأمور الغائبة بين سبحانه أن هذا يكون ـ وإن صدق في بعض الأخبار ـ كاذباً فاجراً، والذي يأتيه بالكذب، فلا يشتبه بمن لا يكذب ولا يفجر، وهذا مما يبين أن النبي لا يكون إلا باراً معصوماً أن يصر على ذنب) ا.هـ[1].

﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾.

(الشر لا يجيء في كلام الله وكلام رسوله إضافته وحده إلى الله ولكنه يأتي على أحد ثلاثة أوجه: إما على وجه العموم أو يحذف فاعله كقوله: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أو يضاف إلى فاعله من المخلوقين) ا.هـ[2].

وقال رحمه الله: (وأما حذف الفاعل فمثل قول الجن ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ وقوله تعالى في سورة الفاتحة: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾ [الفاتحة] ونحو ذلك) ا.هـ[3].

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾﴾.

(وقد قال تعالى فيما أخبر عنهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾﴾ قالوا مذاهب شتى مسلمين ويهود ونصارى وشيعة وسنة.

فأخبر أن منهم الصالحون ومنهم دون الصالحين فيكون: إما مطيعاً في ذلك فيكون مؤمناً وإما عاصياً في ذلك فيكون كافراً ولا ينقسم مؤمن إلى صالح وإلى غير صالح، فإن غير الصالح لا يعتقد صلاحه لترك الطاعات، فالصالح هو القائم بما وجب عليه ودون الصالح لا بد أن يكون عاصياً في بعض ما أمر به وهو قسم غير الكافر فإن الكافر لا يوصف بمثل ذلك وهذا يبين أن فيهم من يترك بعض الواجبات والله أعلم) ا.هـ[4].

وقال رحمه الله: (وقد أخبر الله عن الجن أنهم قالوا: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾﴾ أي مذاهب شتى: مسلمون وكفار وأهل سنة وأهل بدعة) ا.هـ[5].

---

(١) الجواب الصحيح (٥/ ٣٥٣ ـ ٣٥٧).
(٢) طريق الوصول (١٦٩).
(٣) مجموع الفتاوى (٨/ ٩٥).
(٤) مجموع الفتاوى (٤/ ٢٣٧).
(٥) مجموع الفتاوى (١٩/ ٣٨).

﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾.

(إن مواضع الساجد تسمى مساجد كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾) ا.هـ[1].

﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾.

(ولفظ العبد في القرآن يتناول من عبد الله فأما عبد لا يعبده فلا يطلق عليه لفظ عبده كما قال: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢] وأما قوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢] فالاستثناء فيه منقطع كما قاله أكثر المفسرين والعلماء وقوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦] ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣] ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾ [ص: ١٧] و﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠] ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ [ص: ٤١] ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [ص: ٤٥] ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ [الكهف: ٦٥] ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١] ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣] ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣] ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [النجم] ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١] ونحو هذا كثير) ا.هـ[2].

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾.

(وقال: ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ يقول: لن يجيرني من الله أحد إن عصيته كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ [الأنعام] ولن أجد من دونه ملتحداً: أي ملجأ ألجأ إليه إلا بلاغاً من الله ورسالاته: أي لا يجيرني منه أحد إلا طاعته أن أبلغ ما أرسلت به إليكم فبذلك تحصل الإجارة والأمن وقيل أيضاً: لا أملك لكم ضراً ولا رشداً: لا أملك إلا تبليغ ما أرسلت به منه ومثل هذا في القرآن كثير) ا.هـ[3].

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٣/ ٧٩).
(٢) مجموع الفتاوى (١/ ٤٣ ـ ٤٤).
(٣) مجموع الفتاوى (٢٧/ ٤٣٢ ـ ٤٣٣).

﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾.

(وقال: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾، فدل القرآن في غير موضع على أن من أطاع الرسول كان من أهل السعادة، ولم يشترط في ذلك طاعة معصوم آخر.

ومن عصى الرسول كان من أهل الوعيد وإن قدر أنه أطاع من ظن أنه معصوم فالرسول ﷺ هو الذي فرق الله به بين أهل الجنة وأهل النار وبين الأبرار والفجار وبين الحق والباطل وبين الغي والرشاد والهدى والضلال وجعله القسيم الذي قسم الله به عباده إلى شقي وسعيد فمن اتبعه فهو السعيد ومن خالفه فهو الشقي وليست هذه المرتبة لغيره) ا.هـ[1].

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾.

(وهذا يظهر الفرق بين أخبار الأنبياء عن الغيب ما لا سبيل لمخلوق إلى علمه إلّا منه كما قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾﴾ فقوله على غيبه هو غيبه الذي اختص به وأما ما يعلمه بعض المخلوقين فهو غيب عمن لم يعلمه وهو شهادة لمن علمه فهذا أيضاً تخبر منه الأنبياء بما لا يمكن الشياطين أن تخبر به كما في إخبار المسيح بقوله: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٩] فإن الجن قد يخبرون بما يأكله بعض الناس وبما يدخرونه لكن الشياطين إنما تتسلط على من لا يذكر اسم الله) ا.هـ[2].

وقال رحمه الله: (كذلك ما يخبر به الرسول من أنباء الغيب قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾ فهذا غيب الرب الذي اختص به مثل علمه بما سيكون من تفصيل الأمور الكبار على وجه الصدق فإن هذا لا يقدر عليه إلا الله) ا.هـ[3].

وقال رحمه الله: (كما قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ

---

(١) منهاج السنة (٦/ ١٩٠).
(٢) النبوات (٢٦٤).
(٣) النبوات (٦).

رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾﴾ فهو يسلك الوحي من بين يدي الرسول ومن خلفه وهذا في معنى عصمته من الناس فهو المؤيد المعصوم بما يحفظه الله من الإنس والجن حتى يبلغ رسالات ربه كما أمر فلا يكون فيها كذب ولا كتمان) ا.هـ[1].

﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾.

(وقال تعالى: ﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ ومعلوم أن في ذلك مقاصد أخرى من هداية الخلق وقيام الحجة على من بلغهم وغير ذلك) ا.هـ[2].

---

(١) النبوات (٢٢٢).

(٢) الجواب الصحيح (١/ ٤٣٣ ـ ٤٣٤).

سورة المزمل

﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢﴾.

(كما أنه لما سماها قياماً في قوله تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢﴾ دل على وجوب القيام) ا.هـ[١].

﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ۝٥﴾.

(وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ۝٥﴾ فقد فسره أهل النقل[٢] أن المراد به ثقل الحكم؛ ولأن الكلام ليس بذات) ا.هـ[٣].

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡئٗا وَأَقۡوَمُ قِيلٗا ۝٦﴾.

(وقال في سورة المزمل: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡئٗا وَأَقۡوَمُ قِيلٗا ۝٦﴾، وإذا نسخ الوجوب بقي الاستحباب، قال أحمد وغيره: و ـ الناشئة ـ لا تكون إلا بعد نوم، يقال: نشأ، إذا قام) ا.هـ[٤].

وقال رحمه الله: (وقوله تعالى: ﴿نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ عند أكثر العلماء هو إذا قام الرجل بعد نوم ليس هو أول الليل، وهذا هو الصواب؛ لأن النبي ﷺ هكذا كان يصلي، والأحاديث بذلك متواترة عنه كان يقوم بعد النوم لم يكن يقوم بين العشاءين) ا.هـ[٥].

وقال رحمه الله: (ويناسب هذا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡئٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ۝٧﴾ أي ذهاباً ومجيئاً، وبالليل تكون فارغاً. وناشئة الليل في أصح القولين: إنما تكون بعد

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٥٥١)، القواعد النورانية (٦٣).
(٢) يراجع ابن جرير (٢٩/ ١٢٧) وغيره.
(٣) بيان تلبيس الجهمية (١/ ٥٧٤).
(٤) مجموع الفتاوى (٢٣/ ٨٧).
(٥) مجموع الفتاوى (١٧/ ٤٧٤).

النوم، يقال نشأ إذا قام بعد النوم؛ فإذا قام بعد النوم كانت مواطأة قلبه للسانه أشد لعدم ما يشغل القلب، وزوال أثر حركة النهار بالنوم، وكان قوله (أقوم)) ا.هـ[1].

﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨﴾.

(لكن هنا يقال: بسم الله؛ فيذكر نفس الاسم الذي هو (ألف سين ميم) وأما في قوله: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾؛ فيقال: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله.

وهذا أيضاً مما يبين فساد قول من جعل الاسم هو المسمى، وقوله في الذبيحة ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٨] كقوله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ [العلق] وقوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ [هود: ٤١] فقوله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ هو قراءة بسم الله في أول السور.

وقد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضع، وبين أن هذه الآية تدل على أن القارئ مأمور أن يقرأ بسم الله وأنها ليست كسائر القرآن؛ بل هي تابعة لغيرها، وهنا يقول: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾ كما كتب سليمان وكما جاءت به السنة المتواترة وأجمع المسلمون عليه، فينطق بنفس الاسم الذي هو اسم مسمى، لا يقول بالله الرحمن الرحيم؛ كما في قوله: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ فإنه يقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله ونحو ذلك وهنا قال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ لم يقل: اقرأ اسم ربك وقوله: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ يقتضي أن يذكره بلسانه.

وأما قوله: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ﴾ [آل عمران: ٤١] فقد يتناول ذكر القلب، وقوله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ هو كقول الآكل باسم الله والذابح باسم الله كما قال النبي ﷺ: «ومن لم يكن ذبح فليذبح بسم الله)) ا.هـ[2].

﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾.

(وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾، وقال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝٢﴾ [الإسراء] فأمر أن يتخذ وكيلاً، ونهى أن يتخذ من دونه وكيلاً، لأن المخلوق لا يستقل بجميع حاجات العبد والوكالة الجائزة أن يوكل الإنسان في فعل يقدر عليه، فيحصل للموكل بذلك بعض مطلوبه، فأما مطالبه كلها فلا يقدر

(١) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٤٩٥).
(٢) مجموع الفتاوى (٦/ ٢١٠ ـ ٢١١).

عليها إلا الله وذلك الذي يوكله لا يفعل شيئاً إلا بمشيئة الله ﷻ وقدرته فليس له أن يتوكل عليه وإن وكله بل يعتمد على الله في تيسير ما وكله فيه، فلو كان الذي يحصل للمتوكل على الله يحصل وإن توكل على غيره، أو يحصل بلا توكل، لكان اتخاذ بعض المخلوقين وكيلاً أنفع من اتخاذ الخالق وكيلاً، وهذا من أقبح لوازم هذا القول الفاسد) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (والثاني من معنى الربوبية؛ إذ الإله: هو الذي يؤله فيعبد محبة وإنابة وإجلالاً وإكراماً، والرب: هو الذي يربي عبده فيعطيه خلقه ثم يهديه إلى جميع أحواله من العبادة وغيرها؛ وكذلك قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨] وقوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] وقوله: ﴿عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤] وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ٥٨] وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠] وقوله: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾ فهذه سبعة مواضع تنتظم هذين الأصلين الجامعين) ا.هـ[2].

وقال رحمه الله: (ومثل هذا قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة] وقوله: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠﴾ وقد يقال: لفظ (التبتل) لا يتناول هذه الأمور المعطوفة كما يتناولها لفظ العبادة والطاعة) ا.هـ[3].

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠﴾.

(إن هجرة الفجار نوعان: هجرة ترك، وهجرة تعزير. أما الأولى فقد دل عليها قوله تعالى: ﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ وقوله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾ [النساء: ١٤٠]) ا.هـ[4].

وقال رحمه الله: (والله تعالى ذكر في القرآن (الهجر الجميل) و(الصفح الجميل) و(الصبر الجميل).

---

(١) جامع الرسائل (١/ ٨٩).
(٢) مجموع الفتاوى (١/ ٢٢).
(٣) جامع الرسائل (٢/ ٧٧).
(٤) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٢١٦).

وقد قيل: إن (الهجر الجميل) هو هجر بلا أذى، والصفح الجميل صفح بلا معاتبة، والصبر الجميل صبر بغير شكوى إلى المخلوق) ا.هـ[١].

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾.

(فلفظ الرسول في الموضعين لفظ واحد مقرون باللام، لكن ينصرف في كل موضع إلى المعروف عند المخاطب في ذلك الموضع، فلما قال هنا: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ كان اللام لتعريف رسول فرعون، وهو موسى بن عمران عليه السلام. ولما قال لأمة محمد: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣] كان اللام لتعريف الرسول المعروف عند المخاطبين بالقرآن المأمورين بأمره المنتهين بنهيه، وهم أمة محمّد ﷺ) ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (كقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ وقال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣] ففي الموضعين لفظ الرسول ولام التعريف لكن المعهود المعروف هناك هو رسول فرعون وهو موسى عليه السلام والمعروف المعهود هنا عند المخاطبين بقوله: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ﴾ هو محمد ﷺ، وكلاهما حقيقة والاسم متواطئ وهو مُعَرَّف باللام في الموضعين لكن العهد في أحد الموضعين غير العهد في الموضع الآخر، وهذا أحد الأسباب التي بها يدل اللفظ؛ فإن لام التعريف لا تدل إلا مع معرفة المخاطب بالمعهود المعروف) ا.هـ[٣].

وقال رحمه الله: (قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ صار معهوداً بتقدم ذكره) ا.هـ[٤].

وقال رحمه الله: (قال سبحانه: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ إن اللام هي أوجبت قصر الرسول على موسى، لا نفس لفظ (رسول) ا.هـ[٥].

﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٨٣).
(٢) مجموع الفتاوى (٢٠/ ٤٢٨).
(٣) مجموع الفتاوى (٢٠/ ٤٩٥).
(٤) مجموع الفتاوى (٢١/ ٥٤٨).
(٥) مجموع الفتاوى (١١/ ١٤٤).

مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾.

(وعلى هذا قوله: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ فسر بقراءته بالليل لئلا ينساه) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (ذكر ذلك في قوله: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

فالصنف الواحد: القراء، وهم جنس العلماء والعباد، ويدخل فيهم من تفرع من هذه الأصناف من المتكلمة والمتصوفة وغيرهم.

والصنف الآخر المكتسب بالضرب في الأرض. وأما المقيمون من أهل الصناعات والتجارات، فيمكن أن يكونوا من القراء المقيمين أيضاً، بخلاف المسافر فإن النبي ﷺ قال: «إذا مرض العبد أو سافر كتب له من العمل مثل [ما] كان يعمل وهو صحيح مقيم»[2] أخرجاه في الصحيحين عن أبي موسى.

والله سبحانه إنما ذكر هذه الأصناف في الآية ليبين من يسقط عنه قيام الليل من أهل الأعذار، فذكر المريض والمسافر اللذين ذُكرا في الحديث، وذكر المسافرين في ضربين: الضاربين في الأرض يبتغون من فضل الله والمقاتلين في سبيل الله وهم التجار [و] الأجناد.

والمقصود هنا أن الأجناس الأربعة من المقاتلة، والتجار، ومن يلحق بهم من الصناع والقراء وأهل الأعذار كالمرضى ونحوهم، كل هؤلاء قد حصل فيهم من الأنواع المختلفة ما يطول وصفه) ا.هـ[3].

وقال رحمه الله: (وكذلك ختم سورة المزمل وهي سورة قيام الليل بقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾) ا.هـ[4].

وقال رحمه الله: (وقد ختم الله (سورة المزمل) وفيها قيام الليل بقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ كما ختم بذلك (سورة المدثر) بقوله: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٣/ ٨٥).
(٢) البخاري (٤/ ٧٠)، وهو من أفراده.
(٣) الاستقامة (١/ ٣٢٨ ـ ٣٢٩)، ومجموع الفتاوى (٨/ ٥٣٣).
(٤) مجموع الفتاوى (١١/ ٢٥٤).

وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: ٥٦] فهو سبحانه أهل التقوى ولم يقل سبحانه: أهل للتقوى بل قال: ﴿أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ فهو وحده أهل أن يتقى، فيعبد دون ما سواه، ولا يستحق غيره أن يتقى كما قال: ﴿وَلَهُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النحل] وقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النور] وهو أهل المغفرة، ولا يغفر الذنوب غيره، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥]) ا.هـ[1].

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٦٨٩ ـ ٦٩٠).

سورة المدثر

وقال في أسباب نزول السورة:

(قال جابر في حديثه عن النبي ﷺ في فترة الوحي، قال: بينا أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء، فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالسٌ على كرسي بين السماء والأرض، فرعبت منه، فرجعت فقلت: «زملوني» [زملوني][1]، فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ فحمي الوحي وتتابع) ا.هـ[2].

وقال رحمه الله: (قال ابن شهاب الزهري، سمعت أبا سلمة بن عبد الرحمن قال أخبرني جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحي: «فبينما أنا أمشي سمعت صوتاً فرفعت بصري قبل السماء فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض، فجئت حتى هويت إلى الأرض فجئت أهلي فقلت: زملوني، زملوني، زملوني. فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ [المدثر]».

فهذا يبين أن «المدثر» نزلت بعد تلك الفترة، وأن ذلك كان بعد أن عاين الملك الذي جاءه بحراء أولاً فكان قد رأى الملك مرتين.

وهذا يفسر حديث جابر الذي روي من طريق آخر كما أخرجاه من حديث يحيى بن أبي كثير، قال: سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن. قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ قلت: يقولون: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ [العلق] فقال أبو سلمة: سألت جابر بن عبد الله عن ذلك [و] قلت له مثل ما قلت، فقال جابر: لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله ﷺ قال: «جاورت بحراء، فلما قضيت جواري هبطت فنوديت فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً. ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً، ونظرت أمامي، فلم

---

(١) البخاري (٤/ ١٤١)، ومسلم (١/ ٩٩). (٢) الرد على المنطقيين (٤٩٢ ـ ٤٩٣).

أر شيئاً، ونظرت خلفي فلم أر شيئاً. فرفعت رأسي فرأيت شيئاً. فأتيت خديجة فقلت دثروني وصبّوا علي ماء بارداً، فدثروني وصبّوا علي ماء بارداً») ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (وقد استدل كثير من المتأخرين من أصحابنا وغيرهم[2] على وجوب تطهير الثياب بقوله سبحانه: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ [المدثر] حملاً لذلك على ظاهر اللغة التي يعرفونها، فإن الثياب هي الملابس وتطهيرها بأن تصان عن النجاسة وتجنبها بتقصيرها وتبعيدها منها، وبأن تماط عنها النجاسة إذا أصابتها، وقد نقل هذا عن بعض السلف، لكن جماهير السلف فسروا هذه الآية بأن المراد: زك نفسك وأصلح عملك. قالوا: وكنى بطهارة الثياب عن طهارة صاحبها من الأرجاس والآثام[3]، وذلك أن هذه الآية في أول سورة المدثر، وهي أول ما نزل من القرآن بعد أول سورة اقرأ، ولعل الصلاة لم تكن فرضت حينئذ فضلاً عن أذى الطهارتين التي هي من توابع الصلاة، ثم هذه الطهارة من فروع الشريعة وتتماتها فلا تفرض إلا بعد استقرار الأصول والقواعد كسائر فروع الشريعة إذ ذاك لم تكن قد فرضت الأصول والقواعد.

ثم إن الاهتمام في أول الأمر بجمل الشرائع وكلياتها دون الواحد من تفاصيلها والجزء من جزئياتها هو المعروف من طريقة القرآن وهو الواجب في الحكمة، ثم ثياب النبي ﷺ لم تعرض لها نجاسة إلا أن تكون في الأحيان، فتخصيصها بالذكر دون طهارة البدن وغيره مع قلة الحاجة وعدم الاختصاص بالحكم في غاية البعد، وإذا حملت الآية على الطهارة من الرجس والإثم والكذب والغدر والخيانة والفواحش كانت قاعدة عظيمة من قواعد الشريعة، والكناية بطهارة الثياب عن طهارة صاحبها من الفواحش والكذب والخيانة ونحو ذلك مشهور في لسان العرب غالب في عرفهم نظماً ونثراً، كما قال: ثياب بني عوف طهارة نقية.

وقال الآخر:

وإني بحمد الله لا ثوب غادر ... لبست ولا من خزية أتقنع[4]

حتى إذا قيل: فلان طاهر الثياب طاهر الذيل لم يفهم منه عند الإطلاق إلا ذلك، فيكون قد صار ذلك حقيقة عرفية، كما صار المجيء من الغائط حقيقة في قضاء

---

(١) مجموع الفتاوى (١٦/ ٢٥٧ ـ ٢٥٨). (٢) المغني (٢/ ٤٦٤).
(٣) ابن جرير (١٢/ ٢٩٨، ٢٩٩).
(٤) قول غيلان بن سلمة الثقفي. أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٢/ ٢٩٨).

الحاجة، وكما صار مسيس النساء ومباشرتهن حقيقة في الجماع، فيجب حمل الكلام عليه، ولذلك وجهان:

«أحدهما»: إن اللباس يضاف إليه من الحكم ويقصد به الإضافة إلى الإنسان نفسه للعلم بأن المقصود مَنْ في الثوب لا نفس الثوب، ويجعل ذلك نوعاً من الكناية، كما قال الأنصار للنبي ﷺ: «لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا»[(١)].

«الثاني» أن يراد نفس تطهير الثوب، لكن الطهارة في كتاب الله على قسمين: طهارة حسية من الأعيان النجسة، ومن أسباب الحدث المعلومة. وطهارة عقلية من الأعمال الخبيثة.

فالأول: كقوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨] «نزلت في أهل قباء لما كانوا يستنجون من البول والغائط»[(٢)]، قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

والثاني: كقوله سبحانه: ﴿إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ [المجادلة: ١٢]، وقوله: ﴿صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، وقوله تعالى: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦]، وفي غير موضع، وقوله ﷺ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود: ٧٨]، وقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]، وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨]، وقال: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، إلى غير ذلك من الآيات، وإذا كان كذلك فالثوب نفسه يكتسب صفة حقيقة مِنْ لابسه إن كان صالحاً أو فاسقاً حتى يظهر ذلك فيه إذا قوي تأثير صاحبه فيه ويظهر ذلك في مواضع الخير ومواضع الشر، ولأجل الارتباط الذي بين اللباس والمقعد وبين صاحبهما أمر بتطهيرهما من النجاسة، وكانت طهارة الخفين طهارة للقدمين واستحب تكريم البقاع والثياب التي عملت فيها الصالحات حتى «أعد سعد رضي الله عنه جبته التي شهد فيها بدراً كفناً» واستوهب بعض أزواج النبي ﷺ منه بردة لتتخذها كفناً.

---

(١) أحمد (٤/ ٤٦٢).

(٢) أبو داود (٤٤)، الترمذي (٣٥٧)، أحمد (٣/ ٣٢٢)، والحديث صحيح.

وهذا كثير فالأمر بتطهير عينه من الأنجاس أمر بطهارة صاحبه بالضرورة.

والأشبه والله أعلم: أن الآية تعم نوعي الطهارة وتشمل هذا كله فيكون مأموراً بتطهير الثياب المتضمنة تطهير البدن والنفس من كل ما يستقذر شرعاً من الأعيان والأخلاق والأعمال، لأن تطهيرها أن تجعل طاهرة ومتى اتصل بها وبصاحبها شيء من الأنجاس لم تكن مطهرة على الإطلاق فإنها متى أزيل عنها نجس دون نجس لم تكن قد طهرت حتى يزال عنها كل نجس، بل كل ما أمر الله باجتنابه من الأرجاس وجب التطهير منه وهو داخل في عموم هذا الخطاب) ا.هـ[1].

وفي أسباب نزول السورة قال:

(فإنه أول ما أرسل أنزلت عليه سورة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ بعد أن أنزلت عليه سورة (اقرأ) التي بها نبيء فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾ [المدثر]: فافتتح آيات الإرسال إلى الخلق بالأمر بالنذارة، وختمها بالأمر بالصبر، ونفس الإنذار أمر بالمعروف ونهي عن المنكر؛ فعلم أنه يجب بعد ذلك الصبر وقال: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠﴾ [المزمل] ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨] ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧] ﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١١٥﴾ [هود]) ا.هـ[2].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾.

(وكذلك قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ لما أمر بتبليغ ما أنزل إليه من الإنذار وهذا فرض على الكفاية فواجب على الأمة أن يبلغوا ما أنزل إليه وينذروا كما أنذر) ا.هـ[3].

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾.

(قال أكثر المفسرين في قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ أي عملك) ا.هـ[4].

---

(١) شرح العمدة ـ الصلاة (٤٠٤ ـ ٤٠٧).
(٢) مجموع الفتاوى (٢٨/١٣٦ ـ ١٣٧).
(٣) مجموع الفتاوى (١٦/٣٢٧).
(٤) مختصر الفتاوى المصرية (١٧٣).

وقال رحمه الله: (إن المراد به إصلاح العمل وتطهير النفس من الرذائل) ا.هـ[١].

وقال رحمه الله: (الطهارة تارة تكون من الأعيان النجسة وتارة من الأعمال الخبيثة وتارة من الأحداث المانعة فمن الأول قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ على أحد الأقوال ومن الثاني قوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟﴾ [التوبة: ١٠٨] ومن الثالث قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟﴾ [المائدة: ٦]) ا.هـ[٢].

﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١﴾.

(قال الإمام أحمد: قد سمى الله رجلاً كافراً اسمه الوليد بن المغيرة المخزومي فقال: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١﴾ وقد كان الله سماه وحيداً له عينان وأذنان ولسان وشفتان ويدان ورجلان وجوارح كثيرة فقد سماه وحيداً بجميع صفاته) ا.هـ[٣].

وفي أسباب نزول الآية (١١) قال:

(وعن ابن عباس: أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه من القرآن: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠﴾ [النحل].

قال: أعد، فأعاد النبي ﷺ فقال: «والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وما يقول هذا البشر».

وفي لفظ: إن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن فكأنه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال: يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً. قال: ولم؟ قال: ليعطوكه، فإنك أتيت محمداً لتعوض مما قبله. قال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالاً. قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر لها وأنك كاره له. قال ماذا أقول فو الله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني ولا أعلم برجزه ولا بقصيده مني والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، ووالله إن لقوله الذي يقول لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته. لا ترضى

---

(١) جامع المسائل (٤/ ٢٢٥).

(٢) الفتاوى (٤/ ١).

(٣) بيان تلبيس الجهمية (١/ ٤٦٤) درء تعارض العقل (١/ ١١٣) منهاج السنة (١/ ٤١) الفتاوى (التسعينية) (٥/ ٧٧) وهذا كلام الإمام أحمد.

عنك قومك حتى تقول فيه. قال: فدعني حتى أفكر فيه. فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر يأثره عن غيره فنزلت: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾، رواه عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن عكرمة[١] عنه.

وفي رواية أخرى: «أن الوليد بن المغيرة اجتمع ونفر من قريش وكان ذا سن فيهم وقد حضر الموسم فقال: إن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم، هذا فأجمعوا فيه رأياً واحداً ولا تختلفوا، فيكذب بعضكم بعضاً، ويرد بعضكم قول بعض، فقالوا: فأنت يا أبا عبد شمس فقل، وأقم لنا رأياً نقوم به، فقال: بل أنتم فقولوا وأنا أسمع، فقالوا: نقول: كاهن، فقال: ما هو بكاهن، لقد رأيت الكهان، فما هو بزمزمة الكهان. فقالوا: نقول: مجنون. فقال: ما هو بمجنون، لقد رأينا المجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته قالوا: فنقول شاعر، فقال: ما هو بشاعر، قد عرفنا الشعر برجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر. قالوا: فنقول: ساحر، قال: فما هو بساحر، قد رأينا السحار وسحرهم، فما هو بنفثه ولا عقده فقالوا: ما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال: والله إن لقوله حلاوة، وإن أصله لغدق وإن فرعه لجنى، فما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب القول أن تقولوا: ساحر يفرق بين المرء وبين أبيه، وبين المرء وبين أخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته فتفرقوا عنه، فجعلوا يجلسون للناس حين قدموا الموسم، لا يمر بهم أحداً إلا حذروه إياه، وذكروا له أمره فأنزل الله تعالى في الوليد بن المغيرة، وذلك من قوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾ إلى قوله: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾ وأنزل في النفر الذين كانوا معه ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الحجر] أي أصنافاً») ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (وكان في أئمة الكفر «الوحيد» الذي قال الله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾﴾ فاستعمل نظر أهل المنطق من التفكير الذي يطلب به الحد الأوسط، ثم التقدير الذي هو القياس الذي ينتقل فيه من الحد الأوسط إلى المطلوب وكذب بكون القرآن كلام الله تعالى وجعله كلام البشر وهذا في الحقيقة قول هؤلاء المفلسفة) ا.هـ[٣].

---

(١) عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٢/ ٣٢٧).
(٢) الجواب الصحيح (٥/ ٣٧٣ ـ ٣٧٧).
(٣) بيان تلبيس الجهمية (١/ ٣٧٧).

﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾﴾.

(إن الخبر عما كان ويكون لا يدخله نسخ كقوله في أبي لهب: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾﴾، وكقوله في الوليد: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾﴾) ا.هـ[1].

﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾.

(وكان الوحيد من ذوي الرأي والقياس والتدبير من العرب، وهو معدود من حكمائهم وفلاسفتهم.

ولهذا أخبر الله عنه بمثل حال المتفلسفة في قوله: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾) ا.هـ[2].

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾.

(وهؤلاء الذين يقولون عن القرآن: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ فإن «الوحيد» الذي هو الوليد بن المغيرة من جنسهم كان من المشركين الذين هم صابئون أيضاً) ا.هـ[3].

وقال رحمه الله: (وقد توعد الله تعالى من قال: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ فمن قال: «إن هذا القرآن قول البشر» فقد كفر وقال بقول الوحيد الذي أوعده الله سقر ومن قال: «إن شيئاً منه قول البشر» فقد قال ببعض قوله، ومن قال: «إنه ليس بقول رسول كريم وإنما هو قول شاعر أو مجنون أو مفتر»، أو قال: «هو قول شيطان نزل به عليه» ونحو ذلك فهو أيضاً كافر ملعون) ا.هـ[4].

وقال رحمه الله: (ولا ريب أنه لم يرد بقوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ كما أراده الله بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾ [الحاقة] فإنه لو أراد أن البشر بلغوه عن غيرهم كما يتعلمه الناس بعضهم من بعض لم يكن هذا باطلاً وإنما أراد أن البشر أحدثوه وانشئوه عنه) ا.هـ[5].

وقال رحمه الله: (وقد قال تعالى: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا

---

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٣٢٦).
(٢) مجموع الفتاوى (١٢/ ٢١).
(٣) مجموع الفتاوى (١٢/ ٢٠).
(٤) درء تعارض العقل (١/ ٢٥٨).
(٥) مجموع الفتاوى (٦/ ٥٤٣).

مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ فمن قال: إن هذا القرآن قول البشر كان قوله مضاهياً لقول الوحيد الذي أصلاه الله سقر) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (بل قد كفر من قال إنه «قول البشر» في قوله: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾ والكلام الذي توعد بسقر من قال إنه «قول البشر» هو الكلام الذي أضافه إلى رسول من البشر تارة، وإلى رسول من الملائكة تارة) ا.هـ[2].

وقال رحمه الله: (فمن سمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر وقد ذمه الله وعابه وأوعده عذابه وتوعده حيث قال: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾ فلما أوعد الله سقر لمن قال: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ علمنا أنه قول خالق البشر ولا يشبه قول البشر) ا.هـ[3].

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾.

(وقد قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ﴾ فهذا التأويل لهذا المتشابه لا يعلمه إلا هو، وإن علمنا تفسيره ومعناه، لكن لم نعلم تأويله الواقع في الخارج) ا.هـ[4].

وقال رحمه الله: (وذكر عن المروذي قال قلت لأبي عبد الله: رجل يقول إن الله أجبر العباد، فقال: هكذا لا تقول وأنكر ذلك، وقال: ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ﴾

---

(١) مجموع الفتاوى (١٢/٢٥٩). (٢) الرد على المنطقيين (٥٤١ ـ ٥٤٢).
(٣) مجموع الفتاوى (١٢/٥٠٧). وهو كلام الطحاوي.
(٤) مجموع الفتاوى (١٧/٣٧٨).

وذكر عن المروذي أن رجلاً قال إن الله لم يجبر العباد على المعاصي فرد عليه آخر فقال إن الله جبر العباد، أراد بذلك إثبات القدر، فسألوا عن ذلك أحمد بن حنبل فأنكر عليهما جميعاً على الذي قال جبر، وعلى الذي قال لم يجبر حتى تاب، وأمر أن يقال: ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ ا.هـ[1].

﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾.

(وذلك مثل قوله: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾ فهذا قالوه وهم في جهنم وأخبروا أنهم كانوا على ما هم عليه من ترك الصلاة والزكاة والتكذيب بالآخرة والخوض مع الخائضين حتى أتاهم اليقين ومعلوم أنهم مع هذا الحال لم يكونوا مؤمنين بذلك في الدنيا ولم يكونوا مع الذين قال الله فيهم: ﴿وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤] وإنما أراد بذلك أنه أتاهم ما يوعدون وهو اليقين) ا.هـ[2].

﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾﴾.

(وقال أحمد في رواية عبد الله: معنى قوله: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾ يعني من الموحدين) ا.هـ[3].

﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

(قال تعالى عن أهل النار: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾، قال الحسن البصري: إن الله لم يجعل لعباده المؤمنين أجلاً دون الموت[4] وتلا هذه الآية) ا.هـ[5].

﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾﴾.

(كالمشركين الذين كانوا ﴿عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾ ولهذا يوجد في هؤلاء وأتباعهم من ينفرون عن القرآن والشرع كما تنفر

---

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ١٠٣ ـ ١٠٤).
(٢) مجموع الفتاوى (١١/ ٤١٨ ـ ٤١٩).
(٣) المسودة (٤٦).
(٤) مر الكلام عليه آنفاً.
(٥) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٠٢ ـ ٥٠٣).

الحمر المستنفرة التي تفر من الرماة ومن الأسد ولهذا يوصفون بأنهم إذا قيل لهم قال المصطفى نفروا) ا.هـ[١].

وقال رحمه الله: (﴿فَسُورَةٍ﴾ الذي يراد به الرامي ويراد به الأسد) ا.هـ[٢].

﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾.

(يقال إنه ﴿أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ أي المستحق لأن يتقى) ا.هـ[٣].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٢٤).

(٢) مجموع الفتاوى (١٣/ ٤٣٠).

(٣) مجموع الفتاوى (١٦/ ٣١٧ ـ ٣١٨).

سورة القيامة

وقال في عموم السورة:

(وفي سورة القيامة: ذكر أيضاً القيامتين فقال: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١﴾ ثم قال: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ [القيامة] وهي نفس الإنسان.

وقد قيل: إن النفس تكون لوامة وغير لوامة، وليس كذلك. بل نفس كل إنسان لوامة فإنه ليس بشر إلا يلوم نفسه ويندم إما في الدنيا وإما في الآخرة فهذا إثبات النفس. ثم ذكر معاد البدن فقال: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤ بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝٦﴾ [القيامة] ووصف حال القيامة إلى قوله: ﴿تَظُنُّ أَن يُفۡعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ۝٢٥﴾ [القيامة].

ثم ذكر الموت فقال: ﴿كَلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ۝٢٦﴾ [القيامة]، وهذا إثبات للنفس وأنها تبلغ التراقي كما قال هناك: ﴿بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ﴾ [الواقعة: ٨٣] والتراقي متصلة بالحلقوم.

ثم قال: ﴿وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ۝٢٧﴾ [القيامة] يرقيها وقيل: من صاعد يصعد بها إلى الله؟ والأول أظهر؛ لأن هذا قبل الموت، فإنه قال: ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ۝٢٨﴾ [القيامة] فدل على أنهم يرجونه ويطلبون له راقياً يرقيه، وأيضاً فصعودها لا يفتقر إلى طلب من يرقي بها، فإن لله ملائكة يفعلون ما يؤمرون، والرقية أعظم الأدوية فإنها دواء روحاني؛ ولهذا قال النبي ﷺ في صفة المتوكلين: «لا يسترقون»[1] والمراد أنه يخاف الموت ويرجو الحياة بالراقي؛ ولهذا قال: ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ۝٢٨﴾.

ثم قال: ﴿وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝٢٩ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ۝٣٠﴾ [القيامة] فدل على نفس موجودة قائمة بنفسها تساق إلى ربها والعرض القائم بغيره لا يساق، ولا بدن الميت، فهذا نص في إثبات نفس تفارق البدن تساق إلى ربها، كما نطقت بذلك الأحاديث المستفيضة في قبض روح المؤمن وروح الكافر.

---

(١) أي حديث المتفق عليه: «يدخل من أمتي سبعين ألف بغير حساب» حديث عكاشة بن محصن.

ثم ذكر بعد هذا صفة الكافر بقوله مع هذا الوعيد الذي قدمه: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾﴾ [القيامة] وليس المراد أن كل نفس من هذه النفوس كذلك) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (وكذلك قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾﴾ [القيامة] ثم قال: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾﴾ [القيامة] فجمع عظامه هو في القيامة الكبرى ـ إلى قوله ـ ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾﴾ [القيامة] فبين ما يقول عند الموت ـ إلى قوله ـ ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ إلى أن قال: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِۦَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [القيامة] فاستدل سبحانه بقدرته على الخلق الأول على قدرته على إحياء الموتى، وذلك في القرآن كذلك) ا.هـ[2].

﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾﴾.

(ويقال النفوس ثلاثة أنواع:

(وهي النفس الأمارة بالسوء) التي يغلب عليها اتباع هواها بفعل الذنوب والمعاصي.

(والنفس اللوامة) وهي التي تذنب وتتوب، فعنها خير وشر، لكن إذا فعلت الشر تابت وأنابت فتسمى لوامة لأنها تلوم صاحبها على الذنوب، ولأنها تتلوم أي تتردد بين الخير والشر.

(والنفس المطمئنة) وهي التي تحب الخير والحسنات وتريده وتبغض الشر والسيئات وتكره ذلك وقد صار ذلك لها خلقاً وعادة وملكة فهذه صفات وأحوال لذات واحدة، وإلا فالنفس التي لكل إنسان هي نفس واحدة، وهذا أمر يجده الإنسان من نفسه) ا.هـ[3].

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾﴾.

(وقد قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾﴾ فالله قادر على ذلك وهو لا يشاؤه) ا.هـ[4].

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾.

(وفي الصحيحين[5] عن ابن عباس قال: «كان النبي ﷺ يعالج من التنزيل شدة

---

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٢٦٤ ـ ٢٦٥).
(٢) مختصر الفتاوى المصرية (١٨٤).
(٣) مجموع الفتاوى (٩/ ٢٩٤).
(٤) مجموع الفتاوى (١١/ ٤٨٩).
(٥) البخاري (٨/ ٦٨٠ ـ الفتح)، ومسلم (١/ ٣٣٠، ٣٣١).

وكان يحرك شفتيه فقال ابن عباس: أنا أحركهما لك كما كان رسول الله ﷺ يحركهما. وقال سعيد بن جبير: أنا أحركهما كما رأيت ابن عباس يحركهما فحرك شفتيه فأنزل الله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧﴾ قال: جمعه لك في صدرك وتقرأه: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨﴾ [القيامة] فإذا قرأه رسولنا وفي لفظ: فإذا قرأه جبريل فاستمع له وأنصت ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩﴾ [القيامة] أي نقرؤه فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع فإذا انطلق جبريل قرأه النبي ﷺ كما قرأه» ا.هـ[1].

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩﴾.

(وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩﴾ هو كقوله تعالى: ﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ﴾ [القصص: ٣]) ا.هـ[2].

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧﴾.

(والقاري: هو الذي يظهر القرآن ويخرجه، قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧﴾ ففرق بين الجمع والقرآن) ا.هـ[3].

وقال رحمه الله: (وهذا كـ(القرآن) قد يراد به المصدر وقد يراد به الكلام المقروء وقال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨﴾ والقرآن هنا مصدر كما في الآية عن ابن عباس قال: علينا أن نجمعه في صدرك ثم أن تقرأه بلسانك فإذا قرأه جبريل فاستمع لقراءته ثم إن علينا أن نبينه.

وقد يراد بـ(القرآن) نفس الكلام المقروء كما قال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ [الأعراف: ٢٠٤] وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] وقال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١] وقال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٨] ونظائره كثيرة) ا.هـ[4].

وقال رحمه الله: (وقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨﴾ هو قراءة جبريل له عليه والله قرأه بواسطة جبريل كما قال: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٥١] فهو مكلم لمحمد بلسان جبريل وإرساله إليه وهذا ثابت للمؤمنين كما قال تعالى: ﴿قَدْ

---

(١) مجموع الفتاوى (١٢/١٠١).
(٢) مجموع الفتاوى (١٢/٢٩٩).
(٣) مجموع الفتاوى (٢٠/٤٧٨).
(٤) مجموع الفتاوى (١٢/١٩٨).

نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ [التوبة: ٩٤] وإنباء الله لهم إنما كان بواسطة محمد إليهم) ا.هـ[١].

وقال رحمه الله: (﴿عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ و﴿عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ فالقراءة هنا حين يسمعه من جبريل والبيان هنا بيانه لمن يبلغه القرآن) ا.هـ[٢].

﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾.

(قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ وفي الصحيحين عن ابن عباس قال: إن علينا أن نجمعه في قلبك ثم أن تقرأه بلسانك، فإذا قرأه جبريل فاستمع له حتى يفرغ) ا.هـ[٣].

وقال رحمه الله: (وقال: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾ قال ابن عباس أي قراءة جبريل ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ فاستمع له حتى يقضي قراءته) ا.هـ[٤].

وقال رحمه الله: (﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾ و﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ و﴿عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ فالقرآن هنا حين يسمعه من جبريل والبيان هنا بيانه لمن يبلغه القرآن) ا.هـ[٥].

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾﴾.

وقال رحمه الله: (لا سيما وقد جاء في حديث ابن عمر الذي رواه الترمذي عن إسرائيل عن ثوير بن أبي فاختة سمعت ابن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جنانه وأزواجه ونعيمه وخدمه وسرره مسيرة ألف سنة وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشياً ـ ثم قرأ رسول الله ﷺ ـ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾»[٦].

قال الترمذي: وقد روي هذا الحديث من غير وجه إسرائيل عن ثوير عن ابن عمر مرفوعاً ورواه عبد الملك بن أبجر عن ثوير عن مجاهد عن ابن عمر موقوفاً ورواه عبيد الله الأشجعي عن سفيان عن ثوير عن مجاهد عن ابن عمر قوله: ولم يرفعه وقال الترمذي: لا نعلم أحداً ذكر فيه مجاهداً غير ثوير وأظنه قد قيل: في قوله: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢] إن منه النظر إلى الله.

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٢٣٥).
(٢) مجموع الفتاوى (٥/ ١٢٨).
(٣) منهاج السنة (٥/ ٣٨١).
(٤) مجموع الفتاوى (١٧/ ٣٧).
(٥) مجموع الفتاوى (٥/ ٢٣٣).
(٦) الترمذي (٤/ ٦٨٨) وأحمد (٥٣١٧) والسنة لعبد الله بن أحمد (١/ ٢٥١ ـ ٢٥٢) والمستدرك (٢/ ٥٠٩) والحديث ضعيف.

وروي في ذلك حديث مرفوع رواه الدارقطني في الرؤية: حدثنا أبو عبيد قاسم بن إسماعيل الضَّبي حدثنا محمد بن محمد بن مرزوق البصري، حدثنا هانئ بن يحيى، حدثنا صالح المصري عن عباد المنقري عن ميمون بن سياه عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ أقرأه هذه الآية: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ قال: والله ما نسخها منذ أنزلها يزورون ربهم تبارك وتعالى فيطعمون ويسقون، ويطيبون ويحملون، ويرفع الحجاب بينه وبينهم، فينظرون إليه وينظر إليهم ﷻ، وذلك قوله: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢].

وقد ذكر أبو الفرج بن الجوزي هذا الحديث في (الموضوعات)[١] وقال: هذا لا يصح، فيه ميمون بن سياه، قال ابن حبان: ينفرد بالمناكير عن المشاهير، لا يحتج به إذا انفرد، وفيه صالح المصري، قال النسائي: متروك الحديث) ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (وروى اللالكائي[٣] عن ابن وهب قال: سمعت مالك بن أنس يقول: الناظرون ينظرون إلى الله ﷻ يوم القيامة بأعينهم، وعن أشهب قال: وسئل مالك عن قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ أينظر الله ﷻ؟ قال: نعم فقلت: إن أقواماً يقولون: ينظر ما عنده قال: بل ينظر إليه نظراً، وقد قال موسى: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣] وقال الله: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥﴾ [المطففين][٤] وعن مالك أنه قيل له: إنهم يزعمون أن الله لا يرى فقال: السيف، السيف[٥].

وقد تقدم كلام ابن الماجشون[٦]، واحتجاجه أيضاً على الرؤية بحجابه عن الكفار وعن الأوزاعي أنه قال: إني لأرجو أن يحجب الله جهماً وأصحابه أفضل ثوابه الذي وعده أولياءه، حيث يقول: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ فجحد جهم وأصحابه أفضل ثوابه الذي وعد أولياءه[٧]، وعن الوليد بن مسلم[٨] قال: سألت الأوزاعي وسفيان الثوري ومالك بن أنس والليث بن سعد عن هذه الأحاديث التي فيها

---

(١) الموضوعات لابن الجوزي (٣/ ٢٦٠). (٢) مجموع الفتاوى (٦/ ٤٢٤ ـ ٤٢٥).
(٣) اللالكائي رقم (٨٧٠)، الآجري في الشريعة (٢٥٤).
(٤) اللالكائي رقم (٨٧١). (٥) اللالكائي رقم (٨٠٨، ٨٧٢).
(٦) اللالكائي (٨٧٣). (٧) اللالكائي (٨٧٤).
(٨) في المطبوع (أبي الوليد مسلم) والتصحيح من اللالكائي.

الرؤية فقال: أمروها بلا كيف[١]. وعن الربيع قال: حضرت الشافعي وقد جاءته رقعة من الصعيد فيها: ما تقول في قول الله: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين] قال الشافعي: فلما أن حجب هؤلاء في السخط كان هذا دليلاً عن أنهم يرونه في الرضى، قال الربيع: قلت: يا أبا عبد الله وبه تقول، قال نعم، وبه أدين الله لو لم يؤمن محمد بن إدريس أنه يرى الله لما عبد الله[٢] وعن عبد الله بن المبارك قال: ما حجب الله عنه أحداً إلا عذبه ثم قرأ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾ [المطففين] قال بالرؤية) ا.هـ[٣].

وقال رحمه الله: (وكذلك ما دل من الكتاب على (الرؤية) كقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾ هو تقسيم لجنس الإنسان المذكور في قوله: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾﴾ [القيامة] وظاهر انقسام الوجوه إلى هذين النوعين، كما أن قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾﴾ [عبس] أيضاً إلى هذين النوعين، فمن لم يكن من الوجوه الباسرة كان من الوجوه الناضرة الناظرة؛ كيف وقد ثبت في الحديث أن النساء يزددن حسناً وجمالاً كما يزداد الرجال في مواقيت النظر؟) ا.هـ[٤].

﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾﴾.

(قال تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾﴾ وكل من لم يصدق لم يصل) ا.هـ[٥].

﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾﴾.

(وكذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾﴾ وكذلك قوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾ [المدثر] فوصفه بترك الصلاة، كما وصفه بترك التصديق، ووصفه بالتكذيب والتولي، و(المتولي) هو العاصي الممتنع من الطاعة كما قال تعالى: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ

---

(١) اللالكائي (٨٧٥).
(٢) اللالكائي (٨٨٣) وفيه لم يوقن بدل (لم يؤمن).
(٣) بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٤١٥ ـ ٤١٦).
(٤) مجموع الفتاوى (٦/ ٤٣٧).
(٥) درء تعارض العقل (٥/ ٢٦٦).

يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ١٦]) ا.هـ[١].

وقال رحمه الله: (وقال عن جنس الكافر: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾﴾ فالتكذيب للخبر، والتولي عن الأمر) ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (وضد التصديق التكذيب، وضد الطاعة التولي، فلهذا قال: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾﴾) ا.هـ[٣].

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾.

(وقال: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ قال المفسرون وأهل اللغة[٤]: السدى المهمل الذي لا يؤمر ولا ينهى؛ كالذي يترك الإبل سدى مهملة) ا.هـ[٥].

وقال رحمه الله: (وقال: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ أي مهملاً لا يؤمر ولا ينهى. وهذا استفهام إنكار على من جوز ذلك على الرب) ا.هـ[٦].

وقال رحمه الله: (وهذا كقوله: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ لا يؤمر ولا ينهى. أي أيظن أن هذا يكون؟ هذا ما لا يكون ألبتة. بل لا بد أن يؤمر وينهى) ا.هـ[٧].

﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾.

(وقد قال في سورة القيامة: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ فهنا ذكر هذا على إمكان النشأة الثانية التي تكون من التراب. ولهذا قال في موضع آخر: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [الحج: ٥] ففي القيامة استدل بخلقه من نطفة فإنه معلوم لجميع الخلق، وفي الحج ذكر خلقه من تراب، فإنه قد علم بالأدلة القطعية. وذكر أول الخلق أدل على إمكان الإعادة) ا.هـ[٨].

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٦١٢ ـ ٦١٣).
(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٩).
(٣) مجموع الفتاوى (٧/ ١٤٢).
(٤) يراجع زاد المسير (٨/ ٤٢٥).
(٥) مجموع الفتاوى (٨/ ٥٢)، (١١/ ٢٥٨)، (١٧/ ١٧٤).
(٦) مجموع الفتاوى (١٦/ ٢٩٩).
(٧) مجموع الفتاوى (١٦/ ٤٩٥).
(٨) مجموع الفتاوى (١٦/ ٢٦١ ـ ٢٦٢).

سورة الإنسان

وقال في نزول هذه السورة راداً على الرافضة:

(وأما سورة: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ [الإنسان: ١] فمن قال إنها نزلت فيه وفي فاطمة وابنيهما فهذا كذب[١]؛ لأنها مكية والحسن والحسين إنما ولدا في المدينة، وبتقدير صحته فليس فيه أنه من أطعم مسكيناً ويتيماً وأسيراً أفضل الصحابة، بل الآية عامة مشتركة فيمن فعل هذا، وتدل على استحقاقه للثواب على هذا العمل مع أن غيره من الأعمال من الإيمان بالله والصلاة في وقتها والجهاد أفضل منه) ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (قال الرافضي «البرهان الحادي والعشرون: سورة «هل أتى».

في تفسير الثعلبي من طرق مختلفة قال: مرض الحسن والحسين، فعادهما جدهما رسول الله ﷺ وعامة العرب، فقالوا: يا أبا الحسن لو نذرت على ولديك. فنذر صوم ثلاثة أيام، وكذا نذرت أمهما فاطمة وجاريتهم فضة، فبرئا، وليس عند آل محمّد قليل ولا كثير، فاستقرض عليّ ثلاثة آصع من شعير، فقامت فاطمة إلى صاع فطحنته، وخبزت منه خمسة أقراص، لكل واحد منهم قرصاً، وصلّى عليّ مع النبي ﷺ المغرب، ثم أتى المنزل فوضع الطعام بين يديه، إذ أتاهم مسكين، فقال: السلام عليكم أهل بيت

---

(١) حديث هل أتى ونزولها ذكره الثعلبي في تفسيره المخطوط؛ كما في الفتح السماوي رقم (٩٧٢) وله طريقان: الأولى فيها القاسم بن مهران (ويقال ابن بهرام) كُذّب وذكره الحافظ في اللسان (٤/٤٥٨ ـ ٤٥٩) (٧/١١٨) وعزا له هذا الحديث، والمجروحين لابن حبان (٢/٢١٤).
والطريق الثاني فيه الكلبي وصالح باذام، والكلبي متهم وصالح ضعيف. ومن طريق الثعلبي نقله الخطيب الخوارزمي في المناقب (٩٧٢)، وله طريق أخرى مرسلة عن طاووس، رواها المغازلي في مناقب علي رقم (٣٢٠) وفي سندها محمّد بن مروان السدّي وهو كذاب وليث بن أبي سليم ضعيف، والحديث حكم بوضعه الذهبي، وابن حجر، والسيوطي، والمناوي والشوكاني وغيرهم والله تعالى أعلم.
وللحكيم الترمذي في كتابه «نوادر الأصول» (ص٦٥) كلام جميل في نقده.

(٢) مجموع الفتاوى (٤/٤١٩).

محمّد ﷺ، مسكين من مساكين المسلمين، أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنة، فسمعه عليّ، فأمر بإعطائه، فأعطوه الطعام، ومكثوا يومهم وليلتهم لم يذوقوا شيئاً إلا الماء القراح.

فلما كان اليوم الثاني قامت فاطمة فخبزت صاعاً، وصلى علي مع النبي ﷺ ثم أتى المنزل فوضع الطعام بين يديه، فأتاهم يتيم، فوقف بالباب، وقال: السلام عليكم أهل بيت محمّد ﷺ، يتيم من أولاد المهاجرين استشهد والدي يوم العقبة، أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنة، فسمعه عليّ، فأمر بإعطائه، فأعطوه الطعام، ومكثوا يومين وليلتين لم يذوقوا إلا الماء القراح.

فلما كان اليوم الثالث قامت فاطمة إلى الصاع الثالث، فطحنته وخبزته، وصلى عليّ مع النبي ﷺ، ثم أتى المنزل فوُضع الطعام بين يديه، إذ أتى أسير فقال: أتأسروننا وتشردوننا ولا تطعموننا، أطعموني فإني أسير محمّد أطعمكم الله من موائد الجنة. فسمعه عليّ، فأمر بإعطائه، فأعطوه الطعام، ومكثوا ثلاثة أيام بلياليها لم يذوقوا شيئاً إلا الماء القراح.

فلما كان اليوم الرابع، وقد وفّوا نذورهم، أخذ علي الحسن بيده اليمنى، والحسين بيده اليسرى، وأقبل على رسول الله ﷺ، وهم يرتعشون كالفراخ من شدة الجوع، فلما بصرهما النبي ﷺ قال: يا أبا الحسن ما أشد ما يسوؤني ما أرى بكم، انطلق بنا إلى منزل ابنتي فاطمة، فانطلقوا إليها، وهي في حجرتها، قد لصق بطنها ظهراً من شدة الجوع، وغارت عيناها، فلما رآها النبي ﷺ قال: واغوثاه، بالله أهل بيت محمّد يموتون جوعاً! فهبط جبريل على محمّد ﷺ، فقال: يا محمّد خذ ما هنّأك الله في أهل بيتك، فقال ما آخذ يا جبريل؟ فأقرأه: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ﴾ [الإنسان: ١].

وهي تدل على فضائل جمة لم يسبقه إليها أحد، ولا يلحقه أحد، فيكون أفضل من غيره، فيكون هو الإمام».

والجواب من وجوه: **أحدها**: المطالبة بصحة النقل، كما تقدم. ومجرد رواية الثعلبي والواحدي وأمثالهما لا تدل على أنه صحيح باتفاق أهل السنة والشيعة. ولو تنازع اثنان في مسألة من مسائل الأحكام والفضائل، واحتج أحدهما بحديث لم يذكر ما يدل على صحته، إلا رواية الواحد من هؤلاء له في تفسيره، لم يكن ذلك دليلاً على صحته، ولا حجة على منازعه باتفاق العلماء.

وهؤلاء من عادتهم يروون ما رواه غيرهم، وكثير من ذلك لا يعرفون هل هو صحيح أم ضعيف، ويروون من الأحاديث الإسرائيليات ما يعلم غيرهم أنه باطل في نفس الأمر، لأن وصفهم النقل لما نُقل، أو حكاية أقوال الناس، وإن كان كثير من هذا وهذا باطلاً، وربما تكلموا على صحة بعض المنقولات وضعفها، ولكن لا يطردون هذا ولا يلتزمونه.

الثاني: أن هذا الحديث من الكذب الموضوع باتفاق أهل المعرفة بالحديث، الذي هم أئمة هذا الشأن وحكامه. وقول هؤلاء هو المنقول في هذا الباب، ولهذا لم يرو هذا الحديث في شيء من الكتب التي يُرجع إليها في النقل، لا في الصحاح، ولا في المسانيد، ولا في الجوامع، ولا السنن، ولا رواه المصنفون في الفضائل، وإن كانوا قد يتسامحون في رواية أحاديث ضعيفة، كالنسائي فإنه صنّف خصائص عليّ، وذكر فيها عدة أحاديث ضعيفة، ولم يرو هذا وأمثاله.

وكذلك أبو نُعيم في «الخصائص»، وخيثمة بن سليمان، والترمذي في «جامعه» روى أحاديث كثيرة في فضائل عليّ، كثير منها ضعيف، ولم يرو مثل هذا لظهور كذبه.

وأصحاب السير، كابن إسحاق وغيره، يذكرون من فضائله أشياء ضعيفة، ولم يذكروا مثل هذا، ولا رووا مما قلنا فيه: إنه موضوع باتفاق أهل النقل، من أئمة أهل التفسير، الذين ينقلونها بالأسانيد المعروفة، كتفسير ابن جُريج، وسعيد بن أبي عروبة، وعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وأحمد، وإسحاق، وتفسير بقي بن مخلد، وابن جرير الطبري، ومحمد بن أسلم الطوسي، وابن أبي حاتم، وأبي بكر بن المنذر، وغيرهم من العلماء الأكابر، الذي لهم في الإسلام لسان صدق، وتفاسيرهم متضمنة للمنقولات التي يعتمد عليها في التفسير

الوجه الثالث: أن الدلائل على كذب هذا كثيرة. منها: أن عليّاً إنما تزوج فاطمة بالمدينة، ولم يدخل بها إلا بعد غزوة بدر، كما ثبت ذلك في الصحيح. والحسن والحسين وُلدا بعد ذلك، سنة ثلاث أو أربع. والناس متفقون على أن علياً لم يتزوج فاطمة إلا بالمدينة ولم يولد له ولد إلا بالمدينة. وهذا من العلم العام المتواتر، الذي يعرفه كل من عنده طرف من العلم بمثل هذه الأمور.

وسورة ﴿هَلْ أَتَىٰ﴾ [الإنسان: ١] مكيّة باتفاق أهل التفسير والنقل، لم يقل أحد

منهم: إنها مدنية. وهي على طريقة السور المكيّة في تقرير أصول الدين المشتركة بين الأنبياء، كالإيمان بالله واليوم الآخر، وذكر الخلق والبعث. ولهذا قيل: إنه كان النبي ﷺ يقرؤها مع: ألم تنزيل) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله حاكياً قول الرافضي: (ثم لو أنفق لوجب أن ينزل فيه قرآن، كما أنزل في علي: ﴿هَلْ أَتَىٰ﴾ [الإنسان: ١][2].

والجواب: أما نزول: ﴿هَلْ أَتَىٰ﴾ في علي، فمما اتفق أهل العلم بالحديث على أنه كذب موضوع، وإنما يذكره من المفسرين من جرت عادته بذكر أشياء من الموضوعات. والدليل الظاهر على أنه كذب: أن سورة ﴿هَلْ أَتَىٰ﴾ مكية باتفاق الناس، نزلت قبل الهجرة، وقبل أن يتزوج علي بفاطمة، ويولد الحسن والحسين، وقد بسط الكلام على هذه القضية في غير موضع، ولم ينزل قط قرآن في إنفاق علي بخصوصه لأنه لم يكن له مال، بل كان قبل الهجرة في عيال النبي ﷺ وبعد الهجرة كان أحياناً يؤجر نفسه: كل دلو بتمرة، ولما تزوج بفاطمة لم يكن له مهر إلا درعه، وإنما أنفق على العرس ما حصل له من غزوة بدر.

وفي الصحيحين[3] عن علي رضي الله عنه قال: كانت لي شارف من نصيبي من المغنم يوم بدر، وأعطاني رسول الله ﷺ شارفاً من الخمس، فلما أردت أن ابتني بفاطمة وأعدت رجلاً صواغاً من بني قينقاع يرتحل معي، فنأتي بإذخر أردت أن أبيعه من الصواغين، فأستعين به في وليمة عرسي، فبينا أنا أجمع لشارفي متاعاً من الأقتاب والغرائر والحبال، وشارفاي مناخان إلى جانب بيت رجل من الأنصار قال: وحمزة يشرب في ذلك البيت، وقينة تغنيه، فقالت:

ألا يا حمزُ للشرف النواء

فثار إليها حمزة فاجتب أسنمتها، وبقر خواصرها، وذكر الحديث، في البخاري، وذلك قبل تحريم الخمر.

وأما الصديق رضي الله عنه فكل أية نزلت في مدح المنفقين في سبيل الله فهو أول المرادين بها من الأمة، مثل قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ

(١) منهاج السنة (٧/ ١٧٧ ـ ١٧٩).
(٢) هذا كلام الرافضي اللعين ابن المطهر في تنقصه من الصديق رضي الله عنه.
(٣) البخاري (٤/ ٧٨ ـ ٧٩) مسلم (٣/ ١٥٦٨ ـ ١٥٧٠).

أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟﴾ [الحديد: ١٠] وأبو بكر أفضل هؤلاء وأولهم.

وكذلك قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ [التوبة: ٢٠] وقوله: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨﴾ [الليل] فذكر المفسرون مثل ابن جرير الطبري، وعبد الرحمن بن أبي حاتم وغيرهما، بالأسانيد عن عروة بن الزبير وعبد الله بن الزبير وسعيد ابن المسيب وغيرهم، أنها نزلت في أبي بكر[١]) ا.هـ[٢].

﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾.

(وهكذا قال مجاهد في قوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ قال: السعادة والشقاوة[٣]، وقال عكرمة[٤]: سبيل الهدى. رواهما عبد بن حميد) ا.هـ[٥].

وقال رحمه الله: (وكذلك قوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ قيل هو الهدى المشترك، وهو أنه بين له الطريق التي يجب سلوكها، والطريق التي لا يجب سلوكها، وقيل بل هدى كلا من الطائفتين إلى ما سلكه من السبيل: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾) ا.هـ[٦].

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦﴾.

(وكذلك قوله: ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ ضمن يروي بها) ا.هـ[٧].

وقال رحمه الله: (فإذا قال القائل: ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ أن الباء زائدة كان من قبله علمه؛ فإن الشارب قد يشرب ولا يروي؛ فإذا قيل: يشرب منها: لم يدل على الري، وإذا ضمن معنى الري فقيل: ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ كان دليلاً على الشرب الذي يحصل به الري، وهذا شرب خاص دل عليه لفظ الباء) ا.هـ[٨].

وقال رحمه الله: (وقوله: ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ ضمن معنى يروي فعدى بحرف الباء مع بقاء معنى الشرب) ا.هـ[٩].

---

(١) سيمر ذكرها في سورة الليل.
(٢) منهاج السنة (٨/ ٥٥٣ ـ ٥٥٥).
(٣) ابن جرير (٢٩/ ٢٠٦).
(٤) ابن كثير (٤/ ٤٥٣).
(٥) مجموع الفتاوى (١٦/ ١٤٣).
(٦) مجموع الفتاوى (١٥/ ٩٩).
(٧) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٤٢).
(٨) مجموع الفتاوى (٢٠/ ٤٢٤).
(٩) الاستغاثة (٨٢).

﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾.

(ولم يتبين له أن الأمر بوفاء النذر مقيد بطاعة الله، ولهذا نقل مالك في «موطئه» الحديث الذي أخرجه البخاري بعده عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه»[١] مع أن القرآن ليس فيه أمر بالوفاء بالنذر بلفظ النذر مطلقاً؛ إذ قوله: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ خبر وثناء) ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (وقال: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ ومن طلب من الفقراء الدعاء أو الثناء خرج من هذه الآية) ا.هـ[٣].

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾.

(ولهذا قال المخلصون: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾ فأخبروا أنهم لا يريدون من المنعم عليهم لا جزاءً ولا شكوراً، ولم يقولوا لا نريد ذلك من أحد لا من الله ولا من غيره؛ فإن هذا إما ممتنع وإما سفاهة، ولهذا كان المحققون للإخلاص لا يطلبون من المحسن إليه لا دعاءً ولا ثناءً ولا غير ذلك فإنه إرادة جزاء منه؛ فإن الدعاء نوع من الجزاء على الإحسان والإساءة؛ كما جاء في الحديث: «من أسدى إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه به فادعوا له حتى تعلموا أنكم قد كافأتموه»[٤] وقال الشاعر:

ارفع صغيرك لا يجزيك ضعفه ... يوماً فتدركه العواقب قد نمى
يجزيك أو يثني عليك وإن من ... أثنى عليك بما فعلت فقد جزى) ا.هـ[٥]

وقال رحمه الله: (قال العلماء في قوله: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ لم يقولوه بألسنتهم وإنما علمه الله من قلوبهم، ولهذا لم يستحبوا أن يتلفظ بنية الإخلاص) ا.هـ[٦].

﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠﴾.

(وقد قيل في اليوم الشديد العذاب إنه: ﴿يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾) ا.هـ[٧].

---

(١) مرّ تخريجه.
(٢) مجموع الفتاوى (٣٥/ ٣٤٤).
(٣) مجموع الفتاوى (١١/ ١١).
(٤) أبو داود (١٦٧٢) والنسائي (٥/ ٨٢) أحمد (٢/ ٦٨) والبخاري في الأدب المفرد (٢١٦) والطيالسي (١٨٩٥) والحاكم (١/ ٤١٢) (٢/ ٦٣ ـ ٦٤) والحديث صحيح.
(٥) بيان تلبيس الجهمية (١/ ١٩٢ ـ ١٩٣).
(٦) شرح العمدة ـ الصلاة (٥٩١).
(٧) مجموع الفتاوى (٦/ ١٢١).

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾.

(وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾ فإن هذا يتناول صلاة العشاء، والوتر، وقيام الليل لقوله: ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾) ا.هـ[1].

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾.

(ومثله قوله: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ فإن «الكفور» هم الآثم أيضاً؛ لكنه عطف خاص على عام وقد قيل: هما وصفان لموصوف واحد، وهو أبلغ فإن عطف الصفة على الصفة والموصوف واحد، كقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الأعلى] وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾﴾ [المؤمنون] ونظائر هذا كثيرة.

قال ابن زيد[2]: الآثم، المذنب الظالم والكفور، هذا كله واحد قال ابن عطية: هو مخير[3] في أنه يعرف الذي ينبغي أن لا يطيعه بأي وصف من هذين؛ لأن كل واحد منهم فهو آثم، وهو كفور، ولم يكن للأمة[4] من الكثرة بحيث يغلب[5] الآثم على المعاصي، قال: واللفظ إنما يقتضي نهي الإمام عن طاعة آثم من العصاة، أو كفور من المشركين.

وقال أبو عبيدة وغيره[6]: ليس فيها تخيير «أو» بمعنى الواو[7] وكذلك قال طائفة: منهم البغوي[8] وابن الجوزي[9].

وقال المهدي[10]: أي لا تطع من أثم أو كفر. ودخول «أو» يوجب أن لا تطيع

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٣/ ٨٧).
(٢) ابن جرير (٢٩/ ٢٢٤).
(٣) في المطبوع (تخيير).
(٤) في المطبوع (ولم يكن للأمة حينئذ من الكثرة).
(٥) في المطبوع (يقع).
(٦) زيادة لا توجد في المطبوع.
(٧) في المطبوع [أو بمعنى الواو وليس في هذا تخيير] انتهى كلام ابن عطية (١٦/ ١٩٣).
(٨) البغوي (٤/ ٣٩٩).
(٩) زاد المسير (٨/ ٤٤١).
(١٠) هو المهدوي صاحب التفسير وليس المهدي وقد ترجمنا له، وتفسيره جزء منه لا زال مخطوطاً =

كل واحد منهما على انفراده. ولو قال: ولا تطع منهما آثماً أو كفوراً لم يلزم النهي إلا في حال اجتماع الوصفين) ا.هـ[1].

وفي رسالة مستقلة عن سورة الدهر قال شيخ الإسلام:

(اعلم أن سورة ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ [الإنسان: ١] سورة عجيبة الشأن من سور القرآن على اختصارها، فإن الله سبحانه ابتدأها بذكر كيفية خلق الإنسان من النطفة ذات الأمشاج والأخلاط التي لم يزل بقدرته ولطفه وحكمته يصرفه عليها أطواراً، وينقله من حال إلى حال، إلى أن تمت خلقته وكملت صورته، فأخرجه إنساناً سوياً، سميعاً بصيراً، ثم لما تكامل تمييزه وإدراكه هداه طريقيه الخير والشر، والهدى والضلال، وأنه بعد هذه الهداية إما أن يشكر ربه وإما أن يكفره. ثم ذكر مآل أهل الشكر والكفر، وما أعد لهؤلاء وهؤلاء، وبدأ أولاً بذكر عاقبة أهل الكفر، ثم عاقبة أهل الشكر، وفي آخر السورة ذكر أولاً أهل الرحمة ثم أهل العذاب، فبدأ السورة بأول أحوال الإنسان ـ وهي النطفة ـ وختمها بآخر أحواله ـ وهي كونه من أهل الرحمة أو العذاب ـ ووسطها بأعمال الفريقين، فذكر أعمال أهل العذاب مجملة في قوله: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [الإنسان: ٤] وأعمال أهل الرحمة مفصلة وجزاءهم مفصلاً.

فتضمنت السورة خلق الإنسان وهدايته، ومبدأه وتوسطه ونهايته، وتضمنت المبدأ والمعاد، والخلق والأمر: وهما القدرة والشرع، وتضمنت إثبات السبب وكون العبد فاعلاً مريداً حقيقةً، وأن فاعليته ومشيئته إنما هي بمشيئة الله، ففيها الرد على طائفتين: القدرية والجبرية، وفيها ذكر أقسام بني آدم كلهم، فإنهم إما أهل شمال ـ وهم الكفار ـ أو أهل يمين: وهم نوعان: أبرار مقربون، وذكر سبحانه أن شراب الأبرار يمزج من شراب عباده المقربين لأنهم مزجوا أعمالهم، ويشربه المقربون صرفاً خالصاً كما أخلصوا أعمالهم، وجعل سبحانه شراب المقربين من الكافور الذي فيه من التبريد والقوة ما يناسب برد اليقين وقوته لما حصل لقلوبهم ووصل إليها في الدنيا، مع ما في ذلك من مقابلته للسعير.

وأخبر سبحانه أن لهم شراباً آخر ممزوجاً من الزنجبيل لما فيه من طيب الرائحة

= وقد حقق بعض منه رسائل علمية في الجامعة الأردنية.

(١) مجموع الفتاوى (٢١/٣٨٨ ـ ٣٨٩).

ولذة الطعم، والحرارة التي توجب تغير برد الكافور وإذابة الفضلات وتطهير الأجواف، ولهذا وصفه سبحانه بكونه شراباً طهوراً أي مطهراً لبطونهم.

فوصفهم سبحانه بجمال الظاهر والباطن، كما قال: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١] فالنضرة جمال وجوههم، والسرور جمال قلوبهم، كما قال: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾ [المطففين].

وقريب من هذا قول امرأة العزيز في يوسف: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ﴾ [يوسف: ٣٢].

فأخبرت بجمال ظاهره حين أشارت إليه بالخروج عليهن ثم ضمت إلى ذلك إخبارها بأن باطنه أجمل من ظاهره: بأن روادته فأبى إلا العفة والحياء والاستعصام.

ثم ذكر سبحانه من أعمال الأبرار ما ينبه سامعه على جمعهم لأعمال البر كلها، فذكر سبحانه وفاءهم بالنذر، وخوفهم من ربهم، وإطعامهم الطعام على محبتهم له، وإخلاصهم لربهم في طاعتهم.

وذكر سبحانه الوفاء بالنذر وهو أضعف الواجبات، فإن العبد هو الذي أوجبه على نفسه بالتزامه، فهو دون ما أوجبه الله سبحانه عليه، فإذا وفى لله بأضعف الواجبين الذي التزمه هو؛ فهو بأن يوفي بالواجب الأعظم الذي أوجبه الله عليه أولى وأحرى.

ومن ههنا قال من قال من المفسرين: المقربون يوفون بطاعة الله ويقومون بحقه عليهم؛ وذلك أن العبد إذا نذر لله طاعة فوفى بها فإنما يفعل ذلك لكونها صارت حقاً لله يجب الوفاء بها، وهذا موجود في حقوقه كلها، فهي في ذلك سواء.

ثم أخبر عنهم بأنهم يخافون اليوم العسير القمطرير، وهو يوم القيامة؛ ففي ضمن هذا الخوف إيمانهم باليوم الآخر، وكفهم عن المعاصي التي تضرهم في ذلك اليوم، وقيامهم بالطاعات التي ينفعهم فعلها ويضرهم تركها في ذلك اليوم.

ثم أخبر عنهم بإطعام الطعام على محبتهم له، وذلك يدل على نفاسته عندهم وحاجتهم إليه، وما كان كذلك فالنفوس به أشح، والقلوب به أعلق واليد له أمسك، فإذا بذلوه في هذه الحال، فهم لما سواه من حقوق العباد أبذل.

فذكر من حقوق العباد بذل قوت النفس على نفاسته وشدة الحاجة منبهاً على الوفاء بما دونه، كما ذكر من حقوقه الوفاء بالنذر منبهاً على الوفاء بما هو فوقه وأوجب

منه، ونبه بقوله: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [الإنسان: ٨] أنه لولا أن الله سبحانه أحب إليهم منه لما آثروه على ما يحبونه، فآثروا المحبوب الأعلى على الأدنى.

ثم ذكر أن مصرف طعامهم إلى المسكين واليتيم والأسير الذين لا قوة لهم ينصرونهم بها، ولا مال لهم يكافئونهم به، ولا أهل عشيرة يتوقعون منهم مكافأتهم كما يقصده أهل الدنيا والمعاوضون بإنفاقهم وإطعامهم. ثم أخبر عنهم أنهم إنما فعلوا ذلك لوجه الله، وأنهم لا يريدون ممن أطعموه عوضاً من أموالهم ولا ثناء عليهم بألسنتهم، كما يريده من لا إخلاص له بإحسانه إلى الناس من معاوضتهم أو الشكور منهم، فتضمن ذلك المحبة والإخلاص والإحسان.

ثم أخبر سبحانه عنهم بما صدقهم عليه قبل أن يقولوه حيث قالوا: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [الإنسان] فصدقهم قبل قولهم، إذ يقول تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الإنسان] ثم أخبر سبحانه بأنه وقاهم شر ما يخافونه ولقاهم فوق ما كانوا يأملونه.

وذكر سبحانه أصناف النعيم الذي حياهم به من المساكن والملابس والمجالس والثمار والشراب والخدم والنعيم والملك الكبير.

ولما كان في الصبر من حبس النفس والخشونة التي تلحق الظاهر والباطن من التعب والنصب والحرارة ما فيه كان الجزاء عليه بالجنة التي فيها السعة، والحرير الذي فيه اللين والنعومة، والاتكاء الذي يتضمن الراحة، والظلال المنافية للحر.

ثم ذكر سبحانه لون ملابس الأبرار وأنها ثياب سندس خضر وإستبرق، وحليتهم وأنها أساور من فضة، فهذه زينة ظواهرهم ثم ذكر زينة بواطنهم، وهو الشراب الطهور، وهو بمعنى التطهير.

فإن قيل: فلم اقتصر من آنيتهم وحليتهم على الفضة دون الذهب ومعلوم أن الجنان جنتان من فضة آنيتهما وحليتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وحليتهما وما فيهما.

قيل: سياق هذه الآيات إنما هو في وصف الأبرار ونعيمهم مفصلاً دون تفصيل جزاء المقربين، فإنه سبحانه إنما أشار إليه إشارة تنبه على ما سكت عنه، وهو أن شراب الأبرار يمزج من شرابهم.

فالسورة مسوقة بصفة الأبرار وجزائهم على التفصيل، وذلك ـ والله أعلم ـ لأنهم

أعم من المقربين وأكثر منهم. ولهذا يخبر سبحانه عنهم بأنهم ثلة من الأولين وثلة من الآخرين، وعن المقربين السابقين بأنهم ثلة من الأولين وقليل من الآخرين.

وأيضاً فإن في ذكر جزاء الأبرار تنبيهاً على أن جزاء المقربين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وأيضاً فإنه سبحانه ذكر أهل الكفر وأهل الشكر. وأهل الشكر نوعان: أبرار أهل يمين، ومقربون سابقون، وكل مقرب سابق فهو من الأبرار، ولا ينعكس فاسم الأبرار والمقربين كاسم الإسلام والإيمان أحدهما أعم من الآخر.

وأيضاً فإنه سبحانه أخبر أن هذا جزاء سعيهم المشكور، وكل من الأبرار والمقربين سعيهم مشكور، فذكر سبحانه السعي المشكور والسعي المسخوط.

ثم ذكر سبحانه نبيه ﷺ بما أنعم عليه، من تنزيل القرآن عليه وأمره بأن يصبر لحكمه، وهو يعم الحكم الديني الذي أمره به في نفسه وأمره بتبليغه، والحكم الكوني الذي يجري عليه من ربه، فإنه سبحانه امتحن عباده وابتلاهم بأمره ونهيه، وهو حكمه الديني، وابتلاهم بقضائه وقدره، وهو حكمه الكوني، وفرض عليهم الصبر على كل واحد من الحكمين، وإن كان الحكم الديني في هذه الآية أظهر إرادة، وأنه أمر بالصبر على تبليغه والقيام بحقوقه.

ولما كان صبره عليه لا يتم إلا بمخالفته لمن دعاه إلى خلافه من كل آثم أو كفور، نهاه عن طاعة هذا وهذا، وأتى بحرف «أو» دون «الواو» ليدل على أنه منهي عن طاعة أيهما كان: إما هذا وإما هذا، فكأنه قيل له: لا تطع أحدهما، وهو أعم في النهي من كونه منهياً عن طاعتهما فإنه لو قيل له: لا تطعهما، أو لا تطع آثماً وكفوراً لم يكن صريحاً في النهي عن طاعة كل منهما بمفرده.

ولما كان لا سبيل إلى الصبر إلا بتعويض القلب بشيء هو أحب إليه من فوات ما يصبر على فوته أمره بأن يذكر ربه سبحانه بكرة وأصيلاً ـ فإن ذكره أعظم العون على تحمل مشاق الصبر ـ وأن يصبر لربه بالليل فيكون قيامه بالليل عوناً على ما هو بصدده بالنهار، ومادة لقوته ظاهراً وباطناً، ولنعيمه عاجلاً وآجلاً.

ثم أخبر سبحانه عما يمنع العبد من إيثار ما فيه سعادته في الدنيا والآخرة، وهو حب العاجلة وإيثارها على الآخرة تقديماً لداعي الحس على داعي العقل.

ثم ذكر سبحانه خلقهم وإحكامه واتقانه بما شد من أسرهم، وهو ائتلاف الأعضاء

والمفاصل والأوصال وما بينها من الرباطات وشد بعضها ببعض، وحقيقته القوة، ومنه قول الشاعر:

من كل مجتنب شديد أسره سلس القياد تخاله مختالاً[1]

ولا يكون ذلك إلا فيما له شد ورباط، ومنه الإسار، وهو الحبل الذي يشد به الأسير.

ثم أخبر سبحانه أنه قادر على أن يبدل أمثالهم بعد موتهم، وأنه إذا شاء ذلك فعله. و«إذا» للمحقق، فهذا التبديل واقع لا محالة، فهو الإعادة التي هي مثل البداءة.

هذا هو معنى الآية، ومن قال غير ذلك لم يصب معناها، ولا توحشك لفظة «المثل»، فإن المعاد مثل للمبدوء وإن كان هو بعينه، فهو معاد، أو هو مثله من جهة المغايرة بين كونه مبدءاً ومعاداً. وهذا كالدار إذا تهدمت وأعيدت بعينها فهي الأولى، وكذلك الصلاة المعادة هي الأولى وهي مثلها.

وقد نطق القرآن بأنه سبحانه يعيدهم ويعيد أمثالهم إذا شاء، وكلاهما واحد فقال: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩] وقال تعالى: ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥] وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الروم: ٢٧] وقال: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ [يس] وقال: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الواقعة].

فهذا كله معاد الأبدان، وقد صرح سبحانه بأنه خلق جديد في موضعين من كتابه. وهذا الخلق الجديد هو «المثل».

ثم ختم سبحانه السورة بالشرع والقدر كما افتتحها بالخلق والهداية فقال: ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾ فهذا شرعه ومحل أمره ونهيه ثم قال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠] فهذا قضاؤه وقدره، ثم ذكر الاسمين الموجبين للتخصيص وهما اسم: العليم الحكيم. وقوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ فأخبر أن مشيئتهم موقوفة على مشيئته، ومع هذا فلا يوجب ذلك حصول الفعل منهم، إذ أكثر ما فيه أنه جعلهم شائين، ولا يقع الفعل إلا حين يشاؤه منهم، كما قال تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ ﴿٥٥﴾ وَمَا

(١) الشعر للأخطل، ديوانه (٤٦).

يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [المدثر] وقال: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [التكوير]، ومع هذا فلا يقع الفعل منهم حتى يريد من نفسه إعانتهم وتوفيقهم. فهنا أربع إرادات: إرادة البيان، وإرادة المشيئة، وإرادة الفعل، وإرادة الإعانة، والله أعلم، آخره، والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين وسلم تسليماً) ا.هـ[1].

(١) جامع الرسائل (١/ ٦٩ ـ ٧٧) وهي رسالة كاملة نشرها محمد رشاد سالم رحمه الله في جامع الرسائل.

سورة المرسلات

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١﴾.

(و«المرسلات» سواء كانت هي الملائكة النازلة بالوحي والمقسم عليه الجزاء في الآخرة، أو الرياح، أو هذا وهذا، فهي معلومة أيضاً) ا.هـ[١].

﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ۝٢٣﴾.

(وقد يستدل بقوله: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠﴾ إلى قوله: ﴿فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ على قول من جعله من القدرة، فإنه يتناول القدرة على المخلوقين وإن كان سبحانه قادراً أيضاً على خلقه، فالقدرة على خلقه قدرة عليه، والقدرة عليه قدرة على خلقه، وجاء أيضاً الحديث منصوصاً في مثل قول النبي ﷺ لأبي مسعود لما رآه يضرب عبده «لله أقدر عليك منك على هذا» ا.هـ[٢].

فهذا فيه بيان قدرة الرب على عين العبد، وأنه أقدر عليه منه على عبده، وفيه إثبات قدرة العبد) ا.هـ[٣].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٢٠).
(٢) مسلم (١٦٥٩).
(٣) مجموع الفتاوى (٨/ ١٢).

سورة النبأ

﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾﴾.

(ولفظ الضياء والنور ونحو ذلك، يراد به الشيء بنفسه المستنير كالشمس والقمر وكالنار، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥].

وقال: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾﴾.

وسمّى ـ سبحانه ـ الشمس سراجاً وضياء، لأن فيها ـ مع الإنارة والإشراق ـ تسخيناً وإحراقاً، فهي بالنار أشبه، بخلاف القمر فإنه ليس فيه ـ مع الإنارة ـ تسخيناً، فلهذا قال: ﴿جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥].

والمقصود هنا، أن لفظ الضياء والنور ونحو ذلك، يراد به الشيء المستنير المضيء القائم بنفسه، كالشمس والقمر والنار، ويراد به الشعاع الذي يحصل بسبب ذلك في الهواء والأرض، وهذا الثاني عرض قائم بغيره ليس هو الأول، ولا صفة قائمة بالأول، ولكنه حادث بسببه.

فالشعاع الذي هو الضوء والنور الحاصل على الماء والطين والهواء وغير ذلك، هو عرض قائم بغيره، وليس هو متحداً به البتة) ا.هـ[1].

﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾.

(وأما القول بفناء النار: ففيها قولان معروفان عن السلف والخلف، والنزاع في ذلك معروف عن التابعين، ومن بعدهم.

وهذا أحد المأخذين في دوام عذاب من يدخلها، فإن الذين يقولون: إن عذابهم له حد ينتهي إليه ليس بدائم، كدوام نعيم الجنة قد يقولون: إنها قد تفنى، وقد يقولون: إنهم يخرجون منها، فلا يبقى فيها أحد، لكن قد يقال: إنهم لم يريدوا بذلك أنهم يخرجون مع بقاء العذاب فيها على غير أحد، بل يفنى عذابها، وهذا هو معنى فنائها.

(١) الجواب الصحيح (٤/ ٣٦٨).

[وقد نقل هذا القول عن عمر وابن مسعود، وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري وغيرهم].

[وقد روى عبد بن حميد ـ وهو من أجل علماء الحديث ـ في تفسيره المشهور، قال: أنا سليمان بن حرب، أنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن الحسن البصري، قال: قال عمر: لو لبث أهل النار في النار كقدر رمل عالج، لكان لهم على ذلك يوم يخرجون فيه][1].

وقال: أنبأنا حجاج بن منهال، عن حماد بن سلمة، عن حميد، عن الحسن، أن عمر بن الخطاب قال: (لو لبث أهل النار في النار عدد رمال عالج، لكان لهم يوم يخرجون فيه)[2].

ذكر ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ٢٣﴾.

وهذا يبين أن مثل هذا الشيخ الكبير من علماء الحديث والسنة يروي عن مثل هؤلاء الأئمة في الحديث والسنة مثل سليمان بن حرب، الذي هو من أجل علماء السنة، والحديث، ومثل حجاج بن منهال في كلامهما عن حماد بن سلمة مع جلالته في العلم، والسنة، والذي يروى من وجهين: من طريق ثابت، ومن طريق حميد هذا عن الحسن البصري الذي يقال إنه أعلم من بقي من التابعين في زمانه، يرويه عن عمر بن الخطاب، وإنما سمعه الحسن من بعض التابعين، فسواء كان هذا قد حفظ هذا عن عمر، أو لم يحفظ، كان مثل هذا الحديث متداولاً بين هؤلاء العلماء الأئمة لا ينكرونه، وهؤلاء كانوا ينكرون على من خرج عن السنة من الخوارج، والمعتزلة، والمرجئة، والجهمية.

وكان أحمد بن حنبل يقول: (أحاديث حماد بن سلمة هي الشجا في حلوق المبتدعة).

فهؤلاء من أعظم أعلام أهل السنة الذين ينكرون من البدع ما هو دون هذا لو كان هذا القول عندهم من البدع المخالفة للكتاب، والسنة، والإجماع كما يظنه طائفة من الناس.

وعبد بن حميد ذكر هذا في تفسير قوله تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ٢٣﴾، ليبين قول

---

(١) أعلّ هذا الأثر بالانقطاع بين الحسن وعمر، راجع قول الصنعاني في كشف الأستار (ص٦٥) والألباني رحمه الله في السلسلة الضعيفة (٢/ ٧٣) وتعليقه على كشف الأستار.

(٢) نفس الكلام السابق عليه.

من قال: الأحقاب لها أمد ينفذ، ليس كالرزق الذي مَا لَهُ من نفاد، ولا ريب أنه من قال هذا القول، قول عمر، ومن نقله عنه، إنما أرادوا بذاك جنس أهل النار الذين هم أهلها.

فأما قوم أصيبوا بذنوب، فأولئك قد علم هؤلاء، وغيرهم، بخروجهم منه، وأنهم لا يلبثون فيها قدر رمل عالج، ولا قريباً من ذلك) ا.هـ[١].

وقال رحمه الله: (فيقال: إنهما لم يريدا ذلك، فإنهما قالا بعد ما يلبثون فيها أحقاباً وهؤلاء هم الكفار المذكورون في قوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّاغِينَ مَآبًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾﴾، وهذا وصف الذين كذبوا بآيات الله ﴿كِذَّابًا﴾ أي تكذيباً، فهو تكذيب مؤكد بالمصدر، ولم أجد نقلاً مشهوراً عن أحد من الصحابة يخالف ذلك، بل أبو سعيد وأبو هريرة هما رويا حديث ذبح الموت[٢]، وأحاديث الشفاعة، وخروج أهل التوحيد وغيرهما، قالا في فناء النار ما قالا، وقد نقل البغوي: روى السُّدِّيُ، عن مرة، عن عبد الله، قال: (لو علم أهل النار أنهم يلبثون في النار عدد حصى الدنيا لفرحوا)[٣].

وقد استفاض عن غير واحد من السلف تقدير الحقب بحد محدود، والأحقاب، جمع حقب، فروى ابن أبي حاتم، عن عطية، عن ابن عباس قال في قوله تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾ قال: «سنين»[٤].

وعن أبي صالح السمّان، عن أبي هريرة قال: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾.

قال: الحقب ثمانون سنة، والسنة ثلاثمائة وستون يوماً، واليوم كألف سنة[٥] اليوم منها كالدنيا كلها.

قال ابن أبي حاتم، وروى عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وهلال الهجري والضحاك، وذكوان، والحسن، وسعيد بن جبير، وقتادة، وعمرو بن ميمون أنهم قالوا: الحقب: ثمانون سنة[٦].

---

(١) الرد على من قال بفناء الجنة والنار (٥٢ ـ ٥٥).
(٢) البخاري (٤٧٣٠).
(٣) البغوي (٤/٤٣٨).
(٤) ذكره صاحب الدر (٦/٣٠٧).
(٥) الطبري (٣٠/١١).
(٦) تفسير ابن كثير (٤/٤٦٣).

وعن هشام، وعن الحسن البصري أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ٢٣﴾ فقال: الله أعلم بالأحقاب فليس فيها عدد إلا الخلود، ولكنه بلغنا أن الحقب الواحد: سبعون ألف سنة، كل يوم من تلك الأيام كألف سنة مما تعدون[١].

وعن هشام، عن الحسن قال: «الأحقاب» لا يدري أحدٌ ما هي؟ ولكن الحقب الواحد سبعون ألف سنة، اليوم منها كألف سنة مما تعدون[٢] وقوله: الله أعلم ما الأحقاب، ولا يدري ما هي؟ يقتضي أن لها عدداً الله أعلم به، ولو كانت لا عدد لها لعلم كل أحد أنه لا عدد لها، ويؤيد ما نقله الحسن، عن عمر بن الخطاب كما تقدم؛ قول الحسن: «ليس فيها عدد إلا الخلود» حق أيضاً، فإنهم خالدون فيها، لا يخرجون منها ما دامت باقية، فأقوال الحسن يُصدق بعضها بعضاً.

وأما خلودهم في النار فهو حق كما أخبر الله.

وعن السدي: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ٢٣﴾ قال: «سبعمائة حقب، كل حقب سبعون سنة، كل سنة ثلاثمائة وستون يوماً، كل يوم كألف سنة مما تعدون»[٣] وعن عبد الله بن عمرو قال: «الحقب: أربعون سنة»[٤].

وقد تنازع الناس في الأحقاب، هل هي مقدرة محدودة؟ على قولين: فعلى قول السدي وغيره: هي محدودة، مقدرة، وهو قول الزجاج، وغيره، لكن قال الزجاج: «المعنى أنهم يلبثون فيها أحقاباً، لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً».

قال الزجاج[٥]: «وبيانه: أن الأحقاب حدّ لعذابهم بالحميم والغسّاق، فإذا انقضت الأحقاب عذبوا بغير ذلك من العذاب».

وهذا الذي قاله الزجاج شاذ، خلاف ما عليه الأولون والآخرون، وهو خلاف ما دلّ عليه القرآن، فإن هذا يقتضي أنهم يبقون بعد الأحقاب فيها، ولكن لا يذوقون البرد والشراب حينئذ، وهذا باطل قطعاً، ثم إذا ذاقوا البرد والشراب فهذا نعيم، فكيف يكونون معذبين فيها بعد ذلك؟

وقال بعضهم: هذه الآية منسوخة، وقيل: «هي في أهل التوحيد» قال عبد الحق بن عطية في «تفسيره»: «ومن الناس من ظن لذكر الأحقاب أن مدة العذاب تنحصر وتتم،

---

(١) الطبري (٣٠/ ١١).
(٢) تفسير الطبري (٣٠/ ١٢).
(٣) ابن كثير (٤/ ٤٦٤).
(٤) ابن كثير (٤/ ٤٦٣).
(٥) زاد المسير (٩/ ٨).

فطلبوا التأويل لذلك»، فقال مقاتل بن حيان: الحقب سبع عشرة ألف سنة وهي منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾ قال: وقد ذكرنا فساد هذا القول.

وقال آخرون: الموصوفون باللبث أحقاباً: عصاة المؤمنين. قال: وهذا أيضاً ضعيف فما بعده من السورة يرد عليه.

وقال آخرون: إنما المعنى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾ غير ذائقين برداً ولا شراباً، فبهذه الحال: يلبثون أحقاباً، ثم يبقى العذاب سرمداً وهم يشربون أشربة جهنم.

والقول الثاني: إنها غير مقدرة، وقال هؤلاء: هذا لا يدل على غاية، لأنه كلما مضى حقب تبعه حقب، ولو أنه قال: لابثين فيها عشرة أحقاب، أو خمسة أحقاب دل على غاية، هذا قول ابن قتيبة وغيره) ا.هـ[1].

﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾﴾.

(وفي قوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ لم يذكر استثناء. فإن أحداً لا يملك من الله خطاباً مطلقاً. إذ المخلوق لا يملك شيئاً يشارك فيه الخالق، كما قد ذكرناه في قوله: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ [الزخرف: ٨٦] أن هذا عام مطلق. فإن أحداً ـ ممن يدعي من دونه ـ لا يملك الشفاعة بحال. ولكن الله إذا أذن لهم شفعوا من غير أن يكون ذلك مملوكاً لهم. وكذلك قوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ هذا قول السلف وجمهور المفسرين.

وقال بعضهم: هؤلاء هم الكفار، لا يملكون مخاطبة الله في ذلك اليوم. قال ابن عطية: قوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ الضمير للكفار. أي لا يملكون ـ من إفضاله وإكماله[2] ـ أن يخاطبوه[3] بمعذرة ولا غيرها[4]. وهذا مبتدع. وهو خطأ محض.

والصحيح: قول الجمهور والسلف: أن هذا عام، كما قال في آية أخرى ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨] وفي حديث التجلي الذي في الصحيح ـ لما ذكر مرورهم على الصراط ـ قال ﷺ: «ولا يتكلم أحد إلا الرسل، ودعوى الرسل: اللهم سلِّم سلِّم». فهذا في وقت المرور على الصراط. وهو بعد الحساب والميزان. فكيف بما قبل ذلك؟) ا.هـ[5].

---

(١) الرد على من قال بفناء الجنة والنار (٦١ ـ ٦٥). والحق أن الجنة والنار خلقتا للبقاء.

(٢) في المطبوع (إجماله).

(٣) في المطبوع (مخاطبوه).

(٤) ابن عطية (١٦/ ٢١٥).

(٥) مجموع الفتاوى (١٤/ ٣٩٧).

﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾.

(ثم قال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾ فقد أخبر: أن «الروح والملائكة» يقومون صفاً، لا يتكلمون، وهذا هو تحقيق قوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ [النبأ: ٣٧] والعرب تقول: ما أملك من أمر فلان أو من فلان شيئاً أي لا أقدر من أمره على شيء. وغاية ما يقدر عليه الإنسان من أمر غيره: خطابه، ولو بالسؤال.

فهم في ذلك الموطن لا يملكون من الله شيئاً، ولا الخطاب. فإنه لا يتكلم أحد إلا بإذنه. ولا يتكلم إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً، قال تعالى: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [الممتحنة: ٤] فقد أخبر الخليل: أنه لا يملك لأبيه من الله من شيء. فكيف غيره؟.

وقال مجاهد أيضاً: ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ قال: حقاً في الدنيا، وعمل به[١]، رواه ـ والذي قبله ـ عبد بن حميد. وروى عن عكرمة[٢] ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾ قال: الصواب قول لا إله إلا الله.

فعلى قول مجاهد: يكون المستثنى: من أتى بالكلم الطيب والعمل الصالح) ا.هـ[٣].

وقال رحمه الله: (والشفاعة يومئذ لا تنفع لا شافعاً ولا مشفوعاً له ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ فهذا الصنف المأذون لهم، المرضي قولهم: هم الذين يحصل لهم نفع الشفاعة) ا.هـ[٤].

﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾﴾.

(والحديث في قول الكافر يوم القيامة ﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا﴾ لما روي من ـ جعل البهائم تراباً ـ معروف. وما أعلم فيه خلافاً) ا.هـ[٥].

وقال رحمه الله: (فالكافر اسم جنس، ليس كافراً بعينه. بل قد جاء في الحديث: «إن البهائم يقتص بعضها من بعض ثم يقال لها: كوني تراباً»[٦] فأعيدت البهائم إلى أصلها) ا.هـ[٧].

---

(١) ابن جرير (٣٠/ ٢٤).
(٢) ابن جرير (٣٠/ ٢٤).
(٣) مجموع الفتاوى (١٤/ ٣٩٨ ـ ٣٩٩).
(٤) مجموع الفتاوى (١٤/ ٣٩٢).
(٥) مختصر الفتاوى المصرية (٢٥٤).
(٦) أحمد (٢/ ٣٦٣).
(٧) جامع المسائل (٤/ ٣٠٢).

وقال رحمه الله راداً على الرافضة:

(وأما قول الرافضي: وهل هذا إلا مساوٍ لقول الكافر: ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾، فهذا جهل منه؛ فإن الكافر يقول ذلك يوم القيامة، حين لا تُقبل توبة، ولا تنفع حسنة. وأما من يقول ذلك في الدنيا، فهذا يقوله في دار العمل على وجه الخشية لله، فيُثاب على خوفه من الله.

وقد قالت مريم: ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾ [مريم: ٢٣] ولم يكن هذا كتمني الموت يوم القيامة.

ولا يُجعل هذا كقول أهل النار، كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ﴾ [الزخرف: ٧٧]، وكذلك قوله: ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ ٤٧﴾ [الزمر] فهذا إخبار عن حالهم يوم القيامة حين لا ينفع توبة ولا خشية) ا.هـ[1].

(١) منهاج السنة (٦/ ١٥ ـ ١٦).

سورة النازعات

وقال في عموم السورة:

(وأما ذكره لعقوبة الدنيا والآخرة ففي سورة: ﴿وَالنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ۝١ وَالنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ۝٢﴾؛ ثم قال: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ۝٧﴾ فذكر القيامة مطلقاً، ثم قال: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝١٥ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٦ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝١٧﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٢٦﴾، ثم ذكر المبدأ والمعاد مفصلاً فقال: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَآءُ بَنَىٰهَا ۝٢٧﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ الطَّآمَّةُ الْكُبْرَىٰ ۝٣٤﴾، إلى قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِىَ الْمَأْوَىٰ ۝٣٩ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِىَ الْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾ [النازعات] إلى آخر السورة) ا.هـ[1].

﴿وَالنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ۝١﴾.

(وأما النازعات غرقا فهي الملائكة القابضة للأرواح، وهذا يتضمن الجزاء، وهو من أعظم المقسم عليه) ا.هـ[2].

﴿فَالْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥﴾.

(قال تعالى فيهم: ﴿فَالْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥﴾ ـ وقال: ﴿فَالْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ۝٤﴾ [الذاريات] وهم الملائكة باتفاق السلف وغيرهم من علماء المسلمين) ا.هـ[3].

﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٦﴾.

وقال رحمه الله: («جبل طور سيناء» وهو (البقعة المباركة) و(الوادي المقدس) الذي ذكره الله في كتابه، وكلم عليه كليمه موسى) ا.هـ[4].

﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ۝١٩﴾.

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ١٤٠).
(٢) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٢٠).
(٣) مجموع الفتاوى (٣٥/ ١٧٧)، الرد على المنطقيين (٤٧١).
(٤) مجموع الفتاوى (٢٧/ ١١٠).

(وقد قال في السورة في قصة فرعون: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ فجمع بين التزكي والهدى والخشية) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (قال موسى لفرعون: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ وعطف عليه ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾﴾ [عبس] لوجوه:

أحدها: أن التزكي يحصل بإمتثال أمر الرسول وإن كان صاحبه لا يتذكر علوماً عنه، كما قال: ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ ثم قال: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢]، فالتلاوة عليهم والتزكية عام لجميع المؤمنين، وتعليم الكتاب والحكمة خاص ببعضهم، وكذلك التزكي عام لكل من آمن بالرسول، وأما التذكر فهو مختص لمن له علوم يذكرها، فعرف بتذكره ما لم يعلمه غيره من تلقاء نفسه.

الوجه الثاني: أن قوله: ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾﴾ يدخل فيه النفع، قليله وكثيره، والتزكي أخص من ذلك.

الثالث: أن التذكر سبب التزكي، فإنه إذا تذكر خاف ورجا، فتزكى، فذكر الحكم وذكر سببه، ذكر العمل وذكر العلم، وكل منهما مستلزم للآخر.

فإنه لا يتزكى حتى يتذكر ما يسمعه من الرسول، كما قال: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الأعلى] فلا بد لكل مؤمن من خشية وتذكر، وهو إذا تذكر فإنه ينتفع، وقد تتم المنفعة، فيتزكى) ا.هـ[2].

﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾.

(قال تعالى: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ فلله تعالى آية كبيرة وصغيرة وقال عن نبيه محمد ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [النجم]، فالآيات الكبرى مختصة بهم وأما الآيات الصغرى فقد تكون للصالحين) ا.هـ[3].

﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾.

(فقد صح من الله سبحانه أنه أخذه نكالا على ذلك وجعله في ذلك عبرة، وجعل المناداة بهذه الكلمة عينها عين الكفر حيث قال: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ٢٤٣).
(٢) مجموع الفتاوى (١٦/ ١٨٥ ـ ١٨٦).
(٣) النبوات (١٩٨).

وقد قالوا: إن قوله الآخرة والأولى: أي كلمته الأولى وهي قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]، وكلمته الأخرى وهي قوله: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ فإن هذه أعظم من تلك) ا.هـ[1].

﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾.

(قال الله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾﴾، قال كثير من العلماء: أي نكال الكلمة الآخرة، ونكال الكلمة الأولى، فنكل الله تعالى به على الكلمتين باعترافه، وجعل ذلك عبرة لمن يخشى، ولو كان هذا ممن لم يعاقب على ما تقدم من كفره، ولم[2] يكن عقابه عبرة، بل من آمن غفر الله له ما سلف، ولم يذكره بكفر ولا بذم أصلاً، بل يمدحه على إيمانه، ويثني عليه كما أثنى على من آمن بالرسل، وأخبر أنه نجاهم) ا.هـ[3].

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾﴾.

(وقد روى البخاري في صحيحه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال رجل لابن عباس: إني أجد في القرآن أشياء تختلف عليَّ قال: ﴿فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الصافات]، ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]، ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] فقد كتموا في هذه الآية وقال: ﴿أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ إلى قوله: ﴿دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٣٠] فذكر خلق السماء قبل خلق الأرض ثم قال: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩]، فذكر في هذه الآية خلق الأرض قبل السماء وقال: وكان الله غفوراً رحيماً عزيزاً حكيماً سميعاً بصيراً فكأنه كان ثم مضى فقال: لا أنساب في النفخة الأولى ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله فلا أنساب عند ذلك ولا يتساءلون ثم في النفخة الآخرة أقبل بعضهم على بعض يتساءلون وأما قوله ما كنا مشركين ولا يكتمون الله حديثاً فإنَّ الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم قال المشركون تعالوا نقل لم نكن مشركين فختم على أفواههم فتنطق أيديهم فعند ذلك عرفوا أن الله لا يكتم حديثاً وعنده يود الذين كفروا الآية، وخلق الأرض في يومين ثم خلق السماء ثم استوى إلى السماء

---

(١) بغية المرتاد (٣٨٠).

(٢) كذا في الأصل، ولعل الواو زائدة حتى تكون جملة (لم يكن) جواب «لو».

(٣) جامع الرسائل (١/ ٢١١).

فسواهن في يومين آخرين ثم دحا الأرض ودحاها أن أخرج منها الماء والمرعى وخلق الجبال والآكام وما بينهما في يومين آخرين فخلقت الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام خلقت السموات في يومين وكان الله غفوراً رحيماً سمى نفسه ذلك وذلك قوله أني لم أزل كذلك فإن الله لم يرد شيئاً إلا أصاب فيه الذي أراد فلا يختلف عليك القرآن فإن كلا من عند الله هكذا رواه البخاري مختصراً).

ورواه البرقاني في صحيحه من الطريق الذي أخرجها البخاري بعينها من طريق شيخ البخاري بعينه بالقائلة التامة أن ابن عباس جاءه رجل فقال: يا ابن عباس إني أجد في القرآن أشياء تختلف علي فقد وقع ذلك في صدري فقال ابن عباس أتكذيب فقال الرجل ما هو بتكذيب ولكن اختلاف قال فهلم ما وقع في نفسك فقال له الرجل أسمع الله يقول: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١] وقال في آية أخرى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الصافات] وقال في آية أخرى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢] وقال في آية أخرى: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] فقد كتموا في هذه الآية وفي قوله: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾ فذكر في هذه الآية خلق السماء قبل الأرض وقال في الآية الأخرى: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ۖ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ۖ قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت] وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦] ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٨] ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤] وكأنه كان ثم انقضى فقال ابن عباس هات ما في نفسك من هذا فقال السائل إذا أنبأتني بهذا فحسبي قال ابن عباس قوله: (فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) فهذا في النفخة الأولى ينفخ في الصور فيصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ثم إذا كان في النفخة الأخرى قاموا قبل بعضهم على بعض يتساءلون وأما قول الله ﷻ: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] وقوله: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢] فإن الله تعالى يوم القيامة يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم لا يتعاظم عليه ذنب أن يغفره ولا يغفر شركاً فلما رأى المشركون قالوا إن ربنا يغفر الذنوب ولا يغفر الشرك تعالوا نقول: إنا كنا أهل ذنوب ولم نكن مشركين، فقال الله تعالى أما إذا كتموا الشرك فأختم على أفواههم فيختم على أفواههم فتنطق أيديهم

وأرجلهم بما كانوا يكسبون فعند ذلك عرف المشركون أن الله لا يُكتم حديثاً فذلك قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾ [النساء] وأما قوله: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾ فإنه خلق الأرض في يومين قبل خلق السماء ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين يعني ثم دحى الأرض و(دحيها) أن أخرج منها الماء والمرعى وشق فيها الأنهار وجعل فيها السبل وخلق الجبال والرمال والآكام وما فيها في يومين آخرين فذلك قوله: و﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾ وقوله: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [فصلت] وجعلت السموات في يومين آخرين وأما قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤] فإن الله جعل نفسه ذلك وسمى نفسه ذلك ولم ينحله أحد غيره وكان الله أي لم يزل كذلك ثم قال ابن عباس: احفظ عني ما حدَّثتك واعلم أن ما اختلف عليك من القرآن أشباه ما حدثتك فإن الله لم ينزل شيئاً إلا أصاب به الذي أراد ولكن الناس لا يعلمون فلا يختلف عليك القرآن فإن كلا من عند الله وهكذا رواه يعقوب ابن سفيان في تاريخه عن شيخ البخاري كما رواه البرقاني وإنما يختلفان في يسير من الأحرف وما ذكره أئمة السنة) ا.هـ[1].

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾.

(وقال في الخاص: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾ ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يس: ١١] فهذا الإنذار الخاص، وهو التام النافع الذي انتفع به المنذر، والإنذار هو الإعلام بالمخوف، فعلم المخوف فخاف، فآمن وأطاع) ا.هـ[2].

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾.

(نص على ذلك أحمد وغيره، قال عبد الله بن أحمد: قرأت على أبي ثنا يعلى بن عبيد؛ ثنا سفيان؛ عن محمد بن أبي ليلى؛ عن الحكم؛ عن سعيد بن جبير؛ عن ابن عباس قال: إذا عسر على المرأة ولادتها فليكتب: بسم الله لا إله إلا الله الحليم الكريم؛ سبحان الله رب العرش العظيم؛ الحمد لله رب العالمين، ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾، ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌ

(١) الفتاوى التسعينية (٥/ ٥٤ ـ ٥٦) وقد مرّ هذا المقطع مراراً، وخرجناه.

(٢) مجموع الفتاوى (١٦/ ١٥٧).

فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، قال أبي: ثنا أسود بن عامر بإسناده بمعناه، وقال: يكتب في إناء نظيف فيسقى، قال أبي: وزاد فيه وكيع فتسقى وينضح ما دون سرتها، قال عبد الله: رأيت أبي يكتب للمرأة في جام أو شيء نظيف.

وقال أبو عمرو محمد بن أحمد بن حمدان الحيري: أنا الحسن بن سفيان النسوي؛ حدثني عبد الله بن أحمد بن شبويه؛ ثنا علي بن الحسن بن شقيق؛ ثنا عبد الله بن المبارك؛ عن سفيان؛ عن ابن أبي ليلى؛ عن الحكم؛ عن سعيد بن جبير؛ عن ابن عباس قال: إذا عسر على المرأة ولادها فليكتب: بسم الله لا إله إلا الله العلي العظيم لا إله إلا الله الحليم الكريم؛ سبحان الله وتعالى رب العرش العظيم، والحمد لله رب العالمين، ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾، ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥]. قال علي: يكتب في كاغدة فيعلق على عضد المرأة، قال علي: وقد جربناه فلم نر شيئاً أعجب منه، فإذا وضعت تَحُلُّهُ سريعاً ثم تَجعلُهُ في خرقة أو تحرقه) ا.هـ[1].

(١) مجموع الفتاوى (١٩/ ٦٤ ـ ٦٥).

سورة عبس

﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾﴾.

(وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: حدثنا محمود بن يزيد عن العوام بن حوشب عن إبراهيم التيمي أن أبا بكر الصديق سئل عن قوله: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾﴾ فقال: أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إن أنا قلت في كتاب الله ما لا أعلم[1]؟ ـ منقطع ـ وقال أبو عبيد أيضاً حدثنا يزيد عن حميد عن أنس أن عمر بن الخطاب[2] قرأ على المنبر: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾﴾ فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها فما الأب؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: إن هذا لهو التكلف يا عمر، وقال عبد بن حميد: حدثنا سليمان بن حرب، قال: حدثنا حماد بن زيد، عن ثابت، عن أنس قال: كنا عند عمر بن الخطاب وفي ظهر قميصه أربع رقاع فقرأ: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾﴾ فقال: ما الأب؟ ثم قال: إن هذا لهو التكلف فما عليك أن لا تدريه) ا.هـ[3].

فصل

وقال رحمه الله:

ولجماعة من الفضلاء كلام في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾﴾ لم ابتدأ بالأخ ومن عادة العرب أن يبدأ بالأهم؟

فلما سئلتُ عن هذا قلت: إن الإبتداء يكون في كل مقام بما يناسبه فتارة يقتضي الابتداء بالأعلى وتارة بالأدنى، وهنا المناسبة تقتضي الابتداء بالأدنى؛ لأن المقصود بيان فراره عن أقاربه مفصلاً شيئاً بعد شيء، فلو ذكر الأقرب أولاً لم يكن في ذكر

---

(١) صاحب الدر (٦/ ٣١٧) وعزاه لأبي عبيد وعبد بن حميد.

(٢) ابن جرير (٣٠/ ٦١)، وعزاه صاحب الدر (٦/ ٣١٧) لسعيد بن منصور وابن سعد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان والخطيب والحاكم.

(٣) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٧١ ـ ٣٧٢).

الأبعد فائدة طائلة، فإنه يعلم أنه إذا فر من الأقرب فر من الأبعد، ولما حصل للمستمع استشعار الشدة مفصلة، فابتدئ بنفي الأبعد منتقلاً منه إلى الأقرب، فقيل أولاً: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾﴾ فعلم أن ثم شدة توجب ذلك، وقد يجوز أن يفر من غيره، ويجوز أن لا يفر، فقيل: ﴿وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾﴾ فعلم أن الشدة أكبر من ذلك، بحيث توجب الفرار من الأبوين.

ثم قيل: ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾ فعلم أنها طامة بحيث توجب الفرار مما لا يفر منهم إلا في غاية الشدة وهي الزوجة والبنون، ولفظ صاحبته أحسن من زوجته.

سورة التكوير

﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾﴾.

(وأما البهائم فجميعها يحشرها الله سبحانه. كما دل عليه الكتاب والسنة. قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾﴾ [التكوير: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ [الشورى]، وحرف ﴿إِذَا﴾ إنما يكون لما يأتي لا محالة.

والأحاديث في ذلك مشهورة، فإن الله ﷻ يوم القيامة يحشر البهائم ويقتص لبعضها من بعض، ثم يقول لها: كوني تراباً. فتصير تراباً. فيقول الكافر حينئذ ﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ ومن قال إنها لا تحيا فهو مخطئ في ذلك أقبح خطأ؛ بل هو ضال أو كافر والله أعلم) ا.هـ[1].

﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾﴾.

(إسقاط الحمل حرام بإجماع المسلمين، وهو من الوأد الذي قال الله فيه: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾) ا.هـ[2].

وقال شيخ الإسلام:

(قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾ دليل على أنه لا يجوز قتل النفس إلا بذنب منها، فلا يجوز قتل الصبي والمجنون، لأن القلم مرفوع عنهما، فلا ذنب لهما، وهذه العلة لا ينبغي أن يشك فيها في النهي عن قتل صبيان أهل الحرب، وأما العلة المشتركة بينهم وبين النساء فكونهم ليسوا من أهل القتال على الصحيح الذي هو قول الجمهور، أو كونهم يصيرون للمسلمين.

---

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٢٨٤).
(٢) مجموع الفتاوى (٣٤/ ١٦٠).

فأما التعليل بهذا وحده في الصبي فلا، والآية تقتضي ذم قتل كل من لا ذنب له من صغير وكبير، وسؤالها توبيخ قاتلها، وقوله في السورة: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾ [الحاقة] إلى قوله: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [التكوير] هو جبريل، وهو نظير ما في سورة الشعراء أنه تنزلت به الملائكة لا الشياطين، بخلاف الإفك ونحوه فإنه تنزل به الشياطين، فوقع الفرق بين النبي ﷺ والأفَّاك، والشاعر، والكاهن، وبين المَلَك والشيطان، والعلماء ورثة الأنبياء)[1].

﴿ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾﴾.

(وأما إقسام الله بالنجوم، كما أقسم بها في قوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾﴾ فهو كإقسامه بغير ذلك من مخلوقاته، كما أقسم بالليل والنهار، والشمس والقمر، وغير ذلك: يقتضي تعظيم قدر المقسم به، والتنبيه على ما فيه من الآيات والعبرة، والمنفعة للناس؛ والإنعام عليهم، وغير ذلك؛ ولا يوجب ذلك أن تتعلق القلوب به، أو يظن أنه هو المسعد المنحس، كما لا يظن ذلك في ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾﴾ [الليل]، وفي ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ﴿٢﴾﴾ [الذاريات]، وفي ﴿وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾﴾ [الطور]، وأمثال ذلك) ا.هـ[2].

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾﴾ والخنوس الاختفاء، وذلك قبل ظهورها من المشرق. والكنوس رجوعها من جهة المغرب، فما خنس قبل ظهورها كنس بعد مغيبها، جوار حال ظهورها، تجري من المشرق إلى المغرب) ا.هـ[3].

وقال رحمه الله: (﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾﴾ فسماها جواري، كما سمى الفلك جواري، في قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾﴾ [الشورى]، والكواكب فوق السحاب) ا.هـ[4].

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾﴾ يعني: الكواكب التي تكون في السماء خانسة أي مختفية قبل طلوعها، فإذا ظهرت رآها الناس جارية في السماء، فإذا غربت ذهبت إلى كناسها الذي يحجبها ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾﴾

(١) مجموع الفتاوى (١٦/ ٨٠).
(٢) مجموع الفتاوى (٣٥/ ١٧٧).
(٣) مجموع الفتاوى (٦/ ٥٩٤).
(٤) الجواب الصحيح (٥/ ٢٠٨).

[التكوير] أي إذا أدبر، وأقبل الصبح ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾﴾ [التكوير] أي أقبل ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾﴾ [التكوير] وهو جبريل عليه السلام ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ أي مطاع في السماء أمين ثم قال: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾ [التكوير] أي صاحبكم الذي من الله عليكم به إذ بعثه إليكم رسولاً من جنسكم يصحبكم إذ كنتم لا تطيقون أن تروا الملائكة كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ الآية [الأنعام].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾ [التكوير] أي رأى جبريل عليه السلام ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [التكوير] أي بمتهم، وفي القراءة الأخرى[1]: ﴿بِضَنِينٍ﴾ أي ببخيل يكتم العلم ولا يبذله إلا بجعل، كما يفعل من يكتم العلم إلا بالعوض. ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [التكوير] فنزه جبريل عليه السلام عن أن يكون شيطاناً، كما نزه محمداً ﷺ عن أن يكون شاعراً أو كاهناً) ا.هـ[2].

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾﴾.

(ولفظ (عسعس) الذي يراد به إقبال الليل وإدباره) ا.هـ[3].

﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾.

(إنه في سورة التكوير: لما كان الشيطان قد يشبه بالملك ـ فنفى أن يكون قول شيطان رجيم ـ علم أن الرسول المذكور هو المصطفى من الملائكة) ا.هـ[4].

وقال رحمه الله: (قال: ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ ولم يقل: لقول ملك ولا نبي، فذكر ذلك بلفظ الرسول ليبين أنه يبلغ عن غيره، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧] وفي السنن أن النبي ﷺ كان يعرض نفسه على الناس في الموسم ويقول: «ألا رجل يحملني إلى قومه لأبلغ كلام ربي؛ فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي»[5].

---

(١) زاد المسير (٩/ ٤٤).
(٢) مجموع الفتاوى (١١/ ٢٧٣ ـ ٢٧٤).
(٣) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٤٠).
(٤) مجموع الفتاوى (٢/ ٥٠).
(٥) أبو داود (٤٧٣٤) والترمذي (٢٩٢٥) وابن ماجه (٢٠١) والبخاري في «خلق أفعال العباد» (٧٧) والحديث صحيح.

و«أيضاً» فإن قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾ [الحاقة] عائد إلى القرآن) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (وأضاف القول إلى كل منهما باسم الرسول فقال: ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ لأن الرسول يدل على المرسل، فدل على أنه قول رسول بلغه عن مرسل. لم يقل: إنه لقول ملك ولا بشر بل كفر من جعله قول بشر بقوله: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَـٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ [المدثر]، فمن قال إنه قول بشر أو قول مخلوق غير البشر فقد كفر، ومن جعله قول رسول من البشر فقد صدق؛ لأن الرسول ليس له فيه إلا التبليغ والأداء كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، وفي سنن أبي داود عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ كان يعرض نفسه على الناس في الموسم ويقول: «ألا رجل يحملني إلى قومه لأبلغ كلام ربي؟! فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي»[2]) ا.هـ[3].

وقال رحمه الله: (وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾ فإنه أضافه إليه لأنه بلغه وأداه لا لكونه أحدث منه شيئاً وابتداه؛ فإنه سبحانه قال في إحدى الآيتين: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [الحاقة] فالرسول هنا محمّد ﷺ. وقال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ فالرسول هنا جبريل. والله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس؛ فلو كانت إضافته إلى أحدهما لكونه ألف النظم العربي، وأحدث منه شيئاً غير ذلك تناقض الكلام؛ فإنه إن كان نظم أحدهما لم يكن نظم الآخر.

وأيضاً فإنه قال: ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ ولم يقل لقول ملك ولا نبي، ولفظ الرسول يشعر بأنه مبلغ له عن مرسله، لا أنه أنشأ من عنده شيئاً.

وأيضاً فقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾ ضمير يعود إلى القرآن والقرآن يتناول معانيه ولفظه، ومجموع هذا ليس قولاً لغير الله بإجماع المسلمين، وإطلاق القول بأن

---

(١) مجموع الفتاوى (٦/ ٥٤٢).
(٢) مرّ تخريجه.
(٣) مجموع الفتاوى (١٧/ ٨٢ ـ ٨٣).

القرآن كلام جبريل أو محمّد أو غيرهما من المخلوقين كفر لم يقله أحد من أئمة المسلمين؛ بل عظم الله الإنكار على من يقول إنه قول البشر، فقال تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾﴾ [المدثر]. فمن قال: إن القرآن قول البشر فقد كفر، وكذلك من قال إنه قول ملك) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ إلى آخر السورة. فالرسول هنا جبريل، وفي الآية الأولى محمّد ﷺ؛ ولهذا نزه محمداً هناك عن أن يكون شاعراً أو كاهناً، ونزه هنا الرسول إليه أن يكون من الشياطين) ا.هـ[2].

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ فالقرآن قول رسول أرسله الله لم يرسله الشيطان وهو ملك كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين فهو مطاع عند ذي العرش في الملأ الأعلى، والشياطين لا يطاعون في السموات بل ولا يصعدون إليها) ا.هـ[3].

وقال رحمه الله: (والرسول في آية الحاقة محمّد وقال أيضاً: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ فلما أخبر به أنه قول رسول هو ملك من الملائكة نفى أن يكون قول شيطان، ولما أخبر هناك أنه قول رسول من البشر نفى أن يكون قول شاعر أو كاهن فهذا تنزيه للقرآن نفسه ونزه الرسول أن يكون على الغيب بظنين أي متهم وأن يكون بمجنون، فالجنون فساد في العلم، والتهمة فساد في القصد كما قالوا: ساحر أو مجنون) ا.هـ[4].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٢/ ٥٥٥ ـ ٥٥٦).
(٢) مجموع الفتاوى (٢/ ١٣٧).
(٣) النبوات (١٧٠).
(٤) النبوات (٢٧١).

وقال رحمه الله: (وإن احتج محتج بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ قيل له: فقد قال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحاقة] فالرسول في هذه الآية محمّد ﷺ والرسول في الأخرى جبريل، فلو أريد به أن الرسول أحدث عبارته لتناقض الخبران. فعلم أنه أضافه إليه إضافة تبليغ لا إضافة إحداث ولهذا قال: ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ ولم يقل ملك ولا نبي، ولا ريب أن الرسول بلغه، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، فكان النبي ﷺ يعرض نفسه على الناس في الموسم ويقول: «ألا رجل يحملني إلى قومه لأبلغ كلام ربي، فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي؟»[(١)] ولما أنزل الله: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾﴾ [الروم] خرج أبو بكر الصديق فقرأها على الناس فقالوا: هذا كلام أم كلام صاحبك؟ فقال: ليس بكلامي ولا كلام صاحبي ولكنه كلام الله) ا.هـ[(٢)].

وقال رحمه الله: (وقد أضافه إلى كل من الرسولين لأنه بلغه وأداه؛ لا لأنه أنشأه وابتداه، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ فهذا نعت جبريل الذي قال فيه: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧]، وقال: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء]) ا.هـ[(٣)].

وقال رحمه الله: (فقال في موضع: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحاقة]، فهذا الرسول محمّد ﷺ وقال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ فهذا جبريل، فأضافه تارة إلى الرسول الملكي، وتارة إلى الرسول البشري. والله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس) ا.هـ[(٤)].

وقال رحمه الله: (في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ لأن لفظ الرسول يستلزم المرسل ويدل على أنه مبلغ له عن مرسله لا

---

(١) مرّ تخريجه.
(٢) مجموع الفتاوى (١٢/ ٥٢١).
(٣) مجموع الفتاوى (١٧/ ٨٢).
(٤) مجموع الفتاوى (٦/ ٥٤١) (١٢/ ٥٠، ١٣٥)، الجواب الصحيح (٥/ ٣١٢)، جامع الرسائل (١/ ١٥٩).

يتكلم به من تلقاء نفسه بخلاف من جعله قولاً لمخلوق بشر أو ملك أو جني أو جعل شيئاً منه قوله، فإن هذا هو الذي توعده الله ﷻ) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ فهذه صفة جبرائيل. ثم قال: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾ فوصف جبرائيل بالكرم والرسالة، والقوة والتمكين عنده، وأنه مطاع وأنه أمين، فوصفه بهذه الصفات الفاضلة ثم عطف عليه بقوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾ فأضاف الرسول البشري إلينا وسلب عنه الجنون، وأثبت له رؤية جبرائيل، ونفى عنه البخل والتهمة، وفي هذا تفاوت عظيم بين البشر والملائكة، وبين الصفات والنعم، وهذا قاله بعض المعتزلة، زل به عن سواء السبيل.

والجواب: أولاً: أين هو من قوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾ [الانشراح]، إلى آخرها وقوله: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾﴾ [الضحى]، وقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾﴾ الآيات [الفتح]، وقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

وأين هو عن قصة المعراج التي تأخر فيها جبرائيل عن مقامه؟ ثم أين هو عن الخلة؟ وهو التقريب؛ فهذا نزاع من لم يقدر النبي ﷺ قدره.

ثم نقول ثانياً: لما كان جبرائيل هو الذي جاء بالرسالة، وهو صاحب الوحي وهو غيب عن الناس؛ لم يروه بأبصارهم، ولم يسمعوا كلامه بآذانهم وزعم زاعمون أن الذي يأتيه شيطان يعلمه ما يقول، أو أنه إنما يعلمه إياه بعض الإنس، أخبر الله العباد أن الرسول الذي جاء به، ونعته أحسن النعت. وبين حاله أحسن البيان، وذلك كله إنما هو تشريف لمحمد ﷺ، ونفيٌ عنه ما زعموه، وتقرير للرسالة؛ إذ كان هو صاحبه الذي يأتيه بالوحي، فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾﴾ أي أن الرسول البشري لم ينطق به من عند نفسه، وإنما هو مبلغ يقول ما قيل له؛ فكان في اسم الرسول إشارة إلى محض التوسط والسعاية.

ثم وصفه بالصفات التي تنفي كل عيب؛ من القوة والمكنة، والأمانة والقرب من الله سبحانه، فلما استقر حال الرسول الملكي، بين أنه من جهته، وأنه لا يجيء إلا بالخير.

---

(١) الاستغاثة (٣٣٨).

وكان الرسول البشري معلوم ظاهره عندهم، وهو الذي يبلغهم الرسالة، ولولا هؤلاء لما أطاقوا الأخذ عن الرسول الملكي؛ وإنما قال: ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ إشارة إلى أنه قد صحبكم سنين قبل ذلك، ولا سابقة له بما تقولون فيه وترمونه؛ من الجنون والسحر وغير ذلك؛ وأنه لولا سابقته وصحبته إياكم لما استطعتم الأخذ عنه؛ ألا تسمعه يقول: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: ٩]، ـ تمييزاً ـ من المرسلين؛ ثم حقق رسالته بأنه رأى جبرائيل، وأنه مؤتمن على ما يأخذه عنه، فقام أمر الرسالة بهاتين الصفتين، وجاء على الوجه الأبلغ والأكمل والأصلح.

وقد احتجوا بآيات تقدم التنبيه على مقاصدها؛ من وصف الملائكة بالتسبيح، والطاعة، والعبادة وغير ذلك) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝٢١﴾ فهذا جبريل. ثم قال: وما صاحبكم بمجنون وقوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ﴾ كقوله في الآية الأخرى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ [النجم].

الحكمة في إرسال الرسول البشري إلى البشر دون الملكي.

فقوله: ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ تنبيه على نعمته على البشر وإحسانه إليهم إذ بعث إليهم من يصحبهم ويصحبونه بشراً مثلهم. فإنهم لا يطيقون الأخذ عن الملك كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩﴾ [الأنعام].

وروى ابن أبي حاتم، عن أبي زرعة، عن منجاب بن الحرث، عن بشر بن عمارة، عن أبي روق، عن الضحاك، عن ابن عباس[2]: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ لأهلكناهم، ﴿ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ لا يؤخرون. ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ يقول: لو أتاهم ملك في صورة رجل ما أتاهم إلا في صورة رجل، لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة، وكذلك قال غيره من المفسرين: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم﴾ قالوا: لخلطنا ولشبهنا عليهم ما يخلطون ويشتبهون على أنفسهم، حتى يشكوا فلا يدروا أملك هو أو آدمي.

فبين سبحانه أنه لو أنزل ملكاً لم يمكنهم أن يروه إلا في صورة بشر، كما كان

---

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٣٨٨ ـ ٣٩٠).
(٢) مر الكلام عليه.

جبريل يأتي النبي ﷺ إذا رآه الناس في صورة دحية الكلبي، أو في صورة أعرابي لما أتاه وسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان. وكذلك لما أتوا إبراهيم ولوطاً ورأتهم سارة وقوم لوط لم يأتوا إلا في صورة رجال. وكذلك لما أتى جبريل مريم عليها السلام لينفخ فيها أتاها في صورة رجل. قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾ [مريم] وإذا كانوا لا يستطيعون أن يروا الملك إلا في صورة رجل فلو جاءهم لقالوا: «هذا بشر وليس بملك» واشتبه الأمر واختلط، والتبس الأمر عليهم. فلم تكن هذه شبهة تنقطع بإنزال ملك.

وهذا كما قال في السورة الأخرى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ [الإسراء]؟

وأيضاً في قوله: ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ بيان أنه عربي بعث بلسانهم، كما قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٤]، وقد قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة] قيل: المراد «من أنفس العرب» فالخطاب لهم.

وقيل: «من أنفس بني آدم»، فهو بشر لا ملك ولا جني، لأن الخطاب لجميع الخلق الذي أرسل إليهم. لا سيما وهذه في سورة براءة، وهي من آخر القرآن نزولاً، وقيل إن هذه الآية آخر ما نزل. وقد نزلت بعد دعوة الروم، والفرس، والقبط.

وهو «بالمؤمنين» من هؤلاء كلهم «رؤوف رحيم» ولا ريب أنه ﷺ من الإنس؛ ومن العرب ـ أفضل الإنس؛ ومن قريش ـ أفضل العرب؛ ومن بني هاشم ـ أفضل قريش. و«الأنفس» يراد بهم جنس الإنسان، كما قال تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ

﴿وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢]، فقوله «صاحبكم» مثل قوله «من أنفسكم» ومثل قوله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ [يونس: ٢].

وقوله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣] لم يقصد بهذا اللفظ تفضيل الملك عليه، كما توهمه بعض الناس. كما أن قوله ﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾، وقوله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ لم يقصد به أن غيره أفضل منه) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (وقال سبحانه: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ فالرسول هنا هو الرسول الملكي - جبريل. وقال في السورة الأخرى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة]، فالرسول هنا محمّد ﷺ.

وأضافه إلى هذا الرسول تارة، وإلى هذا تارة، لأن كلاً من الرسولين بلغه وأداه. ولفظ «الرسول» يتضمن مرسلاً أرسله. فكان في اللفظ ما يبين أن الرسول مبلغ له عن غيره، لا أن الرسول أحدث شيئاً منه، كما توهمه بعض الناس وظن أن إضافته إلى الرسول تقتضي أنه هو أحدث القرآن العربي. فإنه قصد إضافته إلى هذا تارة وإلى هذا تارة. فلو كان المراد الإحداث لتناقض الخبران.

ولأنه أضافه إليه باسم «رسول» لم يقل «إنه لقول ملك» ولا «قول بشر» بل قد كفر من قال «إنه قول بشر» في قوله: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾ [المدثر].

والكلام الذي توعد بسقر من قال: «إنه قول البشر» هو الكلام الذي أضافه إلى رسول من البشر تارة وإلى رسول من الملائكة تارة لأن المراد هناك أنه بلغه، والذي

---

(١) الرد على المنطقيين (٥٣٨ ـ ٥٤١).

كفره قال: «إنه أنشأه» و«إنه كلام نفسه»، سواء كان المراد المعنى، أو اللفظ، أو كلاهما، فإن الذي لعنه الله هو الذي قال: «إنْ هذا إلا قول البشر».

فمن قال: (إن هذا القرآن قول البشر) فهو من جنس قوله من بعض الوجوه. ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ [التوبة: ٦]، فأخبر أن ما يسمعه المستجير هو كلام الله، والمستجير يسمعه بصوت القارئ، والصوت: صوت القارئ والكلام: كلام الباري، كما قال النبي ﷺ: «زينوا القرآن بأصواتكم»[(١)]. وقال: «لله أشد أذناً إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته»[(٢)].

وكذلك ذكر في غير موضع أن الصوت المسموع من العبد هو صوت العبد، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ [الحجرات: ٢]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [الحجرات: ٣]، وقال لقمان لابنه: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان]) ا.هـ[(٣)].

وقال رحمه الله: (ولم يكن أحد من السلف يريد بالتلاوة مجرد قراءة العباد وبالمتلو مجرد معنى واحد يقوم بذات الباري تعالى: بل الذي كانوا عليه أن القرآن كلام الله تكلم الله به بحروفه ومعانيه، ليس شيء منه كلاماً لغيره، لا لجبريل ولا لمحمد ولا لغيرهما؛ بل قد كفَّر الله من جعله قول البشر، مع أنه سبحانه أضافه تارة إلى رسول من البشر وتارة إلى رسول من الملائكة فقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [الحاقة] فالرسول هنا محمّد ﷺ وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ فالرسول هنا جبريل.

وأضافه سبحانه إلى كل منهما باسم رسول لأن ذلك يدل على أنه مبلغ له عن غيره، وأنه رسول فيه لم يحدث هو شيئاً منه؛ إذ لو كان قد أحدث منه شيئاً لم يكن

---

(١) مرّ تخريجه.
(٢) مرّ تخريجه.
(٣) الرد على المنطقيين (٥٤١ ـ ٥٤٢).

رسولاً فيما أحدثه بل كان منشئاً له من تلقاء نفسه، وهو سبحانه يضيفه إلى رسول من الملائكة تارة ومن البشر تارة، فلو كانت الإضافة لكونه أنشأ حروفه لتناقض الخبران، فإن إنشاء أحدهما له يناقض إنشاء الآخر له) ا.هـ[١].

وقال رحمه الله: (وأما الملائكة فالأنبياء لا تدعو الملائكة إلى الإيمان بهم بل الملائكة تنزل بالوحي على الأنبياء وتعينهم وتؤيدهم، فالخوارق التي تكون بأفعال الملائكة تختص بالأنبياء وأتباعهم، لا تكون للكفار والسحرة والكهان، ولهذا أخبر الله تعالى أن الذي جاءه بالقرآن ملك لا شيطان فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾) ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (وقد قال سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ فبين أن الرسول الذي جاء به إلى محمّد رسول كريم، ذو قوة، عند ذي العرش مكين، مطاع ثم أمين. وهذه صفة لا تنطبق على ما في النفس من الخيال، ولا على العقل الفعال. فإنه أخبر أنه مطاع، والمطاع فوق السموات ليس هذا ولا هذا. وكذلك قوله: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء] وقوله: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل]) ا.هـ[٣].

وقال رحمه الله: (وقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ فأخبر أن الذي جاء بالقرآن رسول كريم، ذو قوة عند ذي العرش مكين، وأنه مطاع ثم أمين، وهذا يمتنع أن تكون صفة أعراض تقوم بنفوس البشر، ولا سيما عند هؤلاء الفلاسفة الذين يمنعون أن يكون لدعاء البشر تأثير في الملأ

---

(١) مجموع الفتاوى (١٢/ ٣٠٧ ـ ٣٠٨).
(٢) النبوات (٧).
(٣) الرد على المنطقيين (٤٩١ ـ ٤٩٢).

الأعلى، وقد أخبر أنه رآه عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى، وأنه رآه بالأفق المبين، وما يحصل في نفس الرسول لا يكون هنا ولا هنا) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ وبين في هذه الآية أن الرسول البشري الذي صحبناه وسمعناه منه ليس بمجنون، وما هو على الغيب بمتهم. وذكره باسم «الصاحب» لما في ذلك من النعمة به علينا إذ كنا لا نطيق أن نتلقى إلا عمن صحبناه وكان من جنسنا كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأنعام: ٩]، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾﴾ [النجم]، وبين أن الرسول الذي من أنفسنا والرسول الملكي أنهما مبلغان فكان في هذا تحقيق أنه كلام الله.

فلما كان الرسول البشري يقال: إنه مجنون أو مفتر نزهه عن هذا وهذا، وكذلك في السورة الأخرى قال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [الحاقة] وهذا مما يبين أنه أضافه إليه لأنه بلغه وأداه لا لأنه أحدثه وأنشأه فإنه قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ [الشعراء]، فجمع بين قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾﴾ وبين قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾﴾ [الشعراء] والضميران عائدان إلى واحد، فلو كان الرسول أحدثه وأنشأه لم يكن تنزيلاً من رب العالمين؛ بل كان يكون تنزيلاً من الرسول. ومن جعل الضمير في هذا عائداً إلى غير ما يعود إليه الضمير الآخر مع أنه ليس في الكلام ما يقتضي اختلاف الضميرين، ومن قال إنَّ هذا عبارة عن كلام الله ـ فقل له: هذا الذي تقرؤه أهو عبارة عن العبارة التي أحدثها الرسول الملك أو البشر على زعمك؟ أم هو نفس تلك العبارة؟ فإن جعلت هذا عبارة عن تلك العبارة جاز أن تكون عبارة جبريل أو الرسول عبارة عن عبارة الله، وحينئذ فيبقى النزاع لفظياً؛ فإنه متى قال إن محمداً سمعه من جبريل جميعه، وجبريل سمعه من الله جميعه، والمسلمون سمعوه من الرسول جميعه، فقد قال الحق ـ وبعد هذا فقوله: (عبارة) لأجل التفريق بين التبليغ والمبلغ عنه كما سنبينه) ا.هـ[2].

---

(١) الصفدية (١/ ٢٠٠).

(٢) مجموع الفتاوى (١٢/ ٢٧٠ ـ ٢٧١).

﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾.

(قال معقل: ثم جلست إلى ميمون بن مهران، فقلت يا أبا أيوب: لو قرأت لنا سورة ففسرتها، قال: فقرأ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾﴾ [التكوير] حتى إذا بلغ: ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ قال: ذاكم جبريل[1]) ا.هـ[2].

﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾.

(وكذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾﴾ [النجم]، وقوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾ المراد به محمّد ﷺ لكونه صحب البشر؛ فإنه إذا كان قد صحبهم كان بينه وبينهم من المشاركة ما يمكنهم أن ينقلوا عنه ما جاءه من الوحي، وما يسمعون به كلامه، ويفقهون معانيه، بخلاف الملك الذي لم يصحبهم، فإنه لا يمكنهم الأخذ عنه) ا.هـ[3].

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾.

(وفي الصحيحين[4] عن مسروق قال: كنت متكئاً عند عائشة رضي الله عنها، فقالت: «يا أبا عائشة! ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية» [قلت: «وما هن؟» قالت]: «من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية. ومن زعم أنه يعلم ما في غد فقد أعظم على الله الفِريَة. ومن زعم أنه كتم شيئاً مما أوحى إليه فقد أعظم على الله الفرية. قال: وكنت متكئاً فجلست فقلت: «يا أم المؤمنين! أنظريني، ولا تعجليني. ألم يقل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾ ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [النجم]؟ فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «إنما هو جبريل، لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين. رأيته منهبطاً من السماء ساداً عظم خلقه ما بين السماء والأرض». وفي لفظ: فقلت «فأين قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [النجم].

---

(١) ابن جرير (٣٠/ ٨١).
(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٠٦).
(٣) منهاج السنة (٨/ ٤٧٠).
(٤) البخاري (٤٨٥٥)، ومسلم (١٧٧).

قالت: إنما ذاك جبريل عليه السلام، كان يأتيه في صورة الرجال، وإنه أتاه هذه المرة في صورته [التي هي صورته]، فسدَّ أفق السماء».

وفي الصحيحين[١] أيضاً عن الشيباني قال: سألت زرَّ بن حبيش عن قول الله: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾ [النجم]. قال أخبرني ابن مسعود أن: «النبي ﷺ رأى جبريل له ستمائة جناح». وعن ابن مسعود أيضاً قال: ما كذب الفؤاد ما رأى، قال: «رأى جبريل له ستمائة جناح». وعنه أيضاً: لقد رأى من آيات ربه الكبرى، قال: «رأى جبريل في صورته له ستمائة جناح». وقال البخاري في بعض طرقه: «رأى رفرفاً أخضر قد سد الأفق». وعن عبد الله قال: لقد رأى من آيات ربه الكبرى، قال: «رأى رفرفاً أخضر قد سد الأفق» وفي صحيح مسلم[٢] عن أبي هريرة رضي الله عنه: ولقد رآه نزلة أخرى، قال: «رأى جبريل») ا.هـ[٣].

﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۝٢٤﴾.

(لأن قراءة الأكثرين: بظنين، أي بمتهم. وهو المناسب، أي ما هو بمتهم على ما غاب عنا، بل هو أمين في إخباره بالغيب. وإذا قيل: ضنين، بمعنى بخيل، كان ذلك وصفاً له بأنه لا يبخل بعلم الغيب، بل يبين الحق. ولهذا قال: على الغيب بظنين) ا.هـ[٤].

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ۝٢٥﴾.

﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨﴾.

(﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨﴾ فإذا شاء الاستقامة صار مستقيماً) ا.هـ[٥].

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾.

(وقال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾، فأثبت مشيئة العبد، وجعلها لا تحصل إلا بمشيئة الله تعالى) ا.هـ[٦].

---

(١) البخاري (٤٨٥٦)، ومسلم (١٧٤). (٢) مرّ تخريجه.

(٣) الرد على المنطقيين (٤٩٠ ـ ٤٩١).

(٤) مجموع الفتاوى (١٦/ ٣١٥) الرد على المنطقيين (٢٧٨)، درء تعارض العقل (١٠/ ٢١٨)، والجواب الصحيح (٥/ ٤٤٦ ـ ٤٤٧).

(٥) مجموع الفتاوى (٨/ ٣٧٥). (٦) منهاج السنة (٣/ ٢٣٦ ـ ٢٣٧).

وقال رحمه الله: (وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ لا يدل على أن العبد ليس بفاعل لفعله الاختياري، ولا أنه ليس بقادر عليه، ولا أنه ليس بمريد؛ بل يدل على أنه لا يشاؤه إلا أن يشاء الله، وهذه الآية رد على الطائفتين: المجبرة الجهمية، والمعتزلة القدرية، فإنه تعالى قال: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ فأثبت للعبد مشيئة وفعلاً، ثم قال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ فبين أن مشيئة العبد معلقة بمشيئة الله. والأولى رد «على الجبرية، وهذه رد على القدرية، الذين يقولون: قد يشاء العبد ما لا يشاؤه الله كما يقولون: إن الله يشاء ما لا يشاؤون.

وإذا قالوا: المراد بالمشيئة هنا الأمر على أصلهم، والمعنى: وما يشاؤون فعل ما أمر الله به إن لم يأمر الله به. قيل: سياق الآية يبين أنه ليس المراد هذا؛ بل المراد: وما تشاؤون بعد أن أمرتم بالفعل أن تفعلوه إلا أن يشاء الله؛ فإنه تعالى ذكر الأمر والنهي والوعد والوعيد ثم قال بعد ذلك: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ﴾ [الإنسان] وقوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾ نفي لمشيئتهم في المستقبل. وكذلك قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ تعليق لها بمشيئة الرب في المستقبل، فإن حرف ﴿أَن﴾ تخلص الفعل المضارع للاستقبال، فالمعنى: إلا أن يشاء بعد ذلك، والأمر متقدم على ذلك، وهذا كقول الإنسان: لا أفعل هذا إلا أن يشاء الله.

وقد اتفق السلف والفقهاء على أن من حلف فقال: لأصلين غداً إن شاء الله، أو لأقضين ديني غداً إن شاء الله، ومضى الغد ولم يقضه أنه لا يحنث، ولو كانت المشيئة هي الأمر لحنث؛ لأن الله أمره بذلك، وهذا مما احتج به على القدرية، وليس لهم عنه جواب، ولهذا خرق بعضهم الإجماع القديم وقال: إنه يحنث.

و«أيضاً» فقوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ سيق لبيان مدح الرب والثناء عليه ببيان قدرته، وبيان حاجة العباد إليه، ولو كان المراد لا تفعلون إلا أن يأمركم لكان كل أمر بهذه المثابة، فلم يكن ذلك من خصائص الرب التي يمدح بها، وإن أريد أنهم لا يفعلون إلا بأمره كان هذا مدحاً لهم لا له) ا.هـ[1].

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٤٨٨ ـ ٤٨٩).

وقال رحمه الله: (وقوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ﴾ فأخبر أن مشيئتهم موقوفة على مشيئته، ومع هذا فلا يوجب ذلك وجود الفعل منهم، إذ أكثر ما فيه أن جعلهم شائين. ولا يقع الفعل منهم إلا حين يشاؤه منهم، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝٥٥ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [المدثر]، وقال: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، ومع هذا فلا يقع الفعل منهم حتى يريد من نفسه إعانتهم وتوفيقهم، فهنا أربع إرادات: إرادة البيان، وإرادة المشيئة، وإرادة الفعل، وإرادة الإعانة ـ والله أعلم) ا.هـ[1].

(١) جامع الرسائل (١/ ٧٧)، وهي الرسالة المسماة (رسالة في المعاني المستنبطة من سورة الإنسان).

سورة الانفطار

﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾.

(فيقال: المُرَكَّبُ لِمَا رَكَّبَه غيره، كما قال تعالى: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ ويقال: ركَّبْتُ الباب في موضعه ونحو ذلك، وهذا هو مفهوم المُرَكَّبِ في اللغة) ا.هـ[1].

﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ۝١٣﴾.

(وكذلك لفظ (الأبرار) إذا أطلق دخل فيه كل تقي من السابقين والمقتصدين، وإذا قرن بالمقربين كان أخص، قال تعالى في الأول: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ۝١٤﴾ وقال في الثاني: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ۝١٨ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ۝٢٠ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ۝٢١﴾ [المطففين]) ا.هـ[2].

---

(١) الصفدية (١/ ١٠٥).

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ١٦٩).

سورة المطففين

﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾.

(وقوله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «يوم يقوم الناس لرب العالمين - يقوم أحدهم في العرق إلى أنصاف أذنيه»[1]) ا.هـ[2].

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩﴾.

(فالسماء أبداً في الجهة العالية التي علوها ثابت لازم لا يتبدل، والأرض أبدا في الجهة السافلة التي سفولها ثابت لازم لا يتبدل، وكلما علت اتسعت؛ وكلما سفلت ضاقت؛ فلهذا كان الأعلى هو الأوسع وكان السفل هو الأضيق؛ ولهذا قابل الله تعالى بين عليين وبين سجين في كتابه فقال: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ۝١٨﴾ [المطففين] وقال: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧﴾ ولم يقل في سفلين، كما لم يقل هناك في وسعين؛ ليبين الضيق والحرج الذي في المكان؛ كما بين سفوله بمقابلته بعليين؛ وبين أيضاً سعة عليين بمقابلة سجين؛ فيكون قد دل على العلو والسعة التي للأبرار، وعلى السفول والضيق الذي للفجار) ا.هـ[3].

﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٤﴾.

(وفي الحديث: «إن العبد إذا أذنب ذنباً نكت في قلبه نكتة سوداء، فإذا تاب ونزع واستغفر صقل قلبه، وإن زاد زيد فيها حتى تعلو كل قلبه، فذلك الران الذي قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾» رواه الترمذي وصححه[4]) ا.هـ[5].

---

(١) البخاري (٨/ ٦٩٦)، مسلم (٤/ ٢١٩٦). (٢) الرد على المنطقيين (٤٥٩).

(٣) بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٢١٧).

(٤) المسند (٢/ ٢٩٧) الترمذي (٥/ ٤٣٤)، وابن ماجه (٤٢٤٤)، والحاكم (٢/ ٥١٧)، والحديث صحيح.

(٥) مختصر الفتاوى المصرية (١١١)، جامع الرسائل (١/ ٢٢٥ - ٢٢٦)، مجموع الفتاوى (١٧/ ٥٢٢ - ٥٢٣) تفسير آيات أشكلت (١/ ٣٨٣)، جامع المسائل (٤/ ٥٢).

وقال رحمه الله: (وإن زاد زيد فيها حتى يعلو قلبه، فذلك (الران) الذي ذكر الله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ رواه الترمذي وصححه، وفي الصحيح أنه قال: «إنَّه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة»[(١)] والغين حجاب رقيق أرق من الغيم فأخبر أنه يستغفر الله استغفاراً يزيل الغين عن القلب فلا يصير نكتة سوداء كما أن النكتة السوداء إذا أزيلت لا تصير رينا) ا.هـ[(٢)].

وقال رحمه الله: (وقال: «إن العبد إذا أذنب نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه، وإن زاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، فذلك الران الذي قال الله تعالى [فيه]: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾») ا.هـ[(٣)].

وقال رحمه الله: (والمؤمن لا يزال يخرج من الظلمات إلى النور، ويزداد هدى، فيتجدد له من العلم والإيمان ما لم يكن قبل ذلك، فيتوب مما تركه وفعله، والتوبة تصقل القلب وتجليه مما عرض له من رين الذنوب، كما قال النبي ﷺ: «إن العبد إذا أذنب نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه، وإن زاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، فذلك الران الذي قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾») ا.هـ[(٤)].

﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾.

(على ذلك الأحاديث الصحيحة التي في الصحيح وغيره، من حديث أبي سعيد وأبي هريرة وغيرهما مع موافقة ظاهر القرآن، قالوا: وقوله: ﴿لَّمَحْجُوبُونَ﴾ يشعر بأنهم عاينوا ثم حجبوا، ودليل ذلك قوله: ﴿إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾؛ فعلم أن الحجب كان يومئذ. فيشعر بأنه يختص بذلك اليوم، وذلك إنما هو في الحجب بعد الرؤية فأما المنع الدائم من الرؤية فلا يزال في الدنيا والآخرة) ا.هـ[(٥)].

وقال رحمه الله: (وكذلك قال أبو عبد الله الماجشون ـ وهو من أقران مالك ـ في كلام له: فورب السماء والأرض ليجعل الله رؤيته يوم القيامة للمخلصين ثواباً، فتنضر

---

(١) مرّ تخريجه.
(٢) مجموع الفتاوى (١٥/ ٢٨٣).
(٣) الاستقامة (٢/ ١٩٢ ـ ١٩٣).
(٤) جامع الرسائل (١/ ٢٣٧).
(٥) مجموع الفتاوى (٦/ ٤٦٦).

بها وجوههم دون المجرمين، وتفلج بها حجتهم على الجاحدين، جهم وشيعته، وهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون، لا يرونه كما زعموا أنه لا يرى، ولا يكلمهم، ولا ينظر إليهم، ولهم عذاب أليم؛ كيف لم يعتبروا يقول الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾؟ أفيظن أن الله يقصيهم ويعنتهم ويعذبهم بأمر يزعم الفاسق أنه وأولياءه فيه سواء، ومثل هذا الكلام كثير في كلام غير واحد من السلف، مثل وكيع بن الجراح وغيره) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (وقال: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ واختصاص بعض خلقه بالحجاب يمنع أن يكون الجميع محجوبين، وإذا كان البعض محجوباً والبعض ليس محجوباً امتنع أن يكون فيهم كلهم، لأن نسبتهم إليه حينئذ تكون نسبة واحدة، ووجب أن يكون بينه وبين بعضهم حجاباً، وذلك يقتضي المباينة كما تقدم.

ومثل هذا قوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٦٢] وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٣٠] وقوله: ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الكهف: ٤٨] ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة: ١٢] فلفظ (إليه) و(عنده) و(عليه) بحيث يكون بعض الخلق مردوداً إليه وبعضهم موقوفاً عليه ومعروضاً عليه وبعضهم ناكسو رؤوسهم عنده يقتضي أن الخلق ليسوا كلهم كذلك، وأنهم قبل ذلك لم يكونوا كذلك، وأنهم مباينون له منفصلون عنه، وأنه بحيث يكون شيء عنده ويرد شيء إليه ويعرض، ولو كانت ذاته مختلطة بذواتهم لامتنع ذلك، وهذا يقتضي مباينته وامتيازه واختصاصه بجهة وحدٍّ) ا.هـ[2].

وقال رحمه الله: (وفي الأحاديث والآثار ما يصدق هذا، قال الله تعالى في حق الكفار: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُواْ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾﴾ فعذاب الحجاب أعظم أنواع العذاب، ولذة النظر إلى وجهه أعلى اللذات؛ ولا تقوم حظوظهم من سائر المخلوقات مقام حظهم منه تعالى) ا.هـ[3].

---

(١) مجموع الفتاوى (٦/ ٥٠٠).
(٢) بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٥٤٨ ـ ٥٤٩).
(٣) مجموع الفتاوى (١/ ٢٧).

وقال رحمه الله: (ويقولون: إن الله يُرَى بالأبصار يوم القيامة كما يرى القمر ليلة البدر يراه المؤمنون ولا يراه الكافرون لأنهم عن الله محجوبون قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾) ا.هـ[1].

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

(وأهل الجنة نوعان: سابقون مقربون، وأبرار أصحاب يمين.

قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

قال ابن عباس: «تمزج لأصحاب اليمين مزجاً، ويشربها المقربون صرفاً»[2]) ا.هـ[3].

وقال رحمه الله: (وكذلك قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ إن (البر) سبب هذا الثواب و(البر) مشترك بين الصنفين، وكذلك كل ما علقت به (الرؤية) من اسم الإيمان ونحوه يقتضي أنه هو السبب في ذلك فيعم الطائفتين) ا.هـ[4].

وقال رحمه الله: (والمقربون هم فوق أصحاب اليمين الأبرار، الذين كتابهم في عليين: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

قال ابن عباس: ﴿يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ صرفا، وتمزج لأصحاب اليمين مزجا.

فقد أخبر أن الأبرار في نفس النعيم، وأنهم يسقون من الشراب الذي وصفه الله تعالى، ويجلسون على الأرائك ينظرون فكيف يقال: إن المقربين ـ الذين هم أعلىٰ من هؤلاء بحيث يشربون صرفها ويمزج لهؤلاء مزجا ـ إنما تقريبهم هو مجرد النعيم الذي

---

(١) الفتاوى (التسعينية) (٥/٩٨).
(٢) ابن جرير (٣٠/١٠٩).
(٣) الاستقامة (٢/١١١ ـ ١١٢).
(٤) مجموع الفتاوى (٦/٤٣٩).

أولئك فيه؟ هذا مما يعلم فساده بأدنى تأمل) ا.هـ[١].

وقال رحمه الله: (وكذلك ذكر في سورة المطففين فقال: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧﴾ [المطففين] إلى أن قال: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ۝١٨ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٢٠ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢١ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝٢٢ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٢٣ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۝٢٤ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ۝٢٦ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝٢٧ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢٨﴾، وعن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره من السلف قالوا: «يمزج لأصحاب اليمين مزجاً ويشرب بها المقربون صرفاً»، وهو كما قالوا، فإنه تعالى قال: ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ ولم يقل: يشرب منها لأنه ضمن ذلك قوله يشرب يعني يروي بها، فإن الشارب قد يشرب ولا يروى فإذا قيل يشربون منها لم يدل على الري، فإذا قيل يشربون بها كان المعنى يروون بها، فالمقربون يروون بها فلا يحتاجون معها إلى دونها؛ فلهذا يشربون منها صرفاً، بخلاف أصحاب اليمين فإنها مزجت لهم مزجاً، وهو كما قال تعالى في سورة الإنسان: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦﴾ [الإنسان]) ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (قوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾، فإنه لو قيل: يشرب منها لم تدل على الري، فضمن يشرب معنى يروي، فقيل: ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ فأفاد ذلك أنه شرب يحصل معه الري) ا.هـ[٣].

﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ۝٣٤ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٣٥ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ۝٣٦﴾.

(روي عن ابن عباس: أنه يفتح لهم باب من الجنة وهم في النار فيسرعون إليه فيغلق، ثم يفتح لهم باب آخر فيسرعون إليه فيغلق، فيضحك منهم المؤمنون، قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ۝٣٤ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٣٥ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ۝٣٦﴾) ا.هـ[٤].

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٤١٧)، (٦/ ١٢ ـ ١٣)، (١١/ ٢٣ ـ ٢٤)، جامع الرسائل (١/ ٢٢٨).
(٢) مجموع الفتاوى (١٨/ ١٧٧ ـ ١٧٨).
(٣) مجموع الفتاوى (٢١/ ١٢٣).
(٤) مجموع الفتاوى (٧/ ١١٢).

سورة الانشقاق

وقال في السجود في هذه السورة:

(ففي الصحيحين عن أبي رافع قال صليت مع أبي هريرة العتمة، فقرأ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١﴾ فسجد فقلت: ما هذه؟ قال: سجدت بها خلف أبي القاسم، ولا أزال أسجد بها حتى ألقاه[١]، وهذا الحديث قد اتفق العلماء على صحته) ا.هـ[٢].

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢﴾.

(قوله: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢﴾ أي سمعت) ا.هـ[٣].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦﴾.

(﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦﴾ فذكر أنه يكدح إلى الله فيلاقيه، والكدح إليه يتضمن السلوك والسير إليه، واللقاء يعقبهما) ا.هـ[٤].

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾.

(وكذلك لما قال: «من نوقش الحساب عذب، قالت له عائشة: ألم يقل الله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾ فقال: «ذلك العرض ومن نوقش الحساب عذب»[٥].

ومعلوم أن الحساب اليسير لا يتناول من نوقش، وقد زادها بياناً، فأخبر أنه العرض لا المقابلة المتضمنة للمناقشة) ا.هـ[٦].

---

(١) البخاري (١/ ١٩٤)، ومسلم (٢/ ٨٩).
(٢) مجموع الفتاوى (٢٣/ ١٥٣).
(٣) مجموع الفتاوى (١١/ ٥٩٠) (١٣/ ١٣٣).
(٤) مجموع الفتاوى (٦/ ٤٦٢ ـ ٤٦٣).
(٥) مرّ تخريجه.
(٦) الجواب الصحيح (١/ ٢٢٧ ـ ٢٢٨)، درء تعارض العقل (٥/ ٢٢٨)، الصفدية (١/ ١٤)، منهاج السنة (١/ ٤٦٨).

﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾﴾.

(وأيضاً ففي الصحيح أنه قال ﷺ: «من نوقش الحساب عذب. قالت عائشة: فقلت: يا رسول الله، أليس الله يقول في كتابه: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾﴾، فقال: ذلك العرض، ومن نوقش الحساب عذب».

ومعلوم أن قوله: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ لا يدل ظاهره على أن المحاسب يناقش، بل الظاهر من لفظ الحساب اليسير أنه لا تكون فيه مناقشة، ومع هذا فلما قال: من نوقش الحساب عذب، فظنت امرأة تحبه ويحبها ـ وهي أحب النساء إليه، وأبوها أحب الرجال إليه ـ أن ظاهر خطابه يعارض تلك الآية ـ سألته عن ذلك ولم تسكت)[1].

وقال رحمه الله: (فلما نفى النبي ﷺ مناقشة الحساب عن الناجين، لم ينف كل ما يُسَمَّى حساباً، والحسابُ يراد به الموازنة بين الحسنات والسيئات، وهذا يتضمن المناقشة، ويُراد به عرض الأعمال على العامل وتعريفه بها.

ولهذا لما تنازع أهل السنة في الكفار: هل يحاسبون أم لا؟ كان فصل الخطاب إثبات الحساب، بمعنى عدّ الأعمال وإحصائها وعرضها عليهم، لا بمعنى إثبات حسنات نافعة لهم في ثواب يوم القيامة تقابل سيئاتهم) ا.هـ[2].

وقال رحمه الله: (إن العباد لا بد لهم من سيئات، ولا بد في حياتهم من تقصير، فلولا عفو الله لهم عن السيئات، وتقبله أحسن ما عملوا لما استحقوا ثواباً. ولهذا قال ﷺ: «من نوقش الحساب عُذِّب، قالت عائشة: يا رسول الله، أليس الله يقول: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾﴾ [الحاقة] قال: ذلك العرض، ومن نوقش الحساب عُذِّب») ا.هـ[3].

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴿١٦﴾﴾.

(قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴿١٦﴾﴾، بالحمرة، وما قبلها من النهار، وفهم أكثر الصحابة وأكابرهم من الشفق الحمرة. قال عمر وابن عمر وابن عباس وأبو هريرة رضي الله عنهم: «الشفق الحمرة» وقال عبادة بن الصامت وشداد بن أوس: «الشفق

---

(١) درء تعارض العقل (٧/ ٤٨).

(٢) درء تعارض العقل (٥/ ٢٢٩).

(٣) جامع الرسائل (١/ ١٥٠).

شفقان الحمرة والبياض، فإذا غابت الحمرة حلت الصلاة»[١]) ا.هـ[٢].

﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾﴾.

(وفي قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾﴾ فهذا يتناول جميع القرآن، وأنه من قرئ عليه القرآن فهو مأمور بالسجود، والمصلي قد قرئ عليه القرآن، وذلك سبب للأمر بالسجود، فلهذا يسمع القرآن ويسجد الإمام والمنفرد يسمع قراءة نفسه وهو يقرأ على نفسه القرآن وقد يقال: لا يصلون؛ لكن قوله: ﴿خَرُّوا۟ سُجَّدًا﴾ [السجدة: ١٥] صريح في السجود المعروف، لاقترانه بلفظ الخرور. وأما هذه الآية ففيها نزاع، قال أبو الفرج[٣]: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾﴾ فيه قولان:

أحدهما: لا يصلون، قاله عطاء، وابن السائب[٤].

والثاني: لا يخضعون له، ولا يستكينون له، قاله ابن جرير[٥].

واختاره القاضي أبو يعلى، قال: واحتج بها قوم على وجوب سجود التلاوة، وليس فيها دلالة على ذلك، وإنما المعنى لا يخشعون، ألا ترى أنه أضاف السجود إلى جميع القرآن، والسجود يختص بمواضع منه.

قلت: القول الأول هو الذي يذكره كثير من المفسرين، لا يذكرون غيره: كالثعلبي، والبغوي، وحكوه عن مقاتل، والكلبي وهو المنقول عن مفسري السلف، وعليه عامة العلماء.

وأما القول الثاني: فما علمت أحداً نقله عن أحد من السلف، والذين قالوه إنما قالوه لما رأوا أنه لا يجب على كل من سمع شيئاً من القرآن أن يسجد، فأرادوا أن يفسروا الآية بمعنى يجب في كل حال. فقالوا: يخضعون، ويستكينون، فإن هذا يؤمر به كل من قرئ عليه القرآن) ا.هـ[٦].

---

(١) أخرج هذه الآثار ما عدا أثر عمر، وابن عباس: الدارقطني (١/ ٢٦٩)، والبيهقي في السنن (٢/ ٣٧٣).

(٢) شرح العمدة ـ الصلاة (١٧٦).

(٣) زاد المسير (٩/ ٦٨).

(٤) زاد المسير (٩/ ٦٨).

(٥) ابن جرير (٣٠/ ١٢٥).

(٦) مجموع الفتاوى (٢٣/ ١٥٠ ـ ١٥٢).

سورة البروج

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾.

(وقد دل على ذلك أيضاً ما ذكره الله في قصة أصحاب الأخدود حيث قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾.

وقد روى مسلم[1] في صحيحه عن صهيب قصتهم مبسوطة، فيها: أن الراهب صبر حتى قتل، وأن الغلام أمر بقتل نفسه لما علم أن ذلك سبب لإيمان الناس إذا رأوا تلك الآية، وأن الناس لما آمنوا فتنهم الكفار حتى يرجعوا عن دينهم فلم يرجعوا، حتى إن المرأة التي أرادت أن ترجع أنطق الله صبيها، وقال: اصبري يا أماه فإنك على الحق) ا.هـ[2].

وقال رحمه الله: (﴿ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟﴾ وكانت فتنتهم أنهم ألقوهم في النار حتى كفروا) ا.هـ[3].

وقال رحمه الله: (وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾ قال الحسن البصري: انظروا إلى هذا الكرم والجود، فتنوا أولياءه وعذبوهم بالنار، ثم هو يدعوهم إلى التوبة) ا.هـ[4].

﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾﴾.

(والودود فعول من الود، وقال شعيب: ﴿إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠] وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾﴾ فقرنه بالرحيم في موضع وبالغفور في موضع، قال أبو بكر بن الأنباري: الودود معناه المحب لعباده، من قولهم: وددت الرجل أوده وداً ووداً ووداً ويقال: وددت الرجل وداداً وودادة. وقال الخطابي: هو اسم مأخوذ من الود وفيه وجهان: أحدهما أن يكون فعولاً في محل مفعول كما قيل رجل هيوب بمعنى

(١) مسلم (٨/ ٢٢٩ ـ ٢٣١ ـ النووي). (٢) الاستقامة (٢/ ٣٣٢).
(٣) الصارم المسلول (٤٩٥).
(٤) منهاج السنة (٦/ ٢٠٦)، مجموع الفتاوى (١٨/ ١٨٦).

مهيب وفرس ركوب بمعنى مركوب، والله ﷻ مودود في قلوب أوليائه لما يعرفونه من إحسانه إليهم، والوجه الآخر أن يكون بمعنى الود أي أنه يود عباده الصالحين بمعنى أنه يرضى عنهم ويتقبل أعمالهم ويكون معناه أن يوددهم إلى خلقه كقوله: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦] قلت قوله: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ فسروها بأنه يحبهم ويحببهم إلى عباده كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا أحب الله العبد نادى يا جبريل إني أحب فلاناً فأحبه فيحبه جبريل ثم ينادي في السماء إن الله يحب فلاناً فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض»[1] وقال في البغض مثل ذلك. وقال عبد بن حميد أنبأ عبيد الله بن موسى عن ابن أبي ليلى عن الحكم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ قال يحبهم ويحببهم، ورواه ابن أبي حاتم أيضاً وقال عبد أخبرني شبابة عن ورقاء عن ابن أبي نجيح عن مجاهد ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ قال: يحبهم ويحببهم إلى المؤمنين، أخبرنا عبد الرزاق عن الثوري عن مسلم عن مجاهد عن ابن عباس ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ قال: محبة، وهذا فيه إثبات حبه لهم بعد أعمالهم بقوله: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ وهو نظير قوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] فهو يحبهم إذا اتبعوا الرسول، ونظير قوله في الحديث الصحيح «ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها»[2] وكذلك قوله: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [التوبة: ٤]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ [الصف].

وهذه الآيات وأشباهها تقتضي أن الله يحب أصحاب هذه الأعمال فهو يحب التوابين، وإنما يكونون توابين بعد الذنب، ففي هذه الحال يحبهم، وهذا مبني على الصفات الاختيارية، فمن نفاها رد هذا كله، ولهم قولان: أحدهما: أن المحبة قديمة، فهو يحبهم في الأزل إذا علم أنهم يموتون على حال مرضية، ويقولون: إن الله يحب الكفار في حال كفرهم إذا علم أنهم يموتون على الإيمان، ويبغض المؤمن إذا علم أنه يرتد، هذا قول ابن كلاب ومن تبعه، ثم منهم من يفسر المحبة بالإرادة. ومنهم من يقول هي صفة زائدة على الإرادة، والقول الثاني يجعلون هذا من باب الفعل فالمحبة

(١) مرّ تخريجه. (٢) مرّ تخريجه.

عندهم إحسانه إليهم والإحسان عندهم ليس فعلاً قائماً به بل بائناً عنه. والكتاب والسنة وأقوال السلف والأئمة والأدلة العقلية إنما تدل على القول الأول كما قد بسط في غير هذا الموضع إذ المقصود هنا ذكر اسمه الودود، والأكثرون على ما ذكره ابن الأنباري وأنه فعول بمعنى فاعل أي هو الواد كما قرنه بالغفور، وهو الذي يغفر، وبالرحيم وهو الذي يرحم، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، ثنا عيسى بن جعفر قاضي الري، ثنا سفيان في قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠]، قال: محب وقال: قُرئ على يونس، ثنا ابن وهب قال وقال ابن زيد: قوله: ﴿ٱلْوَدُودُ﴾ قال: الرحيم، وقد ذكر فيه قولين: القول الأول رواه من تفسير الوالبي عن ابن عباس قوله: الودود قال: الحبيب، والثاني قول ابن زيد: الرحيم، وما ذكره الوالبي أنه الحبيب قد يراد به المعنيان أنه يُحِبُّ ويُحَبُّ فإن الله يُحِبُّ من يحبه وأولياؤه يحبهم ويحبونه، والبغوي ذكر الأمرين فقال: وللودود معنيان: أن يحب المؤمنين، وقيل هو بمعنى المودود أي محبوب المؤمنين، وقال أيضاً في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾﴾ أي المحب لهم وقيل: معناه المودود كالحلوب والركوب بمعنى المحلوب والمركوب، وقيل: يغفر ويود أن يغفر وقيل المتودد إلى أوليائه بالمغفرة: قلت: هذا اللفظ معروف في اللغة أنه بمعنى الفاعل كقول النبي ﷺ: «تزوجوا الودود الولود» وفعول بمعنى فاعل كثير كالصبور والشكور وأما مفعول فقليل وأيضاً فإن سياق القرآن يدل على أنه أراد أنه هو الذي يود عباده كما أنه هو الذي يرحمهم ويغفر لهم، فإن شعيباً قال: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ [هود] فذكر رحمته ووده كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١] وهو أراد وصفاً يبين لهم أنه سبحانه يغفر الذنب ويقبل على التائب وهو كونه ودوداً كما قال إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين وقد ثبت في الصحاح من غير وجه عن النبي ﷺ أن الله يفرح بتوبة التائب أشد من فرح من فقد راحلته بأرض دوية مهلكة ثم وجدها بعد اليأس فهذا الفرح منه بتوبة التائب يناسب محبته له ومودته له وكذلك قوله في الآية الأخرى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾﴾ فإنه مثل قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الأحقاف: ٨] وأيضاً فإن كونه مودوداً أي محبوباً يذكر على الوجه الكامل الذي يتبين اختصاصه به مثل اسم الإله فإن الإله المعبود هو مودود بذلك ومثل اسمه الصمد ومثل ذي الجلال والإكرام ونحو ذلك وكونه مودوداً ليس بعجيب وإنما العجب جوده وإحسانه فإنه يتودد إلى عباده كما جاء في الأثر «يا عبدي كم أتودد إليك بالنعم

وأنت تتمقت إليَّ بالمعاصي، ولا يزال ملك كريم يصعد إلي منك بعمل سيء» وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال يقول الله تعالى: «من تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً ومن تقرب مني ذراعاً تقربت إليه باعاً ومن أتاني يمشي أتيته هرولة» وجاء في تفسير اسمه الحنان المنان أن الحنان الذي يقبل على من أعرض عنه والمنان الذي يجود بالنوال قبل السؤال، وأيضاً فمبدأ الحب والود منه لكن اسمه الودود يجمع المعنيين، كما قال الوالبي عن ابن عباس أنه الحبيب وذلك أنه إذا كان يود عباده فهو مستحق لأن يوده العباد بالضرورة، ولهذا من قال: أنه يحب المؤمنين، قال: إنهم يحبونه فإن كثيراً من الناس يقول: إنه محبوب وهو لا يحب شيئاً مخصوصاً لكن محبته بمعنى مشيئة العامة، ومن الناس من قال: إنه لا يحب مع أنه يثبت محبته للمؤمنين فالقسمة في المحبة رباعية فالسلف وأهل المعرفة أثبتوا النوعين، قالوا إنه يحب ويحب والجهمية والمعتزلة تنكر الأمرين ومن الناس من قال إنه يحبه المؤمنون وأما هو فلا يحب شيئاً دون شيء ومنهم من عكس فقال: بل هو يحب المؤمنين مع أنه ذاته لا يحب كما يقولون: إنه يرحم ولا يرحم فإذا قيل: إن الودود بمعنى الواد لزم أن يكون مودوداً بخلاف العكس فالصواب القطع بأن الودود هو الذي يود وإن كان ذلك متضمناً لأنه يستحق أن يود ليس هو بمعنى المودود فقط ولفظ الوداد بالكسر هو مثل الموادة والتواد وذاك يكون من الطرفين كالتحاب وهو سبحانه لما جعل بين الزوجين مودة ورحمة كان كل منهما يود الآخر ويرحمه وهو سبحانه كما ثبت في الحديث الصحيح: أرحم بعباده من الوالدة بولدها وقد بين الحديث الصحيح أن فرحه بتوبة التائب أعظم من فرح الفاقد ماله ومركوبه في مهلكة إذا وجدهما بعد اليأس وهذا الفرح يقتضي أنه أعظم مودة لعبده المؤمن من المؤمنين بعضهم لبعض كيف وكل ود في الوجود فهو من فعله فالذي جعل الود في القلوب هو أولى بالود كما قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما في قوله: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦] قال: يحبهم ويحببهم. وقد دل الحديث الذي في الصحيحين على أن ما يجعله من المحبة في قلوب الناس هو بعد أن يكون هو قد أحبه وأمر جبريل أن ينادي بأن الله يحبه فنادى جبريل في السماء أن الله يحب فلاناً فأحبوه وبسط هذا له موضع آخر).

وفي مناجاة بعض الداعين: ليس العجب من حبي لك مع حاجتي إليك، العجب من حبك لي مع غناك عني، وفي أثر آخر: يا عبدي وحقي إني لك محب فبحقي عليك

كن لي محباً. ورُوِي: يا داود حببني إلى عبادي وحبب عبادي إلي، مُرْهُم بطاعتي فأحبهم، وذكِّرهم آلائي فيحبوني؛ فإنهم لا يعرفون مني إلا الحسن الجميل، وهو سبحانه كما قال. كل ما خلقه فإنه من نِعمَه على عباده، ولهذا يقول: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ [الرحمن] والخير بيديه لا يأتي بالحسنات إلا هو ولا يذهب بالسيئات إلا هو ولا حول ولا قوة إلا به ولا ملجأ ولا منجا منه إلا إليه، ووده سبحانه هو لمن تاب إليه وأناب إليه كما قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ [مريم] وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] فلا يستوحش أهل الذنوب وينفرون منه كأنهم حمر مستنفرة فإنه ودود رحيم بالمؤمنين يحب التوابين ويحب المتطهرين، ولهذا قال شعيب ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ [هود] وقال هنا: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾﴾ فذكر الودود في الموضعين لبيان مودته للمذنب إذا تاب إليه بخلاف القاسي الجافي الغليظ الذي لا ود فيه) ا.هـ[1].

﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾.

(وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ وقد قرئ (المجيد) بالرفع صفة لله؛ وقرئ بالخفض صفة للعرش) ا.هـ[2].

وقال رحمه الله: (وقد تجيء خبراً بعد خبر، كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ ولو كان (فعال) صفة لكان مُعَرَّفاً بل هو خبر بعد خبر) ا.هـ[3].

---

(١) النبوات (٧١ ـ ٧٥)، وجميع الآثار والأحاديث في هذا المقطع مر تخريجها سابقاً.
(٢) مجموع الفتاوى (٥/ ٥٥١).
(٣) مجموع الفتاوى (١٦/ ١٢٨).

سورة الطارق

﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦﴾.

(وكذلك لفظ (الماء) عند الإطلاق لا يتناول المني؛ وإن كان يسمى ماء مع التقييد، كقوله تعالى: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (قوله تعالى: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦﴾ سمى المني ماء تسمية مقيدة) ا.هـ[2].

﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣﴾.

(وقد قال تعالى في القرآن: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣﴾ أي فاصل يفصل بين الحق والباطل، فكيف يكون فصلاً إذا لم يكن إلى معرفة معناه سبيل؟!) ا.هـ[3].

---

(١) مجموع الفتاوى (٣٢/ ٣٠٥).
(٢) اقتضاء الصراط (١/ ٢٠٩).
(٣) مجموع الفتاوى (١٧/ ٢٣٢).

سورة الأعلى

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾.

(وأيضاً: فعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: «لما نزلت ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤﴾ [الواقعة] قال رسول الله ﷺ: اجعلوها في ركوعكم ولما نزلت: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ قال: اجعلوها في سجودكم»، رواه أبو داود، وابن ماجه[1]) ا.هـ[2].

وقال رحمه الله: (وقال: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ فقال النبي ﷺ: «اجعلوها في سجودكم»، فالله هو الأعلى، وهو الأكبر، والعلم مطابق للمعلوم فيجب أن تكون معرفته وعلمه: أكبر العلوم وأعلاها) ا.هـ[3].

قال رحمه الله: (وأما احتجاجهم بقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ وأن المراد سبح ربك الأعلى وكذلك قوله: ﴿تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٧٨﴾ [الرحمٰن] وما أشبه ذلك فهذا للناس فيه قولان معروفان وكلاهما حجة عليهم، منهم من قال: الاسم هنا صلة والمراد سبح ربك وتبارك ربك وإذا قيل هو صلة فهو زائد لا معنى له، فيبطل قولهم إن مدلول لفظ اسم ألف سين ميم هو المسمى؛ فإنه لو كان مدلول مراد لم يكن صلة.

ومن قال: إنه هو المسمى وأنه صلة كما قاله ابن عطية فقد تناقض؛ فإن الذي يقول هو صلة لا يجعل له معنى كما يقول ذلك في الحروف الزائدة التي تجيء للتوكيد كقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩] و﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ۝٤٠﴾ [المؤمنون] ونحو ذلك.

ومن قال: إنه ليس بصلة، بل المراد تسبيح الاسم نفسه، فهذا مناقض لقولهم مناقضة ظاهرة.

والتحقيق أنه ليس بصلة بل أمر الله بتسبيح اسمه كما أمر بذكر اسمه. والمقصود بتسبيحه وذكره هو تسبيح المسمى وذكره؛ فإن المسبح والذاكر إنما يسبح اسمه ويذكر

---

(١) مرّ تخريجه.

(٢) القواعد النورانية (٦٢)، مجموع الفتاوى (٢٢/ ٣٧٨).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٥٥٠).

اسمه فيقول: سبحان ربي الأعلى، فهو نطق بلفظ ربي الأعلى، والمراد هو المسمى بهذا اللفظ، فتسبيح الاسم هو تسبيح المسمى ومن جعله تسبيحاً للاسم يقول: المعنى: إنك لا تسم به غير الله ولا تلحد في أسمائه فهذا مما يستحقه اسم الله، لكن هذا تابع للمراد بالآية ليس هو المقصود بها القصد الأول.

وقد ذكر الأقوال الثلاثة غير واحد من المفسرين كالبغوي قال: قوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ أي قل: سبحان ربي الأعلى، وإلى هذا ذهب جماعة من الصحابة، وذكر حديث ابن عباس أن النبي ﷺ قرأ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ فقال: سبحان ربي الأعلى. قلت في ذلك حديث عقبة بن عامر عن النبي ﷺ أنه لما نزل: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤﴾ [الواقعة] قال: اجعلوها في ركوعكم، ولما نزل ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ قال: اجعلوها في سجودكم، والمراد بذلك أن يقولوا في الركوع: سبحان ربي العظيم وفي السجود: سبحان ربي الأعلى كما ثبت في الصحيح عن حذيفة عن النبي ﷺ أنه قام بالبقرة والنساء وآل عمران ثم ركع نحواً من قيامه يقول: «سبحان ربي العظيم» وسجد نحواً من ركوعه يقول: «سبحان ربي الأعلى».

وفي السنن عن ابن مسعود عن النبي ﷺ: إذا قال العبد في ركوعه سبحان ربي العظيم ثلاثاً فقد تم ركوعه، وذلك أدناه، وإذا قال في سجوده: سبحان ربي الأعلى ثلاثاً فقد تم سجوده، وذلك أدناه.

وقد أخذ بهذا جمهور العلماء، قال البغوي: وقال قوم: معناه: نزه ربك الأعلى عما يصفه به الملحدون إنما نطق بالاسم الذي هو الله والذي هو ربنا فتسبيحه إنما وقع على الاسم لكن مراده هو المسمى، فهذا يبين أنه ينطق باسم المسمى والمراد المسمى. وهذا لا ريب فيه، لكن هذا لا يدل على أن لفظ اسم الذي هو «ألف سين ميم» المراد به المسمى لكن يدل على أن أسماء الله مثل الله وربنا وربي الأعلى ونحو ذلك يراد بها المسمى مع أنها هي في نفسها ليست هي المسمى، لكن يراد به المسمى الذي هو الذات ولكن يراد به مسماه الذي هو الأسماء كأسماء الله الحسنى في قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠] فله هذه الأسماء الحسنى التي جعلها هؤلاء هي التسميات وجعلوا التعبير عنها بالأسماء توسعاً فخالفوا إجماع الأمم كلهم من العرب وغيرهم، وخالفوا صريح المعقول وصحيح المنقول.

والذين شاركوهم في هذا الأصل وقالوا: الأسماء ثلاثة قد تكون هي المسمى

وقد تكون غيره وقد تكون لا هي هو ولا غيره وجعلوا الخالق والرازق ونحوهما غير المسمى وجعلوا العليم والحكيم ونحوهما للمسمى غلطوا من وجه آخر فإنه إذا سلم لهم أن المراد بالاسم الذي هو «ألف سين ميم» هو مسمى الأسماء فاسمه الخالق هو الرب الخالق نفسه ليس هو المخلوقات المنفصلة، واسمه العليم هو الرب العليم الذي العلم صفة له، فليس العلم هو المسمى، بل المسمى هو العليم فكان الواجب أن يقال على أصلهم: الاسم هنا هو المسمى وصفته. وفي الخالق الاسم هو المسمى وفعله.

ثم قولهم إن الخلق هو المخلوق وليس الخلق فعلاً قائماً بذاته قول ضعيف مخالف لقول جمهور المسلمين كما قد بسط في موضعه. فتبين أن هؤلاء الذين قالوا: الاسم هو المسمى إنما يسلم لهم أن أسماء الأشياء إذا ذكرت في الكلام أريد به المسمى، وهذا مما لا ينازع فيه أحد من العقلاء؛ لا أن لفظ اسم «ألف سين ميم» يراد به الشخص.

وما ذكروه من قول لبيد:

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما

فمراده ثم النطق بهذا الاسم وذكره وهو التسليم المقصود، كأنه قال: ثم سلام عليكم، ليس مراده أن السلام يحصل عليهما بدون أن ينطق به ويذكر اسمه فإن نفس السلام قول فإن لم ينطق به ناطق ويذكره لم يحصل)[1].

قال ابن القيم:

(وعبر لي شيخنا أبو العباس ابن تيمية قدس الله روحه عن هذا المعنى بعبارة لطيفة وجيزة فقال: المعنى سبح ناطقاً باسم ربك متكلماً به) ا.هـ[2].

﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾.

(قال سبحانه: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾، وقال موسى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البلد]، وقال: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان].

ولهذا قيل: الهدى أربعة أقسام:

---

(١) مجموع الفتاوى (٦/ ١٩٩ ـ ٢٠٢).
(٢) بدائع الفوائد (١/ ١٧).

أحدها: الهداية إلى مصالح الدنيا، فهذا مشترك بين الحيوان الناطق والأعجم؛ وبين المؤمن والكافر.

والثاني الهدى بمعنى دعاء الخلق إلى ما ينفعهم وأمرهم بذلك، وهو نصب الأدلة وإرسال الرسل وإنزال الكتب، فهذا أيضاً يشترك فيه جميع المكلفين، سواء آمنوا أو كفروا، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، فهذا مع قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]، يبين أن الهدى الذي أثبته هو البيان والدعاء، والأمر والنهي، والتعليم وما يتبع ذلك، ليس هو الهدى الذي نفاه، وهو القسم الثالث الذي لا يقدر عليه إلا الله.

والقسم الثالث: الهدى الذي هو جعل الهدى في القلوب، وهو الذي يسميه بعضهم بالإلهام والإرشاد، وبعضهم يقول: هو خلق القدرة على الإيمان، كالتوفيق عندهم ونحو ذلك، وهو بناء على أن الاستطاعة لا تكون إلا مع الفعل فمن قال ذلك من أهل الإثبات جعل التوفيق والهدى ونحو ذلك خلق القدرة على الطاعة.

وأما من قال: إنهما استطاعتان:

«**إحداهما**»: قبل الفعل، وهي الاستطاعة المشروطة في التكليف، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقال النبي ﷺ لعمران بن حصين: «صل قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب»[1] وهذه الاستطاعة يقترن بها الفعل تارة والترك أخرى، وهي الاستطاعة التي لم تعرف القدرية غيرها، كما أن أولئك المخالفين لهم من أهل الإثبات لم يعرفوا إلا المقارنة، وأما الذي عليه المحققون من أئمة الفقه والحديث والكلام وغيرهم فإثبات النوعين جميعاً، كما قد بسطناه في غير هذا الموضع؛ فإن الأدلة الشرعية والعقلية تثبت النوعين جميعاً.

و«**الثانية**»: المقارنة للفعل؛ وهي الموجبة له، وهي المنفية عمن لم يفعل في مثل قوله: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠]، وقوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف: ١٠١]، وهذا الهدى الذي يكثر ذكره في القرآن في مثل قوله:

---

(١) مرّ تخريجه.

﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة]، وقوله: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وفي قوله: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧]، وأمثال ذلك.

وهذا هو الذي تنكر القدرية أن يكون الله هو الفاعل له، ويزعمون أن العبد هو الذي يهدي نفسه، وهذا الحديث وأمثاله حجة عليهم؛ حيث قال: «يا عبادي! كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم»[1] فأمر العباد بأن يسألوه الهداية، كما أمرهم بذلك في أم الكتاب في قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾، وعند القدرية أن الله لا يقدر من الهدى إلا على ما فعله من: إرسال الرسل ونصب الأدلة وإزاحة العلة، ولا مزية عندهم للمؤمن على الكافر في هداية الله تعالى، ولا نعمة له على المؤمن أعظم من نعمته على الكافر في باب الهدى.

وقد بين الاختصاص في هذه بعد عموم الدعوة في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ ۖ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٢٥﴾ [يونس]، فقد جمع الحديث: تنزيهه عن الظلم الذي يجوزه عليه بعض المثبتة، وبيان أنه هو الذي يهدي عباده، رداً على القدرية، فأخبر هناك بعدله الذي يذكره بعض المثبتة، وأخبر هنا بإحسانه وقدرته الذي تنكره القدرية، وإن كان كل منهما قصده تعظيماً لا يعرف ما اشتمل عليه قوله.

والقسم الرابع: الهدى في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ۝٢٣ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ۝٢٤﴾ [الحج] وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩﴾ [يونس] فقوله: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ﴾ كقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ﴾ [الطور: ٢١]، على أحد القولين في الآية، وهذا الهدى ثواب الاهتداء في الدنيا، كما أن ضلال الآخرة جزاء ضلال الدنيا؛ وكما أن قصد الشر في الدنيا جزاؤه الهدى إلى طريق النار، كما قال تعالى: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ۝٢٣﴾ [الصافات]) ا.هـ[2].

---

(١) مرّ تخريجه.

(٢) مجموع الفتاوى (١٨/ ١٧١ ـ ١٧٥).

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾.

(وقال في قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾: العطف يقتضي اشتراك المعطوف والمعطوف عليه فيما ذكر، وأن بينهما مغايرة في الصفات؛ فإن الذي خلق فسوى، هو الذي قدر فهدى؛ لكن هذا الاسم والصفة ليس هو ذاك الاسم والصفة) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (إن العطف يكون تارة لتغاير الذوات، وتارة لتغاير الصفات، كقوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥﴾، والذي خلق هو الذي قدر وأخرج، وكذلك قوله: ﴿إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ﴾) ا.هـ[2].

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠﴾.

(قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢﴾، فأخبر أن من يخشاه يتذكر، والتذكر هنا مستلزم لعبادته، قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ۝١٣﴾ [غافر] وقال: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨﴾ [ق]. ولهذا قالوا في قوله: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠﴾: سيتعظ بالقرآن من يخشى الله، وفي قوله: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾، إنما يتعظ من يرجع إلى الطاعة وهذا لأن التذكر التام يستلزم التأثر بما تذكره: فإن تذكر محبوباً طلبه، وإن تذكر مرهوباً هرب منه) ا.هـ[3].

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣﴾ فالجزاء من جنس العمل، لما كان في الدنيا ليس بحي الحياة النافعة التي خلق لأجلها، بل كانت حياته من جنس حياة البهائم، ولم يكن ميتاً عديم الإحساس، كان في الآخرة كذلك، فإن مقصود الحياة، هو حصول ما ينتفع به الحي ويستلذ به، والحي لا بد له من لذة أو ألم، فإذا لم تحصل له اللذة، لم يحصل له مقصود الحياة، فإن الألم ليس مقصوداً،

(١) بيان تلبيس الجهمية (١/ ٥٤٦ ـ ٥٤٧). (٢) الجواب الصحيح (٣/ ٤٥٩).
(٣) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٤ ـ ٢٥).

كمن هو حي في الدنيا، وبه أمراض عظيمة لا تدعه يتنعم بشيء مما يتنعم به الأحياء، فهذا يبقى طول حياته يختار الموت، ولا يحصل له) ا.هـ[١].

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾.

(فلهذا كانت هذه اللفظة في الشريعة تدل على الطهارة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾﴾ [الشمس] ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ نفس المتصدق تزكو، وماله يزكو، يطهر ويزيد في المعنى) ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (قالوا: في ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ تطهر من الشرك ومن المعصية بالتوبة، وعن أبي سعيد وعطاء وقتادة: صدقة الفطر[٣]، ولم يريدوا أن الآية لم تتناول إلا هي، بل مقصودهم: أن من أعطى صدقة الفطر وصلى صلاة العيد فقد تناولته وما بعدها، ولهذا كان يزيد بن حبيب[٤] كلما خرج إلى الصلاة خرج بصدقة، ويتصدق بها قبل الصلاة، ولو لم يجد إلا بصلا، قال الحسن: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾﴾ من كان عمله زاكياً[٥]، وقال أبو الأحوص[٦]: زكاة الأمور كلها، وقال الزجاج[٧]: تزكى بطاعة الله ﷻ، ومعنى الزاكي النامي الكثير.

وكذلك قالوا في قوله: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾﴾ [فصلت].

قال ابن عباس: لا يشهدون أن لا إله إلا الله، وقال مجاهد: لا يزكون أعمالهم أي ليست زاكية، وقيل لا يطهرونها بالإخلاص كأنه أراد ـ والله أعلم ـ أهل الرياء، فإنه شرك. وعن الحسن: لا يؤمنون بالزكاة، ولا يقرون بها، وعن الضحاك: لا يتصدقون ولا ينفقون في الطاعة، وعن السائب: لا يعطون زكاة أموالهم. قال: كانوا يحجون ويعتمرون ولا يزكون[٨].

و«التحقيق» أن الآية تتناول كل ما يتزكى به الإنسان من التوحيد والأعمال

---

(١) مجموع الفتاوى (١٤/ ٢٩٧ ـ ٢٩٨).
(٢) مجموع الفتاوى (٢٥/ ٨).
(٣) زاد المير (٩/ ٩١).
(٤) يزيد بن حبيب المتوفى سنة ١٧٥هـ وهو فقيه ثقة، وورد عن السلف آثار كثيرة في هذا المعنى يراجع الدر المنثور (٦/ ٢٤١).
(٥) الطبري (٣٠/ ١٥٦).
(٦) زاد المسير (٩/ ٩١).
(٧) زاد المسير (٩/ ٩١).
(٨) هذه الأقوال من «زاد المسير» (٧/ ٢٤٢).

الصالحة، كقوله: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ [النازعات: ١٨]، وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ [الشمس] والصدقة المفروضة لم تكن فرضت عند نزولها) ا.هـ[١].

فصل

قال الشيخ رحمه الله في تفسير هذه السورة:

قال ابن فورك في كتابه الذي كتبه إلى أبي إسحاق الإسفرائيني[٢] يحكي ما جرى له قال: وجرى في كلام السلطان[٣]: أليس تقول: إنه يرى لا في جهة؟ فقلت: «نعم ـ يرى لا في جهة، كما أنه لم يزل يرى نفسه لا في جهة، ولا من جهة، ويراه غيره على ما يرى ورأى نفسه، والجهة ليست بشرط في الرؤية، وقلت أيضاً: «المرئيات المعقولة فيما بيننا هكذا نراها في جهة ومحل، والقضاء بمجرد المعهود لا يمكن دون السير والبحث، لأنا كما لا نرى إلا في جهة ومحل كذلك لم نر إلا متلوناً ذا قدر وحجم يحتمل المساحة، والثقل[٤]، ولا يخلو من حرارة ورطوبة أو يبوسة إذا لم يكن عرضاً لا يقبل التثنية والتأليف وغير ذلك، ومع هذا فلا عبرة بشيء من هذا».

قال: ثم بلغني أن السلطان ذلك اليوم والليلة وثاني يوم يكرر على نفسه في مجلسه: «كيف يعقل شيء لا في جهة؟» وما شغل القلب في أول الأمر وتربى عليه فإن قلعه صعب، والله المعين، غير أنه فرحت الكرامية بما كان منه في ذلك، فلما رجعت إلى البيت فإذا أنا برقعة فيها مكتوب: «الأستاذ! ـ أدام الله سلامته ـ على مذهبه أن الباري ليس في جهة، فكيف يرى لا في جهة؟».

فكتبتُ: «خبر الرؤية صحيح، وهي واجبة كما بشرهم النبي ﷺ، وفيه دلالة على

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٦٣٢ ـ ٦٣٣).

(٢) هو إبراهيم بن محمّد بن إبراهيم بن مهران أبو إسحاق، عالم بالفقه والأصول كان يلقب بركن الدين. قال ابن تغري بردي وهو أول من لقب من الفقهاء نشأ في اسفرايين (بين نيسابور وجرجان) ثم خرج إلى نيسابور وبنيت له فيها مدرسة عظيمة فدرس فيها ورحل إلى خراسان وبعض أنحاء العراق فاشتهر له كتاب (الجامع) في أصول الدين خمس مجلدات، ورسالة في أصول الفقه، وكان ثقة في رواية الحديث وله مناظرات مع المعتزلة. مات في نيسابور عام ٤١٨هـ.

(٣) السلطان هو محمود بن سبكتكين.

(٤) كتب عبد الصمد شرف الدين في الهامش «بياض في الأصل» وكتب في الأصل: التجزئة والحركة (مقدراً البياض بهاتين الكلمتين).

أن الله يرى لا في جهة، لأنه ﷺ قال: «لا تضامون في رؤيته»[١] ومعناه: لا تضمكم جهة واحدة في رؤيته، فإنه لا في جهة» وكلاماً طويلاً من كل وجه ملأت ظهر الرقعة وبطنها منه.

فلما ردت إليه أنفذها إلى حاكم البلد، وهو أبو محمّد الناصحي، واستفتاه فيما قلته، فجمع قوماً من الحنفية، والكرامية، فكتب هو ـ أعزك الله ـ بأن من قال بأن الله لا يرى في جهة مبتدع ضال، وكتب أبو حامد المعتزلي مثله، وكتب إنسان بسطامي مؤدب[٢] في دار صاحب الجيش مثله، فردوا عليه، فأنفذ إلي ما في ذلك المحضر الذي فيه خطوطهم، وكتب إلي رقعة وقال فيها: «إنهم كتبوا هكذا، فما تقول في هذه الفتاوى؟».

فقلت: إن هؤلاء القوم يجب أن يسألوا عن مسائل الفقه التي يقال فيها بتقليد العامي للعالم، فأما معرفة الأصول والفتاوى فيها فليس من شأنهم، وهم يقولون: إنا لا نحسن ذلك.

قلت: قول هؤلاء: «إن الله يرى من غير معاينة ومواجهة» قول انفردوا به دون سائر طوائف الأمة، وجمهور العقلاء على أن فساد هذا معلوم بالضرورة.

والأخبار المتواترة عن النبي ﷺ ترد عليهم، كقوله في الأحاديث الصحيحة: «إنكم سترون ربكم كما ترون الشمس والقمر لا تضارون في رؤيته»[٣] وقوله لما سأله الناس: هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: «هل ترون الشمس صحواً ليس دونها سحاب؟». قالوا: نعم، «وهل ترون القمر صحواً ليس دونه سحاب؟» قالوا: نعم. قال: «فإنكم ترون ربكم كما ترون الشمس والقمر»[٤].

فشبه الرؤية بالرؤية ولم يشبه المرئي بالمرئي، فإن الكاف ـ حرف التشبيه ـ دخل على الرؤية، وفي لفظ للبخاري «يرونه عياناً». ومعلوم أنا نرى الشمس والقمر عياناً مواجهة، فيجب أن نراه كذلك، وأما رؤية ما لا نعاين ولا نواجهه فهذه غير متصورة في العقل، فضلاً عن أن تكون كرؤية الشمس والقمر.

ولهذا صار حذاقهم إلى إنكار الرؤية، وقالوا: قولنا هو قول المعتزلة في الباطن، فإنهم فسروا الرؤية بزيادة انكشاف ونحو ذلك مما لا ننازع فيه المعتزلة.

---

(١) مرّ تخريجه.
(٢) كتب عبد الصمد (يحتمل أن يكون مؤذن).
(٣) مرّ تخريجه.
(٤) مرّ تخريجه.

فإذا قيل: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] أي لا تحيط به، دل على أنه يوصف بنفي الإحاطة به مع إثبات الرؤية، وهذا ممتنع على قول هؤلاء، فإن هذا إنما يكون بزعمهم فيما ينقسم، فيرى بعضه من بعض، فتكون هناك رؤية بلا إدراك وإحاطة، وعندهم لا يتصور أن يرى إلا رؤية واحدة متماثلة، كما يقولونه في كلامه: إنه شيء واحد لا يتبعض ولا يتعدد، وفي الإيمان به: إنه شيء واحد لا يقبل الزيادة والنقصان. وأما الإدراك والإحاطة الزائدة على مطلق الرؤية فليس انتفاؤه لعظمة الرب عندهم، بل لأن ذاته لا تقبل ذاك كما قالت المعتزلة: إنها لا تقبل الرؤية.

وأيضاً فهم والمعتزلة لا يريدون أن يجعلوا للأبصار إدراكاً غير الرؤية. سواء أثبتت الرؤية أو نفيت، فإن هذا يبطل قول المعتزلة بنفي الرؤية، ويبطل قول هؤلاء بإثبات رؤية بلا معاينة ومواجهة.

فصل

هذا مع أن ابن فورك هو ممن يثبت الصفات الخبرية كالوجه واليدين، وكذلك المجيء والإتيان، موافقة لأبي الحسن، فإن هذا قوله وقول متقدمي أصحابه.

فقال ابن فورك فيما صنف في أصول الدين، فإن سألت الجهمية عن الدلالة على أن القديم سميع بصير، قيل لهم: قد اتفقنا على أنه من تستحيل عليه الآفات، والحي إذا لم يكن مأووفاً بآفات تمنعه من إدراك المسموعات والمبصرات كان سميعاً بصيراً.

وإن سألت فقلت: «أين هو؟» فجوابنا «إنه في السماء» كما أخبر في التنزيل عن نفسه بذلك فقال ـ عز من قائل ـ ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦].

وإشارة المسلمين بأيديهم عند الدعاء في رفعها إليه، وأنك لو سألت صغيرهم وكبيرهم فقتل: «أين الله؟» لقالوا: «إنه في السماء» ولم ينكروا لفظ السؤال بـ«أين» لأن النبي ﷺ سأل الجارية التي عرضت للعتق فقال: «أين الله؟» فقالت: «في السماء» مشيرة بها. فقال النبي ﷺ: «أعتقها فإنها مؤمنة»[1] ولو كان ذلك قولاً منكراً لم يحكم بإيمانها، ولأنكره عليها، ومعنى ذلك أنه فوق السماء، لأن «في» بمعنى «فوق» قال الله تعالى: ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [التوبة: ٢] أي فوقها. قال: وإن سألت «كيف هو؟» قلنا له: «كيف» سؤال عن صفته، وهو ذو الصفات العلى ـ هو العالم الذي له العلم،

(١) مر الكلام عليه.

والقادر الذي له القدرة، والحي الذي له الحياة، الذي لم يزل منفرداً بهذه الصفات لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء.

«قلت» فهذا الكلام هو موافق لما ذكره الأشعري في كتاب «الإبانة» ولما ذكره ابن كلاب كما حكاه عنه ابن فورك؟، لكن ابن كلاب يقول: إن العلو والمباينة من الصفات العقلية، وأما هؤلاء فيقولون: كونه في السماء صفة خبرية كالمجيء والإتيان، ويطلقون القول بأنه بذاته فوق العرش، وذلك صفة ذاتية عندهم.

والأشعري يبطل تأويل من تأول الاستواء بمعنى الاستيلاء والقهر بأنه لم يزل مستولياً على العرش وعلى كل شيء والاستواء مختص بالعرش. فلو كان بمعنى الاستيلاء لجاز أن يقال «هو مستو على كل شيء وعلى الأرض وغيرها» كما يقال: «إنه مستول عليها» ولما اتفق المسلمون على أن الاستواء مختص بالعرش، فهذا الاستواء الخاص ليس بمعنى الاستيلاء العام، وأين للسلطان[1] جعل الاستواء بمعنى الغلبة والقهر وهو الاستيلاء؟.

فيشبه ـ والله أعلم ـ أن يكون اجتهاده مختلفاً في هذه المسائل كما اختلف اجتهاد غيره، فأبو المعالي كان يقول بالتأويل، ثم حرمه، وحكى إجماع السلف على تحريمه، وابن عقيل له أقوال مختلفة، وكذلك لأبي حامد، والرازي وغيرهم.

ومما يبيِّن اختلاف كلام ابن فورك أنه في مصنف آخر قال: فإن قال قائل: «أين هو؟» فقيل: ليس بذي كيفية فنخبر عنها إلا أن يقول: «كيف صنعه؟» فمن صنعه أنه يعز من يشاء ويذل من يشاء، وهو الصانع للأشياء كلها.

فهنا أبطل السؤال عن الكيفية، وهناك جوَّزه وقال: الكيفية هي الصفة، وهو ذو الصفات، وكذلك السؤال عن الماهية. قال في ذلك المصنف: وإن سألت الجهمية فقلت «ما هو؟» يقال لهم: «ما» يكون استفهاماً عن جنس أو صفة في ذات المستفهم، فإن أردت بذلك سؤالاً عن صفته فهو العلم، والقدرة، والكلام، والعزة والعظمة.

وقال في الآخر: فإن [قال] قائل: «حدثونا عن الواحد الذي تعبدونه ما هو؟» قيل: إن أردت بقولك «ما هو؟» أي أشيروا إليه حتى أدركه بحواسي، فليس بحاضر

(١) كذا في الأصل، والمعنى واضح، وهو أن ابن فورك فسر الاستواء بالغلبة والقهر عند السلطان الذي ناظر الكرامية عنده، وأثبت أن الله في السماء في كتابه في أصول الدين.

للحواس، وإن أردت بقولك: «ما هو؟» أي دلوني عليه بعجائب صنعته وآثار حكمته، فالدلالة عليه قائمة. وإن أردت بقولك «ما اسمه؟» فنقول: هو الله الرحمن الرحيم، القادر السميع البصير[١].

[وهو][٢] في هذا المصنف أثبت أنه على العرش بخلاف ما كان عليه قبل العرش، فقال: فإن قال: «فحدثونا عنه أين كان قبل أن يخلق؟» قال: «أين» تقتضي مكاناً، والأمكنة مخلوقات، وهو سبحانه لم يزل قبل الخلق والأماكن لا في مكان ولا يجري عليه وقت ولا زمان.

فإن قال: «فعلى ما هو اليوم؟» قيل له: مستو على العرش كما قال سبحانه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه].

وقال: فإن قال قائل: «لم يزل الباري قادراً عالماً حياً سميعاً بصيراً؟» قيل: «نعم» فإن قال: «فلم أنكرتم أن يكون لم يزل خالقاً؟» قيل له: إن أردت بقولك «لم يزل خالقاً» أي لم يزل الخلق معه في قدمه، فهذا خطأ، لأن معنى الخلق أنه لم يكن ثم كان، فكيف يكون ما لم يكن ثم كان لم يزل موجوداً، وإن أردت بقولك أن الخالق لم يزل وكان قادراً على أن يخلق الخلق، فكذلك نقول، لأن الخالق لم يزل والخلق لم يكن ثم كان، وقد كان لم يزل قادراً على أن يخلق الخلق فهذا الجواب.

قال: فإن قيل «إذا قلتم إنه الآن خالق فما أنكرتم أن يكون لم يزل خالقاً؟» قيل له: لا يلزم ذلك. وذلك أنه الآن مستو على عرشه، فلا يجب أن يكون لم يزل مستوياً على عرشه، فكذلك ما قلناه يناسبه.

فإن قيل: «الاستواء منه فعل، ويستحيل أن يكون الفعل لم يزل». فإن قيل: والخلق منه فعل، ويستحيل أن يكون الخلق لم يزل.

فهذا الكلام [ليس][٣] إلا ببيان الذين يقولون: إنه استوى على العرش بعد أن لم يكن، ويقولون بقدم صفة التكوين والخلق، وأنه لم يزل خالقاً فألزمهم: «أنا نقول في الخلق ما نقوله نحن وأنتم في الاستواء». وهذا جواب ضعيف من وجوه:

---

(١) هنا بياض في الأصل قدر سطر وشيء (عبد الصمد).

(٢) ما بين [] من تقدير (عبد الصمد). (٣) ما بين [] تقدير (عبد الصمد).

«**أحدها**»: أنه في الحقيقة ليس عنده أنه استوى بعد أن لم يكن، كما قد بحثه مع السلطان، بل هو الآن كما كان، فلا يصح القياس عليه.

«**الثاني**»: أنه قد سَلَّم أنه لم يزل قادراً على أن يخلق الخلق، وهذا يقتضي إمكان وجود المقدور في الأزل، فإنه إذا كان المقدور ممتنعاً لم تكن هناك قدرة، فكيف يجعله لم يزل قادراً مع امتناع أن يكون المقدور لم يزل ممكناً؟ بل المقدور عنده كان ممتنعاً ثم صار ممكناً بلا سبب حادث اقتضى ذلك.

«**الثالث**»: أن قوله: «لأن معنى الخلق أنه لم يكن ثم كان، فكيف يكون ما لم يكن ثم كان لم يزل موجوداً؟» فيقال: بل كل مخلوق فهو محدث مسبوق بعدم نفسه، وما ثم قديم أزلي إلا الله وحده.

وإذا قيل: «لم يزل خالقاً» فإنما يقتضي قدم نوع الخلق، و«دوام خالقيته» لا يقتضي قدم شيء من المخلوقات، فيجب الفرق بين أعيان المخلوقات الحادثة بعد أن لم تكن، فإن هذه لا يقول عاقل إن منها شيئاً أزلياً، ومن قال بقدم شيء من العالم ـ كالفلك أو مادته ـ فإنه يجعله مخلوقاً بمعنى أنه كان بعد أن لم يكن، ولكن إذ أوجده القديم.

ولكن لم يزل فعالاً خالقاً، [ودوام خالقيته][1] من لوازم وجوده، فهذا ليس قولاً بقدم شيء من المخلوقات، بل هذا متضمن لحدوث كل ما سواه، وهذا مقتضى سؤال السائل له.

«**الوجه الرابع**» أن يقال: العرش حادث كائن بعد أن لم يكن [و][2] لم يزل مستوياً عليه بعد وجوده، وأما الخلق فالكلام في نوعه، ودليله على امتناع حوادث لا أول لها قد عرف ضعفه، والله أعلم.

وكان ابن فورك في مخاطبة السلطان قصد إظهار مخالفة الكرامية، كما قصد بنيسابور القيام على المعتزلة في استتابتهم، وكما كفرهم عند السلطان، ومن لم يعدل في خصومه ومنازعيه ويعذرهم بالخطأ في الاجتهاد، بل ابتدع بدعة وعادى من خالفه فيها أو كفره، فإنما هو ظلم نفسه، وأهل السنة والعلم والإيمان يعلمون الحق ويرحمون الخلق، يتبعون الرسول فلا يبتدعون، ومن اجتهد فأخطأ خطأ يعذره فيه الرسول عذروه.

---

(١) ما بين [] من تقدير (عبد الصمد).
(٢) ما بين [] من تقدير (عبد الصمد).

وأهل البدع ـ مثل الخوارج ـ يبتدعون بدعة ويكفرون من خالفهم ويستحلون دمه، وهؤلاء كل منهم يرد بدعة الآخرين، ولكن هو أيضاً مبتدع، فيرد بدعة ببدعة، وباطلاً بباطل.

وكذلك ما حكاه من مناظراتهم له عند الوزير مجلساً بعد مجلس هو من هذا الباب، فإن المعتزلة والكرامية يقولون حقاً وباطلاً وسنة وبدعة، [كما أنه هـ][1] ـو أيضاً كذلك يقول حقاً وباطلاً [موافقة] لأبي الحسن، وأبو الحسن سلك في مسألة الأسماء، والأحكام، والقدر مسلك الجهم بن صفوان، مسلك المجبرة ومسلك غلاة المرجئة ـ فهؤلاء قدرية مجبرة، والمعتزلة قدرية نافية، فوقع بينهم غاية التضاد في مسائل التعديل والتجويز[2] ونحوها.

والله يحب الكلام بعلم وعدل ويكره الكلام بجهل وظلم، كما قال النبي ﷺ: «القضاة ثلاثة: قاضيان في النار وقاض في الجنة ـ رجل قضى للناس على جهل فهو في النار، ورجل علم الحق وقضى بخلافه فهو في النار، ورجل علم الحق وقضى به فهو في الجنة»[3].

وقد حرم سبحانه الكلام بلا علم مطلقاً، وخص القول عليه بلا علم بالنهي، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء] وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف].

وأمر بالعدل على أعداء المسلمين فقال: ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

فصل

وهو سبحانه وصف نفسه بالعلو، وهو من صفات المدح له بذلك والتعظيم، لأنه من صفات الكمال، كما مدح نفسه بأنه العظيم، والعليم، والقدير، والعزيز، والحليم، ونحو ذلك، وأنه الحي القيوم، ونحو ذلك من معاني أسمائه الحسنى، فلا يجوز أن يتصف بأضداد هذه.

---

(١) ما بين [] من تقدير (عبد الصمد).

(٢) كذا في الأصل، والصواب: «التجوير» بالراء المهملة.

(٣) مرّ تخريجه.

فلا يجوز أن يوصف بضد الحياة والقيومية والعلم والقدرة، مثل الموت والنوم والجهل والعجز واللغوب، ولا بضد العزة وهو الذل، ولا بضد الحكمة وهو السفه.

فكذلك لا يوصف بضد العلو وهو السفول، ولا بضد العظيم وهو الحقير، بل هو سبحانه منزه عن هذه النقائص لصفات الكمال الثابتة له، فثبوت صفات الكمال له ينفي اتصافه بأضدادها وهي النقائص.

وهو سبحانه ليس كمثله شيء فيما يوصف به من صفات الكمال. فهو منزه عن النقص المضاد لكماله. ومنزه عن أن يكون له مثل في شيء من صفاته، ومعاني التنزيه ترجع إلى هذين الأصلين، وقد دل عليهما سورة الإخلاص التي تعدل ثلث القرآن بقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ [الإخلاص] فاسمه (الصمد) يجمع معاني صفات الكمال، كما قد بسط ذلك في تفسير هذه السورة وفي غير موضع، وهو كما في تفسير ابن أبي طلحة عن ابن عباس[1]، أنه المستوجب لصفات السؤدد [والشرف][2]، العليم الذي قد كمل في علمه ـ الحكيم الذي قد كمل في حكمته، إلى غير ذلك مما قد بين.

وقوله: «الأحد» يقتضي أنه لا مثل له ولا نظير، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص]، وقد ذكرنا في غير موضع أن ما وصف الله تعالى به نفسه من الصفات السلبية فلا بد أن يتضمن معنى ثبوتياً، فالكمال هو في الوجود والثبوت، والنفي مقصوده نفي ما يناقض ذلك، فإذا نفي النقيض الذي هو العدم والسلب لزم ثبوت النقيض الآخر الذي هو الوجود والثبوت.

وبينا هذا في آية الكرسي وغيرها مما في القرآن كقوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. فإنه يتضمن كمال الحياة والقيومية، وقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥] يتضمن كمال الملك، وقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾ [البقرة: ٢٥٥] يقتضي اختصاصه بالتعليم دون ما سواه، والوحدانية تقتضي الكمال، والشركة تقتضي النقص، وكذلك قوله: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة: ٢٥٥] ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨] ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ [سبأ: ٣]. وأمثال ذلك مما هو مبسوط في غير هذا الموضع.

---

(١) مرّ تخريجه.

(٢) ما بين [] بياض بالأصل وأكملناه من عبارة تفسير سورة الإخلاص (عبد الصمد).

والمقصود هنا أن علوه من صفات المدح اللازمة له، فلا يجوز اتصافه بضد العلو البتة، ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء. وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء»[(١)]، ولم يقل [«تحتك»][(٢)]. وقد تكلمنا على هذا الحديث في غير هذا الموضع.

وإذا كان كذلك فالمخالفون للكتاب والسنة وما كان عليه السلف لا يجعلونه متصفاً بالعلو دون السفول، بل إما أن يصفوه بالعلو والسفول أو بما يستلزم ذلك، وإما أن ينفوا عنه العلو والسفول، وهم نوعان:

فالجهمية القائلون بأنه بذاته في كل مكان، أو بأنه لا داخل العالم ولا خارجه، لا يصفونه بالعلو دون السفول، فإنه إذا كان في مكان، فالأمكنة منها عال وسافل، فهو في العالي عال، وفي السافل سافل. بل إذا قالوا إنه في كل مكان فجعلوا الأمكنة كلها محال له - ظروفاً وأوعية - جعلوها في الحقيقة أعلى منه، فإن المحل يحوي الحال، والظرف والوعاء يحوي المظروف الذي فيه، والحاوي فوق المحوي.

والسلف والأئمة وسائر علماء السنة إذا قالوا: «إنه فوق العرش، وإنه في السماء فوق كل شيء» لا يقولون إن هناك شيئاً يحويه أو يحصره أو يكون محلاً له أو ظرفاً ووعاء - ﷻ - عن ذلك بل هو فوق كل شيء، وهو مستغن عن كل شيء، وكل شيء مفتقر إليه، وهو عال على كل شيء، وهو الحامل للعرش ولحملة العرش بقوته وقدرته، وكل مخلوق مفتقر إليه، وهو غني عن العرش وعن كل مخلوق.

وما في الكتاب والسنة من قوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦] ونحو ذلك قد يفهم منه بعضهم أن ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ هي نفس المخلوق العالي - العرش فما دونه فيقولون: قوله: ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ بمعنى «على السماء» كما قال: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] أي «على جذوع النخل» وكما قال: ﴿فَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [النحل: ٣٦] أي «على الأرض» ولا حاجة إلى هذا، بل «السماء» اسم جنس للعالي - لا يخص شيئاً، فقوله: ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي «في العلو دون السفل» وهو العلي الأعلى، فله أعلى العلو، وهو ما فوق العرش، وليس هناك غيره - العلي الأعلى ﷻ.

---

(١) مرّ تخريجه.

(٢) بياض في الأصل وما بين [] من تقدير (عبد الصمد).

والقائلون بأنه في كل مكان هو عندهم في المخلوقات السفلية القذرة الخبيثة، كما هو في المخلوقات العالية، وغلاة هؤلاء الاتحادية الذين يقولون «الوجود واحد» كابن عربي الطائي صاحب «فصوص الحكم» و«الفتوحات المكية» يقولون: «الموجود الواجب القديم هو الموجود المحدث الممكن».

ولهذا قال ابن عربي في «فصوص الحكم»: «ومن أسمائه الحسنى «العلي» على من، وما ثم إلا هو؟، وعن ماذا، وما هو إلا هو؟ فعلوه لنفسه، وهو من حيث الوجود عين الموجودات، فالمسمى «محدثات» هي العلية لذاتها وليست إلا هو.

إلى أن قال: «فالعلي لنفسه هو الذي يكون له جميع الأوصاف الوجودية والنسب العدمية، سواء كانت محمودة عرفاً وعقلاً وشرعاً، أو مذمومة عرفاً وعقلاً وشرعاً، وليس ذلك إلا المسمى الله».

فهو عنده الموصوف بكل ذم، كما هو الموصوف بكل مدح.

وهؤلاء يفضلون عليه بعض المخلوقات، فإن من المخلوقات ما يوصف بالعلو دون السفول كالسماوات، وما كان موصوفاً بالعلو دون السفول كان أفضل مما لا يوصف بالعلو، أو يوصف بالعلو والسفول.

وقد قال فرعون: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] قال ابن عربي: «ولما كان فرعون في منصب التحكم والخليفة بالسيف جاز في العرف الناموسي أن قال ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ أي وإن كان أن الكل أرباباً[1] بنسبة مّا فأنا الأعلى منهم بما أعطيته من الحكم فيكم، ولما علمت السحرة صدقه فيما قال لم ينكروه، بل أقروا له بذلك، وقالوا له: ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [طه: ٧٢] فالدولة لك. فصح قول فرعون: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾.

فبهذا وأمثاله يصححون قول فرعون: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ وينكرون أن يكون الله عالياً، فضلاً عن أن يكون هو الأعلى، ويقولون «على من يكون أعلى» أو على ماذا يكون أعلى؟».

وهكذا سائر الجهمية يصفون بالعلو ـ على وجه المدح ـ ما هو عال من المخلوقات، كالسماء، والجنة، والكواكب، ونحو ذلك، ويعلمون أن العالي أفضل من

(١) كذا بالأصل، ولعل «أنّ» زائدة أو محرفة عن «أي».

السافل، وهم لا يصفون ربهم بأنه الأعلى، ولا العلي، بل يجعلونه في السافلات كما هو في العاليات.

والجهمية الذين يقولون «ليس هو داخل العالم ولا خارجه ولا يشار إليه البتة، هم أقرب إلى التعطيل والعدم، كما أن أولئك أقرب إلى الحلول والاتحاد بالمخلوقات، فهؤلاء يثبتون موجوداً لكنه في الحقيقة المخلوق لا الخالق، وأولئك ينفون فلا يثبتون وجوداً البتة، لكنهم يثبتون وجود المخلوقات ويقولون إنهم يثبتون وجود الخالق.

وإذا قالوا: نحن نقول: «هو عال بالقدرة أو بالقدر» قيل: هذا فرع ثبوت ذاته وأنتم لم تثبتوا موجوداً يعرف وجوده فضلاً عن أن يكون قادراً أو عظيم القدر.

وإذا قالوا: كان الله قبل خلق الأمكنة والمخلوقات موجوداً، وهو الآن على ما عليه كان لم يتغير، ولم يكن هناك فوق شيء ولا عالياً على شيء فكذلك هو الآن، قيل: هذا غلط، ويظهر فساده بالمعارضة ثم بالحل وبيان فساده:

أما «الأول» فيلزمهم أن لا يكون الآن عالياً بالقدرة ولا بالقدر كما كان في الأزل، فإنه إذا قدر وجوده وحده فليس هناك موجود يكون قادراً عليه ولا قاهراً له ولا مستولياً عليه، ولا موجوداً يكون هو أعظم قدراً منه.

فإن كان مع موجود المخلوقات لم يتجدد له علو عليها كما زعموا، فيجب أن يكون بعدها ليس قاهراً لشيء ولا مستولياً عليه؛ ولا قاهراً لعباده، ولا قدره أعظم من قدرها، وإذا كانوا يقولون هم وجميع العقلاء إنه مع وجود المخلوق يوصف بأمور إضافية لا يوصف بها إذا قدر موجوداً وحده علم أن التسوية بين الحالين خطأ منهم.

وقد اتفق العقلاء على جواز تجدد النسب والإضافات مثل المعية، وإنما النزاع في تجدد ما يقوم بذاته من الأمور الاختيارية، وقد بين في غير هذا الموضع أن النسب والإضافات مستلزمة لأمور ثبوتية، وأن وجودها بدون الأمور الثبوتية ممتنع.

والإنسان إذا كان جالساً فتحول المتحول عن يمينه بعد أن كان عن شماله قيل «إنه عن شماله» فقد تجدد من هذا فعل به تغيرت النسبة والإضافة، وكذلك من كان تحت السطح فصار فوقه فإن النسبة بالتحتية والفوقية تجدد لما تجدد فعل هذا.

وإذا قيل «نفس السقف لم يتغير» قيل قد يمنع هذا ويقال: ليس حكمه إذا لم يكن فوقه شيء كحكمه إذا كان فوقه شيء، وإذا قيل عن الجالس «إنه لم يتغير». قيل: قد يمنع هذا ويقال: ليس حكمه إذا كان الشخص عن يساره كحكمه إذا كان عن

يمينه، فإنه يحجب هذا الجانب ويوجب من التفات الشخص وغير ذلك ما لم يكن قبل ذلك.

وكذلك من تجدد له أخ أو ابن أخ بإيلاء أبيه أو أخيه قد وجد هنا أمور ثبوتية، وهذا الشخص يصير فيه من العطف والحنو على هذا الولد المتجدد ما لم يكن قبل ذلك، وهي الرحم والقرابة. وبهذا يظهر الجواب الثاني، وهو أن يقال: العلو والسفول ونحو ذلك من الصفات المستلزمة للإضافة، وكذلك الاستواء، والربوبية، والخالقية، ونحو ذلك، فإذا كان غيره موجوداً فإما أن يكون عالياً عليه وإما أن لا يكون، كما يقولون هم: إما أن يكون عالياً عليه بالقهر أو بالقدر أو لا يكون، خلاف ما إذا قدر وحده، فإنهم لا يقولون إنه حينئذ قاهر، [أو قادر،] أو مستول عليه، فلا يقال إنه عال عليه، وإن قالوا: «إنه قادر وقاهر» كان ذلك مشروطاً بالغير، وكذلك علو القدر، قيل: وكذلك علو ذاته ما زال عالياً بذاته لكن ظهور ذلك مشروط بوجود الغير، والإلزامات مفحمة لهم.

وحقيقة قولهم إنه لم يكن قادراً في الأزل ثم صار قادراً، يقولون لم يزل قادراً مع امتناع المقدور، وإنه لم يكن الفعل ممكناً فصار ممكناً فيجمعون بين النقيضين.

فصل

وأما الذين يصفونه بالعلو والسفول فالذين يقولون: هو فوق العرش وهو أيضاً في كل مكان، والذين يقولون: إذا نزل كل ليلة فإنه يخلو منه العرش، أو غيره من المخلوقات أكبر منه، ويقولون: لا يمتنع أن يكون الخالق أصغر من المخلوق، كما يقول شيوخهم: إنه لا يمتنع أن يكون الخالق أسفل من المخلوق، فهؤلاء لا يصفونه بأنه أكبر من كل شيء، بل ولا هو ـ على قولهم ـ الكبير المتعال، ولا هو العلي العظيم.

وقد بسط الرد على هؤلاء في مسألة النزول «لما ذكر قول أئمة السنة مثل حماد بن زيد وإسحاق بن راهويه، وغيرهما: «إنه ينزل ولا يخلو منه العرش» ذكر قول من أنكر ذلك من المتأخرين المنتسبين إلى الحديث والسنة، وبين فساد قولهم شرعاً وعقلاً. وهؤلاء في مقابلة الذين ينفون النزول.

وإذا قيل: حديث النزول ونحوه ظاهر ليس [يحتمل التأويل] فهذا صحيح إذا أريد بالظاهر ما يظهر لهؤلاء ونحوهم [من أنه ينزل إلى أسفل] فيصير تحت العرش كما ينزل

الإنسان من سطح داره إلى أسفل، وعلى قول هؤلاء ولا[1] يبقى حينئذ العلي ولا الأعلى، بل يكون تارة أعلى وتارة أسفل ـ تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

وكذلك ما ورد من نزوله يوم القيامة في ظلل من الغمام، ومن نزوله إلى الأرض لما خلقها، ومن نزوله لتكليم موسى، وغير ذلك، كله من باب واحد، كقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠] وقوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر] وقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

والنفاة المعطلة ينفون المجيء والإتيان بالكلية ويقولون: ما ثم إلا ما يحدث في المخلوقات، والحُلُوليَّةُ يقولون: إنه يأتي ويجيء بحيث يخلو منه مكان ويشغل آخر، فيخلو منه ما فوق العرش ويصير بعض المخلوقات فوقه، فإذا أتى وجاء لم يصر على قولهم العلي الأعلى، ولا كان هو العلي العظيم، لا سيما إذا قالوا: إنه يحويه بعض المخلوقات فتكون أكبر منه ـ ﷻ عما ما يقول هؤلاء وهؤلاء علواً عظيماً.

وكذلك قوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦] إن كان قد قال أحد: إنه في جوف السماء فهو شر قولاً من هؤلاء، ولكن هذا ما علمت به قائلاً معيناً منسوباً إلى عالم حتى أحكيه قولاً.

ومن قال: «إنه في السماء» فمراده أنه في العلو، ليس مراده أنه في جوف الأفلاك، إلا أن [بعض] الجهال يتوهم ذلك، وقد ظن طائفة أن هذا ظاهر اللفظ.

«الظاهر» ولا ريب أنه محمول على خلاف هذا بالاتفاق، لكن هذا هو الذي يظهر لعامة المسلمين الذين يطلقون هذا القول ويسمعونه، أو هو مدلول اللفظ في اللغة، هو مما لا يسلم لهم كما قد يبسط في مواضع.

وقد قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥] فاستثنى نفسه، والعالم ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ولا يجوز أن يقال هذا استثناء منقطع، لأن المستثنى مرفوع، ولو كان منقطعاً لكان منصوباً، والمرفوع على البدل، والعامل فيه هو العامل في المبدل منه، وهو بمنزلة المفرغ، كأنه قال: «لا يعلم الغيب إلا الله» فيلزم أنه داخل في ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

---

(١) كذا بالأصل، ولعل الواو زائدة.

وقد قدمنا أن لفظ «السماء» يتناول كل ما سما، ويدخل فيه السموات والكرسي، والعرش، وما فوق ذلك، لأن هذا في جانب النفي، وهو لم يقل هنا «السموات السبع» بل عم بلفظ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾.

وإذا كان لفظ «السماء» قد يراد به السحاب، ويراد به الفلك، ويراد به ما فوق العالم، ويراد به العلو مطلقاً، فـ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ جمع «سماء» وكل من فيما يسمى «سماء» وكل من فيما يسمى «أرضاً» لا يعلم الغيب إلا الله.

وهو سبحانه قال: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن﴾ [النمل: ٦٥] ولم يقل «ما» فإنه لما اجتمع ما يعقل وما لا يعقل غلب ما يعقل وعبر عنه بـ﴿مَن﴾ لتكون «أبلغ»، فإنهم مع كونهم من أهل العلم والمعرفة لا يعلم أحد منهم الغيب إلا الله.

وهذا هو الغيب المطلق عن [جميع المخلوقين] الذي قال فيه: ﴿فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢٦]. [والغيب المقيد ما علمه] بعض المخلوقات من الملائكة أو الجن أو الإنس وشهدوه، فإنما هو غيب عمن غاب عنه، ليس هو غيباً عمن شهده، والناس كلهم قد يغيب عن هذا ما يشهده هذا، فيكون غيباً مقيداً،أي غيباً عمن غاب عنه من المخلوقين، لا عمن شهده، ليس غيباً مطلقاً غاب عن المخلوقين قاطبة.

وقوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [الأنعام: ٧٣] أي عالم ما غاب عن العباد مطلقاً ومعيناً وما شهدوه، فهو سبحانه يعلم ذلك كله.

والنفاة للعلو ونحوه من الصفات معترفون بأنه ليس مستندهم خبر الأنبياء ـ لا الكتاب، ولا السنة، ولا أقوال السلف ـ ولا مستندهم فطرة العقل وضرورته، ولكن يقولون: معنا النظر العقلي، وأما أهل السنة المثبتون للعلو فيقولون: إن ذلك ثابت بالكتاب والسنة والإجماع، مع فطرة الله التي فطر العباد عليها وضرورة العقل، ومع نظر العقل واستدلاله.

لكن الذين يقولون بأنه ينزل ولا يبقى فوق العرش، وأنه يكون في جوف المخلوقات، ونحو هؤلاء، قد يقولون إن مستندهم في ذلك السمع، وهو ما فهموه من القرآن أو من الأحاديث الصحيحة أو غير الصحيحة، أو من أقوال السلف وهم أخطأوا من حيث نظروا ـ اقتصروا على فهمه من نص واحد، كفهمهم من حديث النزول ـ ولم يتدبروا ما في الكتاب والسنة مما يصفه بالعلو والعظمة ونحو ذلك مما ينافي أن يكون شيء أعلى منه أو أكبر منه.

ويتدبروا أيضاً دلالة النص، مثل نزوله إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر[١] بأن الليل يختلف، فيكون ليل أهل المشرق ونصفه وثلثه الآخر قبل ذلك في المغرب بقريب من يوم، فيلزم على قولهم أنه لا يزال تحت العرش، وهو قد أخبر أنه استوى على العرش بعد خلق السموات والأرض، وما ذكروه ينافي استواءه على العرش، وأنه ليس فوق العرش، كما قد بسط في مواضع.

فصل

«الأعلى» على وزن أفعل التفضيل، مثل الأكرم، والأكبر، والأجمل، ولهذا قال النبي ﷺ لما قال أبو سفيان «اعل هبل، اعل هبل»! فقال النبي ﷺ: «ألا تجيبونه؟» قالوا: وما نقول؟ قال: قولوا: الله أعلى وأجل؟[٢]» وهو مذكور بأداة التعريف «الأعلى» مثل ﴿وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ [العلق:٣] بخلاف ما إذا قيل «الله أكبر» فإنه مُنكَّر.

ولهذا معنى يخصه يتميز به، كما بين العلو والكبرياء، والعظمة، فإن هذه الصفات وإن كانت متقاربة، بل متلازمة، فبينها فروق لطيفة، ولهذا قال النبي ﷺ فيما يروي عن ربه تعالى: «العظمة إزاري والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحداً منهما عذبته»[٣] فجعل الكبرياء بمنزلة الرداء وهو أعلى من الإزار. ولهذا كان شعائر الصلاة، والآذان، والأعياد والأماكن العالية، هو التكبير، وهو أحد الكلمات التي هي أفضل الكلام بعد القرآن، سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، كما ثبت ذلك في الصحيح عن النبي ﷺ.

ولم يجيء في شيء من الأثر بدل قول «الله أكبر» «الله أعظم» ولهذا كان جمهور الفقهاء على أن الصلاة لا تنعقد إلا بلفظ التكبير، فلو قال: «الله أعظم» لم تنعقد به الصلاة لقول النبي ﷺ: «مفتاح الصلاة الطهور، وتحريمها التكبير، وتحليلها التسليم»[٤] وهذا قول مالك، والشافعي، وأحمد، وأبي يوسف، وداود، وغيرهم، ولو أتى بغير ذلك من الأذكار ـ مثل سبحان الله والحمد لله ـ لم تنعقد به الصلاة.

ولأن التكبير مختص بالذكر في حال الارتفاع، كما أن التسبيح مختص بحال الانخفاض، كما في السنن عن جابر بن عبد الله قال: كنا مع رسول الله ﷺ إذا علونا كبرنا، وإذا هبطنا سبحنا، فوضعت الصلاة على ذلك.

---

(١) مرّ تخريجه.
(٢) مرّ تخريجه.
(٣) مرّ تخريجه.
(٤) مرّ تخريجه.

ولما نزل قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [الواقعة] قال: «اجعلوها في ركوعكم» ولما نزل ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ قال: «اجعلوها في سجودكم»[1] وثبت عنه أنه كان يقول في ركوعه «سبحان ربي العظيم» وفي سجوده «سبحان ربي الأعلى» ولم يكن يكبر في الركوع والسجود، لكن قد كان يقرن بالتسبيح التحميد والتهليل، كما ثبت في الصحيحين عن عائشة أنه ﷺ كان يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي» يتأول القرآن - أي يتأول قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾ [النصر] فكان يجمع بين التسبيح والتحميد.

وكذلك قد كان يقرن بالتسبيح في الركوع والسجود التهليل، كما في صحيح مسلم عن عائشة قالت: افتقدت النبي ﷺ ذات ليلة، فظننت أنه ذهب إلى بعض نسائه، فتحسست ثم رجعت، فإذا هو راكع أو ساجد يقول: «سبحانك وبحمدك، لا إله إلا أنت» فقلت: بأبي أنت وأمي! إني لفي شأن وإنك لفي شأن[2]» فعن هذه الأحاديث كلها أنه كان يسبح في الركوع والسجود، لكن قد يقرن بالتسبيح التحميد والتهليل، وقد يقرن به الدعاء، ولم ينقل أنه كبر في الركوع والسجود.

وأما قراءة القرآن فيهما فقد ثبت عنه أنه قال: «إني نهيت أن أقرأ القرآن راكعاً وساجداً»[3] رواه مسلم من حديث علي، ومن حديث ابن عباس. وذلك أن القرآن كلام الله فلا يتلى إلا في حال الارتفاع، والتكبير أيضاً محله حال الارتفاع.

وجمهور العلماء على أنه يشرع التسبيح في الركوع والسجود، وروي عن مالك أنه كره المداومة على ذلك لئلا يظن وجوبه، ثم اختلفوا في وجوبه، فالمشهور عن أحمد، وإسحاق، وداود، وغيرهم وجوبه، وعن أبي حنيفة، والشافعي، استحبابه.

والقائلون بالوجوب، منهم من يقول: يتعين «سبحان ربي العظيم» و«سبحان ربي الأعلى» للأمر بهما، وهو قول كثير من أصحاب أحمد، ومنهم من يقول: بل يذكر بعض الأذكار المأثورة.

والأقوى أنه يتعين التسبيح، إما بلفظ «سبحان» وإما بلفظ «سبحانك» ونحو ذلك،

---

(١) مرّ تخريجه.
(٢) مسلم (٤٨٥).
(٣) مسلم (٤٧٩).

وذلك أن القرآن سماها «تسبيحاً» فدل على وجوب التسبيح فيها، وقد بينت السنة أن محل ذلك الركوع والسجود، كما سماها الله «قرآناً» وقد بينت السنة أن محل ذلك القيام، وسماها «قياماً» و«سجوداً» و«ركوعاً» وبينت السنة علة ذلك ومحله.

وكذلك التسبيح - يسبح في الركوع والسجود، وقد نقل عن النبي ﷺ أنه كان يقول «سبحان ربي العظيم» و«سبحان ربي الأعلى» وأنه كان يقول «سبحانك اللهم وبحمدك، اللهم اغفر لي» و«سبحانك وبحمدك. لا إله إلا أنت» وفي بعض روايات أبي داود «سبحان ربي العظيم وبحمده» وفي استحباب هذه الزيادة عن أحمد روايتان.

وفي صحيح مسلم عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يقول في ركوعه وسجوده «سبوح قدوس، رب الملائكة والروح»[1] وفي السنن أنه كان يقول «سبحان ذي الجبروت، والملكوت، والكبرياء، والعظمة»[2] فهذه كلها تسبيحات.

والمنقول عن مالك أنه [كان يكره المداومة على ذلك. فإن] كان كراهة المداومة على «سبحان ربي الأعلى والعظيم» فله وجه، وإن كان كراهة المداومة على جنس التسبيح فلا وجه له، وأظنه الأول، وكذلك المنقول عنه إنما هو كراهة المداومة على «سبحان ربي العظيم» لئلا يظن أنها فرض، وهذا يقتضي أن مالكاً أنكر أن تكون فرضاً واجباً.

وهذا قوي ظاهر، بخلاف جنس التسبيح، فإن أدلة وجوبه في الكتاب والسنة كثيرة جداً، وقد علم أنه ﷺ كان يداوم على التسبيح بألفاظ متنوعة.

وقوله: «اجعلوها في ركوعكم وفي سجودكم»[3] يقتضي أن هذا محل لامتثال هذا الأمر، لا يقتضي أنه لا يقال إلا هي مع ما قد ثبت أنه كان يقول غيرها.

والجمع بين صيغتي تسبيح بعيد، بخلاف الجمع بين التسبيح، والتحميد، والتهليل والدعاء، فإن هذه أنواع، والتسبيح نوع واحد فلا يجمع فيه بين صيغتين.

وأيضاً قد ثبت في الصحيح أنه قال: «أفضل الكلام بعد القرآن أربع وهن من

---

(١) مسلم (٤٨٧).

(٢) أبو داود (٨٧٣) والنسائي (١٠٤٩) والترمذي في الشمائل (٢٧١) وأحمد(٥/ ٣٨٨، ٣٩٧) وهو صحيح.

(٣) مرّ تخريجه.

القرآن ـ سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله والله أكبر»[١] فهذا يقتضي أن هذه الكلمات أفضل من غيرها، فإن جعل التسبيح نوعاً واحداً فـ«سبحان الله» و«سبحان ربي الأعلى» سواء، وإن جعل متفاضلاً فـ«سبحان الله» أفضل بهذا الحديث.

وأيضاً فقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ و﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤﴾ [الواقعة] أمر بتسبيح ربه، ليس أمراً بصيغة معينة، فإذا قال «سبحان الله وبحمده» «سبحانك اللهم وبحمدك» فقد سبح ربه الأعلى والعظيم، فإن الله هو الأعلى، وهو العظيم، واسمه «الله» يتناول معاني سائر الأسماء بطريق التضمن، وإن كان التصريح بالعلو والعظمة ليس هو فيه، ففي اسمه «الله» التصريح بالإلهية، واسمه «الله» أعظم من اسمه «الرب» وفي صحيح مسلم عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ سئل: «أي الكلام أفضل؟ فقال: ما اصطفى الله لملائكته أو لعباده ـ سبحان الله وبحمده»[٢].

فالقيام فيه التحميد [و] في الاعتدال من الركوع، وفي الركوع والسجود التسبيح، وفي الانتقال التكبير، وفي القعود التشهد وفيه التوحيد، فصارت الأنواع الأربعة في الصلاة.

والفاتحة أيضاً فيها التحميد والتوحيد، فالتحميد والتوحيد ركن يجب في القراءة، والتكبير ركن في الافتتاح، والتشهد الآخر ركن في [القعود كما هو] المشهور عن أحمد، وهو مذهب الشافعي، وفيه التشهد المتضمن للتوحيد.

يبقى التسبيح، وأحمد يوجبه في الركوع والسجود، وروي عنه أنه ركن، وهو قوي لثبوت الأمر به في القرآن والسنة، فكيف يوجب الصلاة على النبي ﷺ ولم يجيء أمر بها في الصلاة خصوصاً ولا يوجب التسبيح مع الأمر به في الصلاة، ومع كون الصلاة تسمى «تسبيحاً» وكل ما سميت به الصلاة من أبعاضها فهو ركن فيها، كما سميت «قياماً» و«ركوعاً» و«سجوداً» و«قراءة» وسميت أيضاً «تسبيحاً» ولم يأت عن النبي ﷺ ما ينفي وجوبه في حال السهو كما ورد في التشهد الأول أنه لما تركه سجد للسهو، لكن قد يقال: لما لم يأمر به المسيء في صلاته دل على أنه واجب ليس بركن، وبسط هذه المسائل له موضع آخر.

---

(١) مرّ تخريجه.

(٢) الترمذي (٣٥٩٣) وأحمد (٤/ ٣٦) وهو صحيح.

والمقصود هنا أن التسبيح قد خص به حال الانخفاض، كما خص حال الارتفاع بالتكبير، فذكر العبد في حال انخفاضه وذله ما يتصف به الرب [مقابل] ذلك، فيقول في السجود «سبحان ربي الأعلى» وفي الركوع «سبحان ربي العظيم».

و«الأعلى» يجمع معاني العلو جميعها، وأنه الأعلى: بجميع معاني العلو، وقد اتفق الناس على أنه علا على كل شيء، بمعنى أنه قاهر له، قادر عليه، متصرف فيه، كما قال: ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١].

وعلى أنه عال عن كل عيب ونقص فهو عال عن ذلك، منزه عنه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾ [الإسراء] فقرن تعاليه عن ذلك بالتسبيح، وقال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [المؤمنون]، وقالت الجن: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾﴾ [الجن].

وفي دعاء الاستفتاح: «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك وتعالى جدك» وفي الصحيحين أنه كان يقول في آخر استفتاحه: «تباركت وتعاليت أستغفرك وأتوب إليك»[1].

فقد بين سبحانه أنه تعالى عما يقول المبطلون وعما يشركون، فهو متعال عن الشركاء والأولاد، كما أنه سبح عن ذلك، وتعاليه سبحانه عن الشريك هو تعاليه عن السَّمِي، والنِّد، والمِثْل فلا يكون شيء مثله.

وقد ذكروا من معاني العلو الفضيلة، كما يقال: الذهب أعلى من الفضة. ونفي المثل عنه يقتضي أنه أعلى من كل شيء فلا شيء مثله، وهو يتضمن أنه أفضل وخير من كل شيء، كما أنه أكبر من كل شيء وفي القرآن: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النمل] ويقول: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا

(١) مسلم، (٧٧١).

تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النحل] ويقول: ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ [يونس: ٣٥] وقالت السحرة: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ٧٣].

وهو سبحانه يبين أن المعبودين دونه ليسوا مثله في مواضع كقوله: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهِدِّىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [يونس].

وقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾ [النحل].

وكذلك قوله في أثناء السورة:

﴿۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [النحل] فهو سبحانه يبين أنه هو المستحق للعبادة دون ما يعبد من دونه وأنه لا مثل له، ويبين ما اختص به من صفات الكمال وانتفائها عما يعبد من دونه، ويبين أنه يتعالى عما يشركون وعما يقولون من إثبات الأولاد والشركاء له.

وقال: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الإسراء] وهم كانوا يقولون إنهم يشفعون لهم، ويتقربون بهم. لكن كان يثبتون الشفاعة بدون إذنه، فيجعلون المخلوق يملك الشفاعة، وهذا نوع من الشرك، فلهذا قال تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ [الزخرف: ٨٦] فالشفاعة لا يملكها أحد غير الله.

كما روى ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: ﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾

[الإسراء: ٤٢]. يقول: لابتغت الحوائج من الله. وعن معمر، عن قتادة «إذاً لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً» لابتغوا التقرب إليه مع أنه ليس كما يقولون. وعن سعيد، عن قتادة: «لو كان معه آلهة كما يقولون» يقول: لو كان معه آلهة إذاً لعرفوا له فضله ومزيته عليهم ولابتغوا إليه ما يقربهم إليه. وروي عن سفيان الثوري: لتعاطوا سلطانه.

وعن أبي بكر الهذلي، عن سعيد بن جبير: سبيلاً إلى أن يزيلوا ملكه، والهذلي ضعيف[1].

فقد تضمن العلو الذي ينعت به نفسه في كتابه أنه متعال عما لا يليق به من الشركاء والأولاد، فليس كمثله شيء، وهذا يقتضي ثبوت صفات الكمال له دون ما سواه.

وأنه لا يماثله غيره في شيء من صفات الكمال، بل هو متعال عن أن يماثله شيء، وتضمن أنه عال على كل ما سواه، قاهر له، قادر عليه، نافذة مشيئته فيه، وأنه عال على الجميع فوق عرشه، فهذه ثلاثة أمور في اسمه «العلي».

وإثبات علوه ـ علوه على ما سواه، وقدرته عليه وقهره ـ يقتضي ربوبيته له، وخلقه له، وذلك يستلزم ثبوت الكمال، وعلوه عن الأمثال يقتضي أنه لا مثل له في صفات الكمال.

وهذا وهذا يقتضي جميع ما يوصف به في الإثبات والنفي، ففي الإثبات يوصف بصفات الكمال، وفي النفي ينزه عن النقص المناقض للكمال، وينزه عن أن يكون له مثل في صفات الكمال، كما قد دلت على هذا سورة الإخلاص ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ [الإخلاص].

وتعاليه عن الشركاء يقتضي اختصاصه بالإلهية، وأنه لا يستحق العبادة إلا هو وحده، كما قال: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ۝٤٢﴾ [الإسراء] أي وإن كانوا ـ كما يقولون ـ يشفعون عنده بغير إذنه ويقربونكم إليه بغير إذنه فهو الرب والإله دونهم، وكانوا يبتغون إليه سبيلاً بالعبادة له والتقرب إليه. هذا أصح القولين، كما قال: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ۝٢٩ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان] وقال: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ۝٥٤ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝٥٥﴾ [المدثر]

(١) كل هذه الآثار مرّ تخريجها.

وقال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء: ٥٧].

ثم قال: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾ [الإسراء] فتعالى عن أن يكون معه إله غيره، أو أحد يشفع عنده إلا بإذنه، أو يتقرب إليه أحد إلا بإذنه، فهذا هو الذي كانوا يقولون.

ولم يكونوا يقولون إن آلهتهم تقدر أن تمانعه أو تغالبه، بل هذا يلزم من فرض إله آخر يخلق كما يخلق، وإن كانوا هم لم يقولوا ذلك، كما قال: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١].

فقد تبين أن اسمه «الأعلى» يتضمن اتصافه بجميع صفات الكمال وتنزيهه عما ينافيها من صفات النقص، وعن أن يكون له مثل، وأنه لا إله إلا هو ولا رب سواه.

فصل

والأمر بتسبيحه يقتضي أيضاً تنزيهه عن كل عيب وسوء، وإثبات صفات الكمال له، فإن [التسبيح] يقتضي التنزيه والتعظيم، والتعظيم يستلزم إثبات المحامد التي يحمد عليها، فيقتضي ذلك تنزيهه، وتحميده، وتكبيره، وتوحيده.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، ثنا ابن نفيل الحراني، ثنا النضر بن عربي قال: سأل رجل ميمون بن مهران عن «سبحان الله» فقال: اسم يعظم الله به ويحاشى به من السوء.

وقال: حدثنا أبو سعيد الأشج، ثنا حفص بن غياث، عن حجاج عن ابن أبي مليكة، عن ابن عباس قال «سبحان» قال: تنزيه الله نفسه من السوء. وعن الضحاك عن ابن عباس في قوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١] قال: عجب. وعن أبي الأشهب، عن الحسن قال: «سبحان» اسم لا يستطيع الناس أن ينتحلوه.

وقد جاء عن غير واحد من السلف مثل قول ابن عباس: «أنه تنزيه نفسه من السوء» وروي في ذلك حديث مرسل، وهو يقتضي تنزيه نفسه من فعل السيئات، كما يقتضي تنزيهه عن الصفات المذمومة. ونفي النقائص يقتضي ثبوت صفات الكمال، وفيها التعظيم كما قال ميمون بن مهران: اسم يعظم الله به ويحاشى به من السوء. وروى عبد بن حميد: حدثنا أبو نعيم، ثنا سفيان، عن عثمان بن عبد الله بن موهب، عن موسى بن طلحة قال: سئل النبي ﷺ عن التسبيح، فقال: «إنزاهه عن السوء». وقال

حدثنا الضحاك بن مخلد، عن شبيب عن عكرمة، عن ابن عباس: «سبحان الله» قال: تنزيهه.

حدثنا كثير بن هشام، ثنا جعفر بن برقان، ثنا يزيد بن الأصم قال: جاء رجل إلى ابن عباس فقال: «[لا إله][1] إلا الله» نعرفها أنه لا إله غيره، و«الحمد لله» نعرفها أن النعم كلها منه وهو المحمود عليها، و«الله أكبر» نعرفها أنه لا شيء أكبر منه، فما «سبحان الله»؟ فقال ابن عباس: وما ينكر منها؟ هي كلمة رضيها الله لنفسه، وأمر بها ملائكته، وفزَّع إليها الأخيار من خلقه[2].

فصل

قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ العطف يقتضي اشتراك المعطوف والمعطوف عليه فيما ذكر وأن بينهما مغايرة إما في الذات وإما في الصفات.

وهو في الذات كثير، كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟﴾ [الحج: ١٧].

وأما في الصفات فمثل هذه الآية، فإن الذي خلق فسوى هو الذي قدر فهدى، لكن هذا الاسم والصفة ليس هو ذاك الاسم والصفة، ومثله قوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣] ومثله قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [البقرة] وقوله: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ [النساء: ١٦٢] وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾ [المؤمنون] وقوله: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ۝٢٣ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤﴾ [المعارج] الآيات، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] الآيات فإنه [من صدق و][3] صبر ولم يسلم ولم يؤمن لم يكن ممن أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً.

وكثيراً ما تأتي الصفات بلا عطف، كقوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ

---

(١) بياض في الأصل وما بين [] من تقدير (عبد الصمد).
(٢) مرَّ تخريج هذه الآثار.
(٣) بياض في الأصل وما بين [] من تقدير (عبد الصمد).

﴿ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ [الحشر: ٢٣] وقوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾ [الناس]. وقد تجيء خبراً بعد خبر، كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ۝١٤ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝١٥ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٦﴾ [البروج] ولو كان ﴿فَعَّالٌ﴾ صفة لكان معرفاً بل هو خبر بعد خبر، وقوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن﴾ [القيامة: ٣] خبر بعد خبر. لكن بالعطف بكل من الصفات.

وأخبار المبتدأ قد تجيء بعطف وبغير عطف، وإذا ذكر بالعطف كان كل اسم مستقلاً بالذكر، وبلا عطف يكون الثاني من تمام الأول بمعنى. ومع العطف لا تكون الصفات إلا للمدح والثناء أو للمدح، وأما بلا عطف فهو في النكرات للتمييز، وفي المعارف قد يكون للتوضيح. و﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤﴾ وصف بكل صفة من هذه الصفات، ومدح بها، وأثنى عليه بها، وكانت كل صفة من هذه الصفات مستوجبة لذلك.

فصل

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢﴾ فأطلق الخلق والتسوية ولم يخص بذلك الإنسان، كما أطلق قوله بعد ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ لم يقيده، فكان هذا المطلق لا يمنع شموله لشيء من المخلوقات، وقد بين موسى عليه السلام شموله في قوله: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه]، وقد ذكر المقيد بالإنسان في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧﴾ [الإنفطار].

وقد ذكر المطلق والمقيد في أول ما نزل من القرآن، وهو قوله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق] وفي جميع هذه الآيات ـ مطلقها ومقيدها والجامع بين المطلق والمقيد ـ قد ذكر خلقه، وذكر هدايته وتعليمه بعد الخلق، كما قال في هذه السورة: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾.

لأن جميع المخلوقات خلقت لغاية مقصودة بها، فلا بد أن تهدي إلى تلك الغاية التي خلقت لها، فلا تتم مصلحتها وما أريدت له إلا بهدايتها لغاياتها.

وهذا مما يبين أن الله خلق الأشياء لحكمة وغاية تصل إليها، كما قال ذلك السلف وجمهور المسلمين وجمهور العقلاء.

وقالت طائفة ـ كجهم وأتباعه ـ إنه لم يخلق شيئاً لشيء، ووافقه أبو الحسن

الأشعري ومن اتبعه من الفقهاء ـ أتباع الأئمة وهم يثبتون أنه مريد، وينكرون أن تكون له حكمة يريدها.

وطائفة من المتفلسفة يثبتون عنايته وحكمته، وينكرون إرادته، وكلاهما تناقض، وقد بسط الكلام على فساد قول هؤلاء في غير هذا الموضع وأن منتهاهم جحد الحقائق.

فإن هذا يقول: لو كان له حكمة يفعل لأجلها لكان يجب [أن يريد][1] الحكمة وينتفع بها، وهو منزه عن ذلك وذاك يقول: لو كان له إرادة لكان يفعل لجر منفعة، فإن الإرادة لا تعقل إلا كذلك، وأرسطو وأتباعه يقولون: لو فعل شيئاً لكان الفعل لفرض، وهو منزه عن ذلك.

فيقال لهؤلاء: هذه الحوادث المشهودة ألها محدث أم لا؟ فإن قالوا: «لا» فهو غاية المكابرة، وإذا جوزوا حدوث الحوادث بلا محدث فتجويزها بمحدث لا إرادة له أولى.

وإن قالوا «لها محدث» ثبت الفاعل، وإذا ثبت الخالق المحدث فإما أن يفعل بإرادة أو بغير إرادة. فإن قالوا «يفعل بغير إرادة» كان ذلك أيضاً مكابرة فإن كل حركة في العالم إنما صدرت عن إرادة.

فإن الحركات إما طبعية، وإما قسرية، وإما إرادية، لأن مبدأ الحركة إما أن يكون من المتحرك، أو من سبب خارج، وما كان منها[2] فإما أن يكون مع الشعور، أو بدون الشعور، فَما كان سببه من خارج فهو القسري، وما كان سببه منها بلا شعور فهو الطبعي، وما كان من الشعور فهو الإرادي، فالقسري تابع للقاسر، والذي يتحرك بطبعه، كالماء والهواء والأرض، هو ساكن في مركزه، لكن إذا خرج عن مركزه قسراً طلب العود إلى مركزه، فأصل حركته القسر، ولم تبق حركة أصلية إلا الإرادية، فكل حركة في العالم فهي عن إرادة.

فكيف تكون جميع الحوادث والحركات بلا إرادة؟

وأيضاً، فإذا جوزوا أن تحدث الحوادث العظيمة عن فاعل غير مريد فجواز ذلك عن فاعل مريد أولى.

---

(١) بياض في الأصل وما بين [] من تقدير (عبد الصمد).

(٢) كذا في الأصل، ولعل «من المتحرك» سقطت.

وإذا ثبت أنه مريد قيل: إما أن يكون أرادها لحكمة، وإما أن يكون أرادها لغير حكمة. [فإن قالوا «لغير حكمة» كان] مكابرة. فإن الإرادة لا تعقل إلا إذا كان المريد قد فعل لحكمة يقصدها بالفعل.

وأيضاً، فإذا جوزوا أن يكون فاعلاً مريداً بلا حكمة فكونه فاعلاً مريداً لحكمة أولى بالجواز.

وأما قولهم: «هذا لا يعقل إلا في حق من ينتفع، وذلك يوجب الحاجة، والله منزه عن ذلك».

فإن أرادوا أنه يوجب احتياجه إلى غيره أو شيء من مخلوقاته، فهو ممنوع وباطل، فإن كل ما سواه محتاج إليه من كل وجه، وهو الصمد الغني عن كل ما سواه، وكل ما سواه محتاج إليه، وهو القيوم القائم بنفسه المقيم لكل ما سواه، فكيف يكون محتاجاً إلى غيره؟.

وإن أرادوا أنه تحصل له بالخلق حكمة هي أيضاً حاصلة بمشيئته فهذا لا محذور فيه، بل هو الحق.

وإذا قالوا «الحكمة هي اللذة» قيل: لفظ «اللذة» لم يرد به الشرع، وهم موهم ومجمل، لكن جاء الشرع بأنه «يحب» و«يرضى» و«يفرح بتوبة التائبين» ونحو ذلك، فإذا أريد ما دل عليه الشرع والعقل فهو حق.

وإن قالوا: الحكمة إما أن تراد لنفسها أو لحكمة. قيل: المرادات نوعان ـ ما يراد لنفسه، وما يراد لغيره، وقد يكون الشيء غاية وحكمة بالنسبة إلى مخلوق وهو مخلوق لحكمة أخرى فلا بد أن ينتهي الأمر إلى حكمة يريدها الفاعل لذاتها.

والمعتزلة ومن وافقهم، كابن عقيل وغيره، تثبت حكمة لا تعود إلى ذاته، وأما السلف فإنهم يثبتون حكمة تعود إليه، كما قد بين في غير هذا الموضع.

والمقصود هنا ذكر قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ والتسوية: جعل الشيء سواء كما قال: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝١٩﴾ [فاطر] وقوله تعالى: ﴿تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٤] و﴿سَوَآءٍ﴾ وسط، لأنه معتدل بين الجوانب.

وذلك أنه لا بد في الخلق والأمر من العدل، فلا بد من التسوية بين المتماثلين، فإذا فضل أحدهما فسد المصنوع، كما في مصنوعات العباد إذا بنوا بنياناً فلا بد من

التسوية بين الحيطان، إذ لو رفع حائط على حائط رفعا كثيراً فسد. ولا بد من التسوية بين جذوع السقف، فلو كان بعض الجذوع قصيراً عن الغاية وبعضها فوق الغاية فسد. وكذلك إذا بني صف فوق صف لا بد من التسوية بين الصفوف، وكذلك الدرج المبنية، وكذلك إذا صنع لسقي الماء جداول ومساكب فلا بد من العدل والتسوية فيها، وكذلك إذا صنعت ملابس للآدميين فلا بد من أن تكون مقدرة على أبدانهم لا تزيد ولا تنقص، وكذلك ما يصنع من الطعام لا بد أن تكون أخلاطه على وجه الاعتدال، والنار التي تطبخه كذلك، وكذلك السفن المصنوعة.

ولهذا قال الله لداود: ﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾ [سبأ: ١١] أي لا تدق المسمار فَيَفْلَقَ، ولا تغلظه فيقصم، واجعله بقدر.

فإذا كان هذا في مصنوعات العباد ـ وهي جزء من مصنوعات الرب ـ فكيف بمخلوقاته العظيمة التي لا صنع فيها للعباد، كخلق الإنسان وسائر البهائم، وخلق النبات، وخلق السموات والأرض والملائكة.

فالفلك الذي خلقه وجعله مستديراً ما له من فروج، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾ [الملك]، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝٧﴾ [الذاريات] وقال: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾ [ق].

فهو سبحانه سوَّاها كما سوى الشمس والقمر وغير ذلك من المخلوقات، فعدل بين أجزائها، ولو كان أحد جانبي السماء داخلاً أو خارجاً لكان فيها فروج، وهي الفتوق والشقوق، ولم يكن سواها، كمن بنى قبة ولم يسوها، وكذلك لو جعل أحد جانبيها أطول أو أنقص، ونحو ذلك.

فالعدل والتسوية لازم لجميع المخلوقات والمصنوعات، فمتى لم تصنع بالعدل والتسوية بين المتماثلين وقع فيها الفساد.

وهو سبحانه ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢﴾ قال أبو العالية في قوله: ﴿خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ قال: سَوَّى خلقهن[1]، وهذا كما قال تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١٢].

---

(١) لم أجده ولعله عند ابن أبي حاتم ولم يذكره لا ابن كثير ولا صاحب الدر.

فصل

ثم إذا خلق المخلوق فسوى، فإن لم يهده إلى تمام الحكمة التي خلق لها فسد، فلا بد أن يهدي بعد ذلك إلى ما خلق له.

وتلك الغاية لا بد أنها معلومة للخالق، فإن العلة الغائية هي أول في العلم والإرادة، وهي آخر في الوجود والحصول.

ولهذا كان الخالق لا بد أن يعلم ما خلق، فإنه قد أراده، وأراد الغاية التي خلقه لها، والإرادة مستلزمة للعلم، فيمتنع أن يريد الحي ما لا شعور له به.

والصانع إذا أراد أن يصنع شيئاً فقد علمه وأراده، وقدر في نفسه ما يصنعه، والغاية التي ينتهي إليها، وما الذي يوصله إلى تلك الغاية، والله سبحانه قدر وكتب مقادير الخلائق قبل أن يخلقهم، كما ثبت في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ أنه قال: «قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء»[(١)].

وفي البخاري عن عمران بن حصين، عن النبي ﷺ قال: «كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السموات والأرض» وفي رواية «ثم خلق السموات والأرض»[(٢)].

فقد قدر سبحانه ما يريد أن يخلقه من هذا العالم حين كان عرشه على الماء إلى يوم القيامة، كما في السنن عن النبي ﷺ أنه قال: «أول ما خلق الله القلم، فقال: اكتب. فقال ما اكتب؟ فقال: اكتب ما يكون إلى يوم القيامة»[(٣)].

وأحاديث تقديره سبحانه وكتابته لما يريد أن يخلقه كثيرة جداً.

روى ابن [أبي] حاتم عن الضحاك أنه سئل عن قوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر] فقال: قال ابن عباس: إن الله قدر المقادير بقدرته ودبر الأمور بحكمته، وعلم ما العباد صائرون إليه، وما هو خالق وكائن من خلقه، فخلق الله لذلك جنة وناراً، فجعل الجنة لأوليائه وعرفهم وأحبهم وتولاهم ووفقهم وعصمهم، وترك أهل النار استحوذ عليهم إبليس وأضلهم وأزلهم.

فخلق لكل شيء ما يشاكله في خلقه ـ ما يصلحه من رزقه في بر أو في بحر،

---

(١) مرّ تخريجه.
(٢) مرّ تخريجه.
(٣) أبو داود (٢٧٠٠)، الترمذي (٢١٥٥) والحديث صحيح.

فجعل للبعير خلقاً لا يصلح شيء من خلقه على غيره من الدواب، وكذلك كل دابة خلق الله له منها ما يشاكلها في خلقها، فخلقه مؤتلف لما خلقه له غير مختلف.

قال ابن أبي حاتم: ثنا أبي، ثنا يحيى بن زكريا بن مهران القزاز، ثنا حبان بن عبيد قال: سألت الضحاك عن هذه الآية: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر]. قال الضحاك، قال ابن عباس، فذكره.

وقال: حدثنا أبو سعيد الأشج، ثنا طلحة بن سنان، عن عاصم، عن الحسن قال: من كذب بالقدر كذب بالحق، خلق الله خلقاً، وأَجَّل أجلاً، وقدَّر رزقاً، وقدَّر معصية، وقدَّر بلاء، وقدَّر عافية، فمن كفر بالقدر فقد كفر بالقرآن.

وقال: حدثنا الحسن بن عرفة، ثنا مروان بن شجاع الجزري، عن عبد الملك بن جريج، عن عطاء بن أبي رباح قال أتيت ابن عباس وهو ينزع من زمزم وقد ابتلت أسافل ثيابه. فقلت له: قد تكلم في القدر. فقال: أو [قد] فعلوها؟ قلت: نعم. قال: والله ما نزلت هذه الآية إلا فيهم: ﴿ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر] أولئك شرار هذه الأمة، فلا تعودوا مرضاهم، ولا تصلوا على موتاهم، إن رأيت أحداً فقأت عينيه بأصبعي هاتين.

وقال أيضاً: حدثنا علي بن الحسين بن الجنيد، حدثنا سهل الخياط، ثنا أبو صالح الحداني، ثنا حبان بن عبيد الله قال: سألت الضحاك عن قوله: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [الحديد: ٢٢] قال: قال ابن عباس: إن الله خلق العرش فاستوى عليه، ثم خلق القلم فأمره ليجري بإذنه - وعظم القلم كقدر ما بين السماء والأرض - فقال القلم: بما يا رب أجري؟ فقال: «بما أنا خالق وكائن في خلقي من قطر أو نبات أو نفس أو أثر - يعني به العمل - أو رزق أو أجل» فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة، فأثبته الله في الكتاب المكنون عنده تحت العرش[1].

فصل

فقوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ يتضمن أنه قدر ما سيكون للمخلوقات، وهداها إليه، علم ما يحتاج إليه الناس والدواب من الرزق فخلق ذلك الرزق وسواه،

(١) كل هذه الآثار والأقوال مرّ تخريجها.

وخلق الحيوان وسواه وهداه إلى ذلك الرزق، وهدى غيره من الأحياء أن يسوق إليه ذلك الرزق.

وخلق الأرض، وقدر حاجتها إلى المطر، وقدر السحاب وما يحمله من المطر، وخلق ملائكة هداهم ليسوقوا ذلك السحاب إلى تلك الأرض فيمطر المطر الذي قدره، وقدر ما نبت بها من الرزق، وقدر حاجة العباد إلى ذلك الرزق، وهداهم إلى ذلك الرزق، وهدى من يسوق ذلك الرزق إليهم.

وقد ذكر المفسرون أنواعاً من تقديره وهدايته، فروى ابن جرير، وابن أبي حاتم، وغيرهما، بالإسناد الثابت عن مجاهد في قوله: ﴿قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ قال: الإنسان للشقاوة والسعادة، وهدى الأنعام لمراتعها[1]، وكذلك رواه عبد بن حميد في تفسيره، قال: هدى الإنسان للسعادة والشقاوة، وهدى الأنعام لمراتعها.

وقال: حدثنا يونس، عن شيبان عن قتادة[2]: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ قال: «لا والله. ما أكره الله عبداً على معصية قط ولا على ضلالة، ولا رضيها له ولا أمره، ولكن رضي لكم الطاعة فأمركم بها، ونهاكم عن معصيته».

«قلت»: قتادة ذكر هذا عند هذه الآية ليبين أن الله قدر ما قدره من السعادة والشقاوة، كما قال الحسن وقتادة، وغيرهما من أئمة المسلمين، فإنهم لم يكونوا متنازعين، فما[3] سبق من سبق تقدير الله، وإنما كان نزاع بعضهم في الإرادة وخلق الأفعال.

وإنما نازع في التقدير السابق والكتاب أولئك الذين تبرأ منهم الصحابة كابن عمر وابن عباس وغيرهما.

وذكر قتادة أن الله لم يكره أحداً على معصيته وهذا صحيح، فإن أهل السنة المثبتين للقدر متفقون على أن الله لا يكره أحداً على معصيته كما يكره الوالي والقاضي وغيرهما للمخلوق على خلاف مراده. يكرهونه بالعقوبة والوعيد، بل هو سبحانه يخلق إرادة العبد للعمل وقدرته وعمله وهو خالق كل شيء.

وهذا الذي قاله قتادة قد يظن فيه أنه من قول القدرية، وأنه لسبب مثل هذا

---

(١) قال صاحب الدر (٦/ ٣٣٩) أخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) لم أجده.

(٣) كذا في الأصل، ولعل الصواب «فيما».

اتهم قتادة بالقدر، حتى قيل: إن مالكاً كره لمعمر أن يروي عنه التفسير لكونه اتهم بالقدر.

وهذا القول حق، ولم يعرف أحد من السلف قال إن الله أكره أحداً على معصيته.

بل أبلغ من ذلك أن لفظ «الجبر» منعوا من إطلاقه، كالأوزاعي والثوري، والزبيدي، وعبد الرحمن بن مهدي، وأحمد بن حنبل وغيرهم. نهوا عن أن يقال: إن الله جبر العباد، وقالوا: إن هذا بدعة في الشرع، وهو مفهم للمعنى الفاسد.

قال الأوزاعي وغيره: إن السنة جاءت بـ«جبل» ولم تأت بـ«جبر» فإن النبي ﷺ قال لأشج [عبد] القيس «إن فيك لخلقين يحبهما الله ـ الحلم والأناة»[1] فقال: أخلقين [تخلقت] بهما أم خلقين جبلت عليهما؟ فقال: «بل خلقين جبلت عليهما» [قال]: الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله.

وقال الزبيدي وغيره: إنما يجبر العاجز ـ يعني الجبر الذي هو بمعنى الإكراه ـ كما تجبر المرأة على النكاح! والله أجل وأعظم من أن يجبر أحداً ـ يعني أنه يخلق إرادة العبد فلا يحتاج إلى إجباره.

فالزبيدي وطائفة نفوا «الجبر» وكان مفهومه عندهم هذا.

وأما الأوزاعي، وأحمد بن حنبل، وغيرهما فكرهوا أن يقال «جبر» وأن يقال: لم يجبر، لأن «الجبر» قد يراد به الإكراه والله لا يكره أحداً. وقد يراد به أنه خالق الإرادة، كما قال محمّد بن كعب، الجبار هو الذي جبر العباد على ما أراد، و«الجبر» بهذا المعنى صحيح.

وقول مجاهد في قوله: ﴿قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾: «الإنسان للسعادة والشقاوة، يبين أن هذا عنده مما دخل في قوله: ﴿قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ أي هدى السعداء إلى السعادة التي قدرها، وهدى الأشقياء إلى الشقاء الذي قدره.

وهكذا قال مجاهد في قوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الإنسان: ٣] قال: السعادة والشقاوة. وقال عكرمة: سبيل الهدى، رواهما عبد بن حميد.

وكذلك روى ابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البلد] قال: الشقاوة والسعادة.

---

(١) مسلم (١٧).

وقد قال هو وجماهير السلف: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد]: أي الخير والشر. رواه ابن أبي حاتم عن ابن مسعود ثم قال: وروي عن علي بن أبي طالب، وابن عباس في إحدى، [رواياته][(١)]، وشقيق بن سلمة، وأبي صالح، ومجاهد، والحسن، ومحمد بن كعب، وعكرمة، وشرحبيل بن سعد، وابن سنان الرازي، والضحاك، وعطاء الخراساني، وعمرو بن قيس الملائي، نحو ذلك.

وروي عن محمّد بن كعب القرظي قال: الحق والباطل.

وهذا كلام مجمل فيه ما هو متفق عليه، وهو أنه يبين للناس ما أرسله من الرسل، ونصبه من الدلائل والآيات، وأعطاهم من العقول ـ طريق الخير والشر ـ كما في قوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ [فصلت: ١٧].

وأما [إدخال][(٢)] الهدى الذي هو الإلهام في ذلك، بمعنى أنه هدى المؤمن إلى أن يؤمن ويعمل صالحاً إلى أن يسعد بذلك، وهدى الكافر إلى ما يعلمه إلى أن يشقى بذلك، فهذا منهم من يدخله في الآية، كمجاهد وغيره ويدخله في قوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الإنسان: ٣] وعكرمة وغيره يخرجون ذلك عن معنى هذه الآية وإن كانوا مُقِرّين بالقدر.

ومن قال: ﴿هدى﴾ بمعنى بيّن فقط، فقد هدى كل عبد إلى نجد الخير والشر جميعاً، أي بين له طريق الخير والشر.

ومن أدخل في ذلك السعادة والشقاوة يقول: في هذا تقسيم، أي هذه الهداية عامة مشتركة، وخص المؤمن بهداية إلى نجد الخير، وخص الكافر بهداية إلى نجد الشر.

ومن لم يدخل ذلك في الآية قد يحتجون بحديث من مراسيل الحسن قال: ذكر لنا [أن][(٣)] رسول الله ﷺ كان يقول: «يا أيها الناس: إنما هما النجدان ـ نجد الخير، ونجد الشر، فما يجعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير؟»[(٤)].

ويحتجون بأن إلهام الفاجر طريق الفجور لم يسمه هدى، بل سماه ضلالاً، والله امتن بأنه هدى.

---

(١) ما بين [] من إضافات (عبد الصمد) وهو بياض بالأصل.

(٢) في الأصل (إرسال) وهو تصحيف (عبد الصمد).

(٣) أضفناه من تفسير ابن كثير (عبد الصمد).

(٤) ذكره الهيثمي في المجمع (١٠/٢٥٩) وقال: رواه الطبراني من حديث فضالة عن أبي أمامة، وفضالة هذا ضعيف.

وقد يجيب الآخر بأن يقول: هو لا يدخل في الهدى المطلق، لكن يدخل في الهدى المقيد، كقوله: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٣] وكما في لفظ البشارة، قال: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١] ولفظ الإيمان فقال: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٥١].

وهذان القولان في قوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ [الشمس] قيل: هو البيان العام، وقيل: بل ألهم الفاجر الفجور والتقي التقوى.

وهذا في تلك الآية أظهر، لأن الإلهام استعماله مشهور في إلهام القلوب، لا في التبيين الظاهر الذي تقوم به الحجة

وقد علم النبي ﷺ حصيناً الخزاعي لما أسلم أن يقول «اللهم! ألهمني رشدي وقني شر نفسي» ولو كان الإلهام بمعنى البيان الظاهر لكان هذا حاصلاً للمسلم والكافر.

قال ابن عطية: و﴿سوّى﴾ معناه عدل وأتقن حتى صارت الأمور مستوية، دالة على قدرته ووحدانيته.

وقرأ جمهور القراء ﴿فَقَدَّرَ﴾ بتشديد الدال، فيحتمل أن يكون من القدر والقضاء، ويحتمل أن يكون من التقدير والموازنة بين الأشياء.

قلت: هما متلازمان، لأن التقدير الأول يسمى تقديراً، لأن ما يجري بعد ذلك يجري على قدره، فهو موازن له ومعادل له.

قال: وقرأ الكسائي وحده بتخفيف الدال، فيحتمل أن يكون بمعنى القدرة[1]، ويحتمل أن يكون من التقدير والموازنة.

قلت: وهذا قول الأكثرين أنهما بمعنى واحد.

قال ابن عطية: وقوله ﴿فَهَدَىٰ﴾ عام لوجوه الهدايات في الإنسان والحيوان، وقد خصص بعض المفسرين أشياء من الهدايات، فقال الفراء: معناه هدى وأضل، واكتفى بالواحد لدلالتها على الأخرى، قال: وقال مقاتل والكلبي: هدى إلى وطء الذكور للإناث. وقيل: هدى المولود عند وضعه إلى مص الثدي. وقال مجاهد: هدى الناس للخير والشر، والبهائم للمراتع.

---

(١) كذا بالأصل ولعل الصواب (القدر). (عبد الصمد).

قال ابن عطية: وهذه الأقوال مثالات، والعموم في الآية أصوب في كل تقدير وفي كل هداية.

وقد ذكر أبو الفرج ابن الجوزي هذه الأقوال وغيرها، فذكر سبعة أقوال: قدر السعادة والشقاوة، وهدى للرشد والضلالة، قاله مجاهد. وقيل: جعل لكل دابة ما يصلحها وهداها إليه، قاله عطاء. وقيل: قدر مدة الجنين في الرحم ثم هداه للخروج، قاله السدي. وقيل: قدرهم ذكراناً وإناثاً وهدى الذكور لإتيان الإناث، قاله مقاتل. وقيل: قدر فهدى وأضل، فحذف «وأضل» لأن في الكلام ما يدل عليه، حكاه الزجاج. وقيل: قدر الأرزاق وهدى إلى طلبها. وقيل: قدر الذنوب فهدى إلى التوبة، حكاهما الثعلبي.

قلت: القول الذي حكاه الزجاج هو قول الفراء، وهو من جنس قوله: إن نفعت وإن لم تنفع، ومن جنس قوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ﴾ [النحل: ٨١] وقد تقدم ضعف مثل هذا، ولهذا لم يقله أحد من المفسرين.

والأقوال الصحيحة هي من باب المثالات، كما قال ابن عطية.

وهكذا كثير من تفسير السلف ـ يذكرون من النوع مثالاً لينبهوا به على غيره، أو لحاجة المستمع إلى معرفته، أو لكونه هو الذي يعرفه، كما يذكرون مثل ذلك في مواضع كثيرة، كقوله: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [الفتح: ١٦] وقوله: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٣] وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤] وقوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [فاطر: ٣٢]، وكذلك تفسير: ﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣﴾ [الفجر] ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣﴾ [البروج] وغير ذلك، وقوله: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١﴾ [الذاريات] وأمثال ذلك كثير من تفسيرهم هو من باب المثال.

ومن ذلك قولهم: «إن هذه الآية نزلت في فلان وفلان» فبهذا يمثل بمن نزلت فيه ـ نزلت فيه أولاً وكان سبب نزولها ـ لا يريدون به أنها[1] آية مختصة به، كآية اللعان، وآية القذف، وآية المحاربة، ونحو ذلك. لا يقول مسلم إنها مختصة بمن كان نزولها بسببه.

---

(١) في الأصل ما صورته (إلا أنه مختصة به) ولعل الصواب كما أثبتنا كما جاء في الجملة التي بعدها (عبد الصمد).

واللفظ العام وإن قال طائفة إنه يقصر على سببه فمرادهم على النوع الذي هو سببه ـ لم يريدوا بذلك أنه يقتصر على شخص واحد من ذلك النوع.

فلا يقول مسلم إن آية الظهار لم يدخل فيها إلا أوس بن الصامت، وآية اللعان لم يدخل فيها إلا عاصم بن عدي، أو هلال بن أمية. وأن ذم الكفار لم يدخل فيه إلا كفار قريش، ونحو ذلك مما لا يقوله مسلم ولا عاقل.

فإن محمداً ﷺ قد عرف بالاضطرار من دينه أنه مبعوث إلى جميع الإنس والجن، والله تعالى خاطب بالقرآن جميع الثقلين، كما قال: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ [الأنعام: ١٩] فكل من بلغه القرآن من إنسي وجني أنذره الرسول به، والإنذار هو الإعلام بالمخوف، والمخوف ـ هو العذاب ـ ينزل بمن عصى أمره ونهيه.

فقد أعلم كل من وصل إليه القرآن أنه إن لم يطعه وإلا عذبه الله تعالى، وأنه إن أطاعه أكرمه الله تعالى.

وهو قد مات، فإنما طاعته باتباع ما في القرآن مما أوجبه الله وحرمه، وكذلك ما أوجبه الرسول وحرمه بسنته، فإن القرآن قد بين وجوب طاعته، وبين أن الله أنزل عليه الكتاب والحكمة، وقال لأزواج نبيه: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ﴾ [الأحزاب: ٣٤].

فصل

ثم قال: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ۝٥﴾ هو سبحانه لما ذكر قوله: ﴿قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ دخل في ذلك ما قدره من أرزاق العباد [والبهائم][1] وهداهم إليها، فهدى من يأتي بها إليهم، وذلك من تمام إنعامه على عباده، كما جاء في الأثر: إن الله يقول: «إني والجن والإنس لفي نبأ عظيم ـ أخلق ويعبدون غيري، وأرزق ويشكرون سواي»[2].

وهذا المعنى قد روي في قوله: ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ۝٨٢﴾ [الواقعة] أي تجعلون شكركم وشكر ربكم التكذيب بإنعام الله، وإضافة الرزق إلى غيره كالأنواء، كما

---

(١) بياض في الأصل وما بين [] من تقدير (عبد الصمد).

(٢) الطبراني في مسند الشاميين (٩٧٤، ٩٧٥)، البيهقي في الشعب (٤٥٦٣)، ومسند الفردوس (٤٤٣٩)، وعزاه صاحب الدر إضافة لما ذكرنا إلى الحاكم في التاريخ، الدر (١٢٨/٦).

ثبت في الصحيح عن ابن عباس قال: مطر الناس على عهد النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «أصبح من الناس شاكر، ومنهم كافر ـ قالوا: هذه رحمة الله، وقال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا»[١] قال: فنزلت هذه الآية: ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الواقعة].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «ما أنزل الله من السماء من بركة إلا أصبح فريق من الناس بها كافرين ـ ينزل الله الغيث فيقولون: الكوكب كذا وكذا ـ وفي رواية «بكوكب كذا وكذا»[٢].

وروى ابن المنذر في تفسيره: ثنا محمّد بن علي ـ يعني الصائغ، ثنا سعيد هو ابن منصور، ثنا هشيم، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس أنه كان يقرأ ﴿وَتَجعلون﴾[٣] شكركم ﴿أنكم تكذبون﴾ يعني الأنواء، وما مطر قوم إلا أصبح بعضهم كافراً وكانوا يقولون مطرنا بنوء كذا وكذا. فأنزل الله ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

وروى ابن أبي حاتم، عن عطاء الخراساني، عن عكرمة، في قول الله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ قال: تجعلون رزقكم من عند غير الله تكذيباً، وشكراً [لغيره][٤].

لكن قوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾﴾ خص به إخراج المرعى، وهو ما ترعاه الدواب، وذكر أنه جعله غثاء أحوى، وهذا فيه ذكر أقوات البهائم، لكن أقوات الآدميين أجل من ذلك، وقد دخلت هي وأقوات البهائم، في قوله: ﴿قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾.

وأيضاً، فالذي يصير غثاء أحوى لم تقتت به البهائم، وإنما تقتات به قبل ذلك.

فهو ـ والله أعلم ـ خص هذا بالذكر لأنه مثل الحياة الدنيا.

إذ كانت هذه السورة تضمنت أصول الإيمان ـ الإيمان بالله واليوم الآخر،

(١) مرّ تخريجه. (٢) كل الآثار مرّ تخريجها.
(٣) زيادة من تفسير ابن جرير (عبد الصمد).
(٤) بياض في الأصل وما بين [] من تقدير (عبد الصمد).

والإيمان بالرسل والكتب التي جاؤوا بها، وذلك يتضمن الإيمان بالملائكة، وفيها العمل الصالح الذي ينفع في الآخرة والفاسد الذي يضر فيها.

فذكر سبحانه المرعى عقب ما ذكره من الخلق والهدى ليبين مآل بعض المخلوقات، وأن الدنيا هذا مثلها.

وقد ذكر الله ذلك في الكهف، ويونس، والحديد، قال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الكهف]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [يونس]، وقال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد].

وقد جعل إهلاك المهلكين حصاداً لهم، فقال: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾﴾ [هود]، وقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾ [التين]، فقوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾﴾ هو مثل للحياة الدنيا، وعاقبة الكفار، ومن اغتر بالدنيا، فإنهم يكونون في نعيم وزينة وسعادة، ثم يصيرون إلى شقاء في الدنيا والآخرة، كالمرعى الذي جعله غثاء أحوى.

فصل

قوله: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾﴾، قوله: ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ كقوله: ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥] وقوله: ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ و﴿إِن﴾ هي للشرطية.

وحكى الماوردي أنها بمعنى «ما» وهذه تكون «ما» المصدرية وهي بمعنى الظرف، أي ذكر ما نفعت، ما دامت تنفع، ومعناها قريب من معنى الشرطية.

وأما إن ظن ظان أنها نافية فهذا غلط بين، فإن الله لا ينفي نفع الذكرى مطلقاً

وهو القائل: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ﴾ ثم قال: ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٤، ٥٥][1].

وعن [مجاهد][2] ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾﴾: إن قبلت الذكرى.

وعن مقاتل: فذكر وقد نفعت الذكرى.

وقيل: ذكر إن نفعت الذكرى وإن لم تنفع. قاله طائفة، أولهم الفراء، واتبعه جماعة[3]، منهم النحاس، والزهراوي، والواحدي، والبغوي، ولم يذكر غيره. قالوا: وإنما لم يذكر الحال الثانية كقوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] وأراد الحر والبرد.

وإنما قالوا هذا لأنهم قد علموا أنه يجب عليه تبليغ جميع الخلق وتذكيرهم سواء آمنوا أو كفروا. فلم يكن وجوب التذكير مختصاً بمن تنفعه الذكرى، كما قال في الآية الأخرى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية] وقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف] وقال: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [القلم] وقال: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

وهذا الذي قالوه [له] معنى صحيح، وهو قول الفراء وأمثاله، [لكن] لم يقله أحد من مفسري السلف، ولهذا كان أحمد بن حنبل ينكر على الفراء وأمثاله ما ينكره، ويقول: كنت أحسب الفراء رجلاً صالحاً حتى رأيت كتابه في معاني القرآن.

وهذا المعنى الذي قالوه مدلول عليه بآيات أخر، وهو معلوم بالاضطرار من أمر الرسول، فإن الله بعثه مبلغاً ومذكراً لجميع الثقلين الإنس والجن، لكن ليس هو معنى هذه الآية.

بل معنى هذه يشبه قوله: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥] وقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾ [النازعات] وقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يس: ١١] وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ [التكوير].

فالقرآن جاء بالعام والخاص، وهذا كقوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] ونحو

---

(١) بياض في الأصل (عبد الصمد).

(٢) بياض في الأصل وما بين [] مضافة من محمّد السيد الجليند من «دقائق التفسير» أما عبد الصمد فكتب (هنا بقية البياض السابق ولعله عن فلان ولم تهتد إلى المراد بهذا الفلان).

(٣) زاد المسير (٩/ ٩٠ ـ ٩١).

ذلك. وسبب ذلك أن التعليم والتذكير والإنذار والهدى ونحو ذلك له فاعل، وله قابل، فالمعلم المذكر يعلم غيره، ثم ذلك الغير قد يتعلم ويتذكر، وقد لا يتعلم ولا يتذكر، فإن تعلم وتذكر فقد تم التعليم والتذكير، وإن لم يتعلم ولم يتذكر فقد وجد أحد طرفيه وهو الفاعل، دون المَحَلّ القابل، فيقال في مثل هذا: علمته فما تعلم، وذكرته فما تذكر، وأمرته فما أطاع.

وقد يقال «ما علمته وما ذكرته» لأنه لم يحصل تاماً، ولم يحصل مقصوده، فيُنفىٰ لانتفاء كماله وتمامه، وإنتفاء فائدته بالنسبة إلى المخاطب السامع وإن كانت الفائدة حاصلة للمتكلم القائل المخاطب.

فحيث خص بالتذكير والإنذار ونحوه المؤمنون فهم مخصوصون بالتام النافع الذي سعدوا به، وحيث عمم فالجميع مشتركون في الإنذار الذي قامت به الحجة على الخلق سواء قبلوا أو لم يقبلوا.

وهذا هو الهدى المذكور في قوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧] فالهدى هنا هو البيان والدلالة والإرشاد العام المشترك، وهو كالإنذار العام والتذكير العام. وهنا قد هدى المتقين، وغيرهم، كما قال: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]، وأما قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة] فالمطلوب الهدى الخاص التام الذي يحصل معه الإهتداء، كقوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] وقوله: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [الأعراف: ٣٠] وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧] وقوله: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة: ١٦] وهذا كثير في القرآن.

وكذلك الإنذار، قد قال: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ۝٩٧﴾ [مريم] وقال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [يونس: ٢]. وقال في الخاص: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ۝٤٥﴾ [النازعات]، ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يس: ١١] فهذا الإنذار الخاص، وهو التام النافع الذي انتفع به المنذر، والإنذار هو الإعلام بالمخوف، فعلم المخوف فخاف، فآمن وأطاع.

وكذلك التذكير عام وخاص، فالعام هو تبليغ الرسالة إلى كل أحد، وهذا يحصل بإبلاغهم ما أرسل به من الرسالة، قال تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ

﴿ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [ص] وقال تعالى: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣١] وقال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [يوسف: ١٠٤، وص: ٨٧] ثم قال: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ [التكوير] فذكر العام والخاص.

والتذكير هو الذكر التام الذي يذكره المذكر به وينتفع به.

وغير هؤلاء قال تعالى فيهم: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء] وقال تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾﴾ [الشعراء] فقد أتاهم وقامت به الحجة، ولكنهم لم يصغوا إليه بقلوبهم فلم يفهموه، أو فهموه فلم يعلموا به، كما قال: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال].

والخاص هو التام النافع، وهو الذي حصل معه تذكر لمذكر، فإن هذا ذكرى كما قال: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾﴾ أي يجتنب الذكرى، وهو إنما جنب الذكرى الخاصة.

وأما المشترك الذي تقوم به الحجة فقد ذكر هو وغيره بذلك وقامت الحجة عليهم، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] وقال: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] وقال عن أهل النار: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ [الملك] وقال تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٠].

وأما تمثيلهم ذلك بقوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] أي وتقيكم البرد، فعنه جوابان:

أحدهما: أنه ليس هناك حرف شرط علق به الحكم بخلاف هذا الموضع فإنه إذا علق الأمر بشرط وكان مأموراً به في حال وجود الشرط كما هو مأمور به في حال عدمه كان ذكر الشرط تطويلاً للكلام تقليلاً للفائدة وإضلالاً للسامع.

وجمهور الناس على أن مفهوم الشرط حجة، ومن نازع فيه يقول: سكت عن غير المعلق، لا يقول: إن اللفظ دل على المسكوت كما دل على المنطوق، فهذا لا يقوله أحد.

الثاني: أن قوله: ﴿تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ على بابه، وليس في الآية ذكر البرد، وإنما

يقول «إن المعطوف محذوف» هو الفراء وأمثاله ممن أنكر عليهم الأئمة حيث يفسرون القرآن بمجرد ظنهم وفهمهم لنوع من علم العربية عندهم، وكثيراً لا يكون ما فسروا به مطابقاً، وليس في الكلام ما يدل على ذكر البرد، ولكن الله ذكر في هذه السورة إنعامه على عباده، وتسمى «سورة النعم»[1] فذكر في أولها أصول النعم التي لا بد منها ولا تقوم الحياة إلا بها، وذكر في أثنائها تمام النعم.

وكان ما يقي البرد من أصول النعم، فذكر في أول السورة في قوله: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ﴾ [النحل: ٥]. فالدفء ما يدفئ ويدفع البرد.

والبرد الشديد يوجب الموت بخلاف الحر، فقد مات خلق من البرد بخلاف الحر، فإن الموت منه غير معتاد، ولهذا قال بعض العرب: البرد بؤس، والحر أذى.

فلما ذكر في أثنائها تمام النعم ذكر الظلال وما يقي الحر، وذكر الأسلحة ما يقي القتل، فقال: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [النحل].

فذكر أنه يتم نعمته كما بين ذلك في هذه الآيات فقال: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾.

وفرق بين الظلال والأكنان، فإن الظلال يكون بالشجر ونحوه مما يظل ولا يكن، بخلاف ما في الجبال من الغيران فإنه يظل ويكن. فهذا في الأمكنة، ثم قال في اللباس: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ﴾ فهذا في اللباس، واللباس والمساكن كلاهما تقي الناس ما يؤذيهم من حر وبرد وعدو، وكلاهما تسترهم عن أعين الناظرين.

وفي البيوت خاصة يسكنون، كما قال: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ [النحل: ٨٠] فلما ذكر البيوت المسكونة امتنَّ بكونه جعلها سكناً يسكنون فيها من تعب الحركات، وذكر أنه جعل لهم بيوتاً أخرى يحملونها معهم ويستخفونها يوم ظعنهم ويوم إقامتهم، فذكر البيوت الثقيلة التي لا تحمل والخفيفة التي تحمل. فتبين أن ما مثلوا به حجة عليهم.

---

(١) أي في سورة النحل تسمى هكذا.

فقوله: ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ ـ كما قال مفسرو السلف والجمهور ـ على بابها، قال الحسن البصري: تذكرة للمؤمن، وحجة على الكافر، وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ لا يمنع كون الكافر يبلغ القرآن لوجوه:

أحدها: أنه لم يخص قوماً دون قوم لكن قال: ﴿فَذَكِّرْ﴾ وهذا مطلق بتذكير كل أحد، وقوله: ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ لم يقل «إن نفعت كل أحد» بل أطلق النفع. فقد أمر بالتذكير إن كان ينفع. والتذكير المطلق العام ينفع. فإن من الناس من يتذكر فينتفع به، والآخر تقوم عليه الحجة ويستحق العذاب على ذلك، فيكون خيره لغيره، فيحصل بتذكيره نفع أيضاً، ولأنه بتذكيره تقوم عليه الحجة، فتجوز عقوبته بعد هذا بالجهاد وغيره، فتحصل بالذكرى منفعة.

فكل تذكير ذكر به النبي ﷺ للمشركين[1] حصل به نفع في الجملة، وإن كان النفع للمؤمنين الذي قبلوه واعتبروا به وجاهدوا المشركين الذين قامت عليهم الحجة.

فإن قيل: فعلى هذا كل تذكير قد حصل به نفع، فأي فائدة في التقييد؟.

قيل: بل منه ما لم ينفع أصلاً، وهو ما لم يؤمر به، وذلك كمن أخبر الله أنه لا يؤمن، كأبي لهب، فإنه بعد أن أنزل الله قوله: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣﴾ [المسد] فإنه لا يخص بتذكير بل يعرض عنه. وكذلك كل من لم يصغ إليه ولم يستمع لقوله فإنه يعرض عنه، كما قال: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ۝٥٤﴾ [الذاريات]، ثم قال: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥﴾ [الذاريات] فهو إذا بلغ قوماً الرسالة فقامت الحجة عليهم، ثم امتنعوا من سماع كلامه أعرض عنهم، فإن الذكرى حينئذ لا تنفع أحداً.

وكذلك من أظهر أن الحجة قامت عليه وأنه لا يهتدى فإنه لا يكرر التبليغ عليه.

الوجه الثاني: أن الأمر بالتذكير أمر بالتذكير التام النافع، كما هو أمر بالتذكير المشترك.

وهذا التام النافع يخص به المؤمنين المنتفعين، فهم إذا آمنوا ذكرهم بما أنزل، وكلما أنزل شيء من القرآن ذكرهم به ويذكرهم بمعانيه، ويذكرهم [بما] نزل قبل ذلك، بخلاف الذين قال فيهم: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۝٤٩ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝٥٠ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ۝٥١﴾ [المدثر] فإن هؤلاء لا يذكرهم كما يذكر المؤمنين إذا كانت الحجة قد قامت

(١) كذا بالأصل ولعله (المشركين) المفعول به من ذكر (عبد الصمد).

عليهم وهم معرضون عن التذكرة لا يسمعون. ولهذا قال: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾ [عبس] فأمره أن يقبل على من جاءه يطلب أن يتزكى وأن يتذكر.

وقال: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤﴾ فذكر التذكر والتزكي، كما ذكرهما هناك، وأمره أن يقبل على من أقبل عليه دون من أعرض عنه، فإن هذا ينتفع بالذكرى دون ذاك. فيكون مأموراً أن يذكر المنتفعين بالذكرى تذكيراً يخصهم به غير التبليغ العام الذي تقوم به الحجة، كما قال: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ۝٥٤ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥﴾ [الذاريات].

وقال: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠] وفي الصحيحين عن ابن عباس: قال: «كان رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن سمعه المشركون فسبوا القرآن ومن أنزل عليه ومن جاء به، فقال الله له: «ولا تجهر به فيسمعه المشركون، ولا تخافت به عن أصحابك»[1] فنهى عن أن يسمعهم إسماعاً يكون ضرره أعظم من نفعه.

وهكذا كل ما يأمر الله به لا بد أن تكون مصلحته راجحة على مفسدته، والمصلحة هي المنفعة، والمفسدة هي المضرة، فهو إنما يؤمر بالتذكير إذا كانت المصلحة راجحة، وهو أن تحصل به منفعة راجحة على المضرة، وهذا يدل على الوجه الأول والثاني، فحيث كان الضرر راجحاً فهو منهي عما يجلب ضرراً راجحاً.

والنفع أعم في قبول جميعهم، فقبول بعضهم نفع، وقيام الحجة على من لم يقبل نفع، وظهور كلامه حتى يبلغ البعيد نفع، وبقاؤه عند من سمعه حتى بلغه إلى من لم يسمعه نفع، فهو ﷺ ما ذكر قط إلا ذكرى نافعة، لم يذكر ذكرى قط يكون ضررها راجحاً.

وهذا مذهب جمهور المسلمين من السلف والخلف أن ما أمر الله به لا بد أن تكون مصلحته راجحة ومنفعته راجحة، وأما ما كانت مضرته راجحة فإن الله لا يأمر به.

---

(١) البخاري (٧٤٩٠)، ومسلم (٢/ ٣٤).

وأما جهم ومن وافقه من الجبرية فيقولون: إن الله قد يأمر بما ليس فيه منفعة ولا مصلحة البتة، بل يكون ضرراً محضاً إذا فعله المأمور به، وقد وافقهم على ذلك طائفة من متأخري أتباع الأئمة ممن سلك مسلك المتكلمين ـ أبي الحسن [الأشعري وغيره ـ في][1] مسائل القدر، فنصر مذهب جهم والجبرية.

الوجه الثالث: أن قوله: ﴿ٱلذِّكْرَىٰ﴾ يتناول التذكر والتذكير، فإنه قال: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩﴾ فلا بد أن يتناول ذلك تذكيره.

ثم قال: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١﴾. والذي يتجنبه الأشقى هو الذي فعله من يخشى، وهو التذكر، فضمير الذكرى هنا يتناول التذكر، وإلا فمجرد التذكير الذي قامت به الحجة لم يتجنبه أحد.

لكن قد يراد بتجنبها أنه لم يستمع إليها ولم يصغ، كما قال: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦] والحجة قامت بوجود الرسول المبلغ، وتمكنهم من الاستماع والتدبر، لا بنفس الاستماع، ففي الكفار من تجنب سماع القرآن واختار غيره، كما يتجنب كثير من المسلمين سماع أقوال أهل الكتاب وغيرهم، وإنما ينتفعون إذا ذكروا فتذكروا، كما قال: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠﴾.

فلما قال: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩﴾ فقد يراد بالذكرى نفس تذكيره ـ تذكر أو لم يتذكر ـ، وتذكيره نافع لا محالة كما تقدم وهذا يناسب الوجه الأول.

وقد ذكر بعضهم أن هذا يراد به توبيخ من لم يتذكر من قريش، قال ابن عطية: اختلف الناس في معنى قوله: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩﴾ فقال الفراء والنحاس والزهراوي: معناه «وإن لم تنفع» فاقتصر على الاسم الواحد لدلالته على الثاني.

قال: وقال بعض الحذاق: [قوله ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ][2] ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩﴾ اعتراض بين الكلامين على وجه التوبيخ لقريش. أي إن نفعت الذكرى في هؤلاء الطغاة العتاة، وهذا كنحو قول الشاعر:

لقد أسمعت لو ناديت حياً ... ولكن لا حياة لمن تنادي

---

(١) بياض في الأصل وما بين [] من تقدير (عبد الصمد).

(٢) بياض في الأصل وما بين [] من تقدير (عبد الصمد).

وهذا كله كما تقول لرجل: «قل لفلان واعذله إن سمعك»، إنما هو توبيخ للمشار إليه.

«قلت»: هذا القائل هو الزمخشري[1] وهذا القول فيه بعض الحق، لكنه أضعف من ذاك القول من وجه آخر، فإن مضمون هذا القول أنه مأمور بتذكير من لا يقبل ولا ينتفع بالذكرى دون من يقبل، كما قال: «إن نفعت الذكرى في هؤلاء الطغاة العتاة» وكما أنشده في البيت.

ثم البيت الذي أنشده خبر عن شخص خاطب آخر فيقول: ـ لقد أسمعت لو كان من تناديه حياً، وهذا كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾ [البقرة] وقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ۝٨٠﴾ [النمل] وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ۝٤٥﴾ [الأنبياء] فهذا يناسب معنى البيت، وهو خبر خاص.

وأما الأمر بالإنذار فهو مطلق عام، وإن كان مخصوصاً فالمؤمنون أحق بالتخصيص، كما قال: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥] وقال: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥﴾ [النازعات] ليس الأمر مختصاً بمن لا يسمع.

كيف وقد قال بعد ذلك: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١﴾ فهذا الذي يخشى هو ممن أمره بتذكيره، وهو ينتفع بالذكرى، فكيف لا يكون لهذا الشرط فائدة إذا ذم من لم يسمع؟.

وأما قول القائل «قل لفلان واعذله إن سمعك» فهذا وأمثاله يقوله الناس لمن يظنون أنه لا يقبل ولكن يرجون قبوله، فهم يقصدون توبيخه على تقدير الرد، لا على تقدير القبول، فيقولون: «قل له إن كان يسمع منك» و«قل له إن كان يقبل» و«انصحه إن كان يقبل النصيحة». وهو كله من هذا الباب، فهو أمر بالنصيحة التامة المقبولة إن كان يقبلها، وأمر بأصل النصح وإن رده، وذم له على التقدير.

وكذلك قوله: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩﴾ أمر بتذكير كل أحد، فإن انتفع كان تذكره تاماً نافعاً، وإلا حصل أصل التذكير الذي قامت به الحجة، ودل ذلك على ذمه واستحقاقه التوبيخ.

---

(١) الزمخشري (٤/ ٧٣٩ ـ ٧٤٠).

مع أنه سبحانه إنما قال: ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ ولم يقل: ذكر من تنفع الذكرى فقط. كما في قوله: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥] فهناك الأمر بالتذكير خاص.

وقد جاء عاماً وخاصاً كخطاب القرآن بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة: ٢١] وهو عام وبـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ١٠٤] خاص لمن آمن بالقرآن.

فهناك قال: ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥] وهنا قال: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾﴾ ولم يقل «سينتفع من يخشى» فإن النفع الحاصل بالتذكير[1] أعم من تذكر من يخشى.

فإنه إذا ذكر قامت الحجة على الجميع، والأشقى الذي تجنبها حصل بتذكيره قيام الحجة عليه واستحقاقه لعذاب الدنيا والآخرة، وفي ذلك لله حكم ومنافع هي نعم على عباده، فكل ما يقضيه الله تعالى هو من نعمته على عباده ولهذا يقول عقب تعديد ما يذكره: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ [الرحمٰن].

ولما ذكر ما ذكره في سورة النجم وذكر إهلاك مكذبي الرسل قال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [النجم] فإهلاكهم من آلاء ربنا. وآلاؤه نعمه التي تدل على رحمته، وعلى حكمته، وعلى مشيئته، وقدرته وربوبيته ﷻ.

ومن نفع تذكير الذي يتجنبها أنه لما قامت عليه الحجة واستحق العذاب خف بذلك شر عن المؤمنين، فإن الله يهلكهم بعذاب من عنده أو بأيديهم، وبهلاكه ينتصر الإيمان وينتشر، ويعتبر به غيره، وذلك نفع عظيم.

وهو أيضاً يتعجل موته فيكون أقل لكفره، فإن الله أرسل محمداً رحمة للعالمين، فبه تصل الرحمة إلى كل أحد بحسب الإمكان. وأيضاً، فإن الذي يتجنبها بتجنبه استحق هذا الوعيد المذكور، فصار ذلك تحذيراً لغيره من أن يفعل مثل فعله، قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ [البقرة: ٦٦] وقال تعالى عن فرعون: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الزخرف] وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١].

فصل

وقوله: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾﴾ يقتضي أن كل من يخشى يتذكر، والخشية قد تحصل عقب الذكر، وقد تحصل قبل الذكر وقوله: ﴿مَن يَخْشَىٰ﴾ مطلق. ومن الناس من

(١) في الأصل (التذكر) وهو تصحيف (عبد الصمد).

يظن أن ذلك يقتضي أنه لا بد أن يكون قد خشي أولاً حتى يذكر، وليس كذلك، بل هذا كقوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] وقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ۝٤٥﴾ [النازعات] وقوله: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥] وقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يس: ١١].

وهو إنما خاف الوعيد بعد أن سمعه، لم يكن وعيد قبل سماع القرآن وكذلك قوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يس: ١١] وهو إنما اتبع الذكر وخشي الرحمن بعد أن أنذره الرسول.

وقد لا يكونون خافوها قبل الإنذار ولا كانوا متقين قبل سماع القرآن، بل به صاروا متقين.

وهذا كما يقول القائل: ما يسمع هذا إلا سعيد، وإلا مفلح، وإلا من رضي الله عنه، وما يدخل في الإسلام إلا من هداه الله، ونحو ذلك، وإن كانت هذه الحسنات والنعم تحصل بعد الإسلام وسماع القرآن.

ومثل هذا قوله: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٢٠﴾ [الجاثية] وقد قال في نظيره: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١﴾ وإنما يشقى بتجنبها وهذا كما يقال: إنما يحذر من يقبل، وإنما ينتفع بالعلم من عمل به. فمن استمع القرآن فآمن به وعمل به صار من المتقين الذين هو هدى لهم، ومن لم يؤمن به ولم يعمل به لم يكن من المتقين، ولم يكن ممن اهتدى به. بل هو كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤] ولم يرد أنهم كانوا مؤمنين، فلما سمعوه صار هدى وشفاء، بل إذا سمعه الكافر فآمن به صار في حقه هدى وشفاء، وكان من المؤمنين به بعد سماعه.

وهذا كقوله في النوع المذموم: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٢٦ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ [البقرة] ولا يجب أن يكونوا فاسقين قبل ضلالهم، بل من سمعه فكذب به صار فاسقاً وضل.

وسعد بن [أبي] وقاص[1] وغيره أدخلوا في هذه الآية أهل الأهواء كالخوارج.

---

(١) مر الكلام عليه في بداية سورة البقرة.

وكان سعد يقول: هم من ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ [البقرة] ولم يكن علي وسعد، وغيرهما من الصحابة يكفرونهم.

وسعد أدخلهم في هذه الآية لقوله: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ وهم ضلوا به بسبب تحريفهم الكلم عن مواضعه وتأويله على غير ما أراد الله، فتمسكوا بمتشابهه، وأعرضوا عن محكمه وعن السنة الثابتة التي تبين مراد الله بكتابه، فخالفوا السنة وإجماع الصحابة مع ما خالفوه من محكم كتاب الله تعالى.

ولهذا أدخلهم كثير من السلف في الذين ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ [آل عمران: ٧] ﴿ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ [الأنعام: ١٥٩] وبسط هذا له موضع آخر.

والمقصود الآية، وقد دلت على أن كل من يخشى فلا بد أن يتذكر، فقد يتذكر فتحصل له بالتذكر خشية، وقد يخشى فتدعوه الخشية إلى التذكر.

وهذا المعنى ذكره قتادة. فقال: والله! ما خشي الله عبد قط إلا ذكره.

﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾﴾ قال قتادة: فلا والله! لا يتنكب عبد هذا الذكر زهداً فيه وبغضاً له ولأهله إلا شقياً بين الشقاء.

والخشية في القرآن مطلقة تتناول خشية الله وخشية عذابه في الدنيا والآخرة.

قال الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾ [النازعات] وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ﴾ [الشورى]، وقال: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ [الطور].

فصل

وقوله: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾ وقد ذكر في سورة الليل قوله: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾ [الليل] وهذا الصلي قد فسره النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي أخرجه مسلم عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «أما أهل النار الذين هم أهلها

فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن أناس أصابتهم النار بذنوبهم ـ أو قال: بخطاياهم ـ فأماتهم إماتة، حتى إذا كانوا فحماً أذن بالشفاعة، فجيء بهم ضبائر ضبائر، فبثوا على أنهار الجنة، ثم قيل: يا أهل الجنة! أفيضوا عليهم، فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل»[1] فقال رجل من القوم: كأن رسول الله ﷺ قد كان بالبادية. وفي رواية ذكرها ابن أبي حاتم فقال: ذكر عن عبد الصمد بن عبد الوارث، ثنا أبي، ثنا سليمان التيمي، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد، أن رسول الله ﷺ خطب، فأتى على هذه ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: ٧٤] فقال النبي ﷺ: «أما أهلها الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون» وأما الذين ليسوا من أهل النار فإن النار تميتهم، ثم يقوم الشفعاء فيشفعون فيهم فيشفعون، فيؤتى بهم [إلى] نهر يقال له الحياة، أو الحيوان فينبتون كما ينبت الغثاء في حميل السيل»[2].

فقد بين النبي ﷺ [أن] هذا الصلي لأهل النار الذين هم أهلها، وأن الذين ليسوا من أهلها فإنها تصيبهم بذنوبهم وأن الله يميتهم فيها حتى يصيروا فحماً، ثم يشفع فيهم فيخرجون ويؤتى بهم إلى نهر الحياة فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل.

وهذا المعنى مستفيض عن النبي ﷺ ـ بل متواتر ـ في أحاديث كثيرة في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي سعيد، وأبي هريرة، وغيرهما.

وفيها الرد على طائفتين. على الخوارج والمعتزلة الذين يقولون: إن أهل التوحيد يخلدون فيها، وهذه الآية حجة عليهم، وعلى من حكى عنه من غلاة المرجئة: أنه لا يدخل النار من أهل التوحيد أحد، فإن إخباره بأن أهل التوحيد يخرجون منها بعد دخولها تكذيب لهؤلاء وأولئك.

وفيه رد على من يقول: يجوز أن لا يدخل الله من أهل التوحيد أحداً النار، كما يقوله طائفة من المرجئة الشيعة، ومرجئة أهل الكلام المنتسبين إلى السنة ـ وهم الواقفة من أصحاب أبي الحسن وغيرهم، كالقاضي أبي بكر وغيره، فإن النصوص المتواترة تقتضي دخول بعض أهل التوحيد وخروجهم.

والقول بـ: «أن أحداً لا يدخلها من أهل التوحيد» ما أعلمه ثابتاً عن شخص معين فأحكيه عنه، لكن حكي عن مقاتل بن سليمان وقال: احتج من قال ذلك بهذه الآية.

---

(١) مرّ تخريجه.

(٢) ذكره ابن كثير في تفسيره.

وقد أجيبوا بجوابين:

أحدهما: جواب طائفة، منهم الزجاج، قالوا: هذه نار مخصوصة. لكن قوله بعدها ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾﴾ [الليل] لا يبقى فيه كبير وعد، فإنه إذا جنب تلك النار جاز أن يدخل غيرها.

وجواب آخرين قالوا: لا يصلونها صلي خلود، وهذا أقرب: وتحقيقه أن الصلي هنا هو الصلي المطلق، وهو المكث فيها والخلود على وجه يصل العذاب إليهم دائماً.

فأما من دخل وخرج فإنه نوع من الصلي، ليس هو الصلي المطلق لا سيما إذا كان قد مات فيها والنار لم تأكله كله، فإنه قد ثبت أنها لا تأكل مواضع السجود، والله أعلم.

فصل

جمع الله سبحانه بين إبراهيم وموسى ﷺ وعلى سائر المرسلين في أمور، مثل قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾، وفي حديث أبي ذر الطويل قلت: يا رسول الله كم كتاباً أنزل الله؟.

قال: «مائة كتاب وأربعة كتب: ثلاثين صحيفة على شيث، وخمسين على إدريس، وعشر على إبراهيم، وعشر على موسى قبل التوراة، وأنزل التوراة، والإنجيل، والزبور، والفرقان» وقال في الحديث: «فهل عندنا شيء مما في صحف إبراهيم؟ فقال: «نعم» وقرأ قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾»[1].

فإن[2] التزكي هو التطهر والتبرك بترك السيئات الموجب زكاة النفس، كما قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾﴾ [الشمس] ولهذا تفسر الزكاة تارة بالنماء والزيادة وتارة بالنظافة والإماطة، والتحقيق أن الزكاة تجمع بين الأمرين ـ إزالة الشر، وزيادة الخير، وهذا هو العمل الصالح وهو الإحسان. وذلك لا ينفع إلا بالإخلاص لله، وعبادته وحده لا شريك له، الذي هو أصل الإيمان، وهو قوله: ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾

---

(١) ابن حبان (٣٦١ ـ الإحسان) وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٦٦ ـ ١٦٨) وابن عدي في الكامل (٧/ ٢٦٩٩) وابن حبان في المجروحين (٣/ ١٢٩) وفيه ضعف واضح.

(٢) هكذا بفاء التعقيب مع أنه لم يسبقها كلام يخصها والظاهر أن هناك سقطاً ويدل على الخلل ما تقدمها من قطعة في غير مناسبة (عبد الصمد).

فهذه الثلاث ـ قد يقال ـ تشبه الثلاث التي يجمع الله بينها في القرآن في مواضع، مثل قوله في أول البقرة ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ [البقرة] ومثل قوله: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥] ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١١].

وقد يقال: تشبه الثنتين المذكورتين في قوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [البقرة: ٦٢] الآية، وقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥].

لكن هنا التزكي في الآية أعم من الإنفاق، فإنه ترك السيئات الذي أصله بترك الشرك.

فأول التزكي التزكي من الشرك، كما قال: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [فصلت] وقال: ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

والتزكي من الكبائر، الذي هو تمام التقوى، كما قال: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢]. وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۝٤٩﴾ [النساء] فعلم أن التزكية هو الإخبار بالتقوى.

ومنه التزكي بالطهارة، وبالصدقة والإحسان، كما قال: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

و﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ﴾ قد يعنى به الإيمان بالله، و«الصلاة»: العمل، فقد يذكر اسم ربه من لا يصلي.

ومن الفقهاء من يقول: هو ذكر اسمه في أول الصلاة، ولهذا ـ والله أعلم ـ قدم التزكي في هذه الآية.

وكان طائفة من السلف إذا أدوا صدقة الفطر قبل صلاة العيد يتأولون بهذه الآية، وكان بعض السلف ـ أظنه يزيد بن أبي حبيب يستحب أن يتصدق أمام كل صلاة لهذا المعنى[1].

ولما قدم الله الصلاة على النحر في قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ [الكوثر] وقدم

---

(١) مرّ تخريجه.

التزكي على الصلاة في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ كانت السنة أن الصدقة قبل الصلاة في عيد الفطر، وأن الذبح بعد الصلاة في عيد النحر.

ويشبه ـ والله أعلم ـ أن يكون الصوم من التزكي المذكور في الآية. فإن الله يقول: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣] فمقصود الصوم التقوى، وهو من معنى التزكي.

وفي حديث ابن عباس: «فرض رسول الله ﷺ صدقة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث وطعمة للمساكين»[1] فالصدقة من تمام طهرة الصوم، وكلاهما متقدم على صلاة العيد. فجمعت هاتان الكلمتان الترغيب فيما أمر الله به من الإيمان والعمل الصالح وفي قوله: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ الإيمان باليوم الآخر.

وهذه الأصول المذكورة في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة]، وقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ وقال أيضاً: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النجم].

وأيضاً، فإن إبراهيم صاحب الملة وإمام الأمة قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل] وقال: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠] وقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء: ١٢٥] وقال: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٠] وقال: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤].

وموسى صاحب الكتاب والكلام والشريعة، الذي لم ينزل من السماء كتاب أهدى منه ومن القرآن.

ولهذا قرن بينهما في مواضع، كقوله: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: ٩١، ٩٢] وقوله: ﴿قَالُوا۟ سِحْرَانِ﴾ ـ إلى

(١) مرّ تخريجه.

قوله ـ ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ﴾ [القصص: ٤٨، ٤٩] وقول الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأحقاف: ٣٠] وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾ [الأحقاف: ١٠] وقول النجاشي[١]: «إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة.

وقيل في موسى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] وفي إبراهيم ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥] وأصل الخلّة[٢] عبادة الله وحده، والعبادة غاية الحب والذل وموسى صاحب الكتاب والكلام.

ولهذا كان الكفار بالرسل ينكرون حقيقة خلة إبراهيم وتكليم موسى: ولما نبغت البدع الشركية في هذه الأمة أنكر ذلك الجعد بن درهم فقتله المسلمون لما ضحى به أمير العراق خالد بن عبد الله وقال: ضحوا تقبل الله ضحاياكم، فإني مضح بالجعد بن درهم ـ إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ولم يكلم موسى تكليماً، ثم نزل فذبحه.

ولما بعث الله نبيه ﷺ بعثه إلى أهل الأرض وهم في الأصل صنفان ـ أميون وكتابيون، والأميون كانوا ينتسبون إلى إبراهيم، فإنهم ذريته، وخزان بيته، وعلى بقايا من شعائره، والكتابيون أصلهم كتاب موسى، وكلا الطائفتين قد بدلت وغيرت. فأقام ملة إبراهيم بعد اعوجاجها، وجاء بالكتاب المهيمن، المصدق لما بين يديه، المبين لما اختلف فيه وما حرف وكتم من الكتاب الأول)[٣].

---

(١) مرّ تخريجه.

(٢) في الأصل (الملة) والظاهر أنه تصحيف من (الخلة) (عبد الصمد).

(٣) مجموع الفتاوى (١٦/ ٨٢ ـ ٢٠٣).